أزهر جرجيس

حجر السعادة

الطبعة السادسة

رواية

مكتبة
Telegram Network

القائمة القصيرة
الجائزة العالمية للرواية العربية
INTERNATIONAL PRIZE FOR ARABIC FICTION

«مكتبة ♔ النخبة»

رواية

حجر السعادة

أزهر جرجيس

www.daralrafidain.com

حجر السعادة

أزهر جرجيس

ترجمة عنوان الكتاب باللغة الإنكليزية:

The Stone of Happiness

By Azher Jirjees

الطبعة الأولى: أبريل ـ نيسان، 2022

Copyrights@Dar Al _ Rafidain2022

© جميع حقوق الطبع محفوظة/All Rights Reserved

حقوق النشر تعزز الإبداع، تشجع الطروحات المتنوعة والمختلفة، تطلق حرية التعبير، وتخلق ثقافة نابضة بالحياة. شكراً جزيلاً لك لشرائك نسخةً أصليةً من هذا الكتاب ولاحترامك حقوق النشر من خلال امتناعك عن إعادة إنتاجه أو نسخه أو تصويره أو توزيعه أو أيٍّ من أجزائه بأي شكلٍ من الأشكال دون إذن. أنت تدعم الكتّاب والمترجمين وتسمح للرافدين أن تستمرّ برفد جميع القرّاء بالكتب.

لبنان ـ بيروت / الحمرا

تلفون: +961 1 345683 / +961 1 541980

بغداد ـ العراق/ شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: +9647714440520/+9647811005860

www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
daralrafidain@yahoo.com
Dar AL Rafidain دار الرافدين
daralrafidain
daralrafidain
dar_alrafidain
daralrafidain دار الرافدين

تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 9922 - 671 - 24 - 6

حجر السعادة

حين تغادرنا السعادة، فإن كل ما نعيشه بعدها لا يُعد مغريًا.

خليل المصور

الفصل الأول

قاتل مأجور

شتاء 2018

هكذا، بعد عمر قضيته مسالمًا كالدجاج، وجدت نفسي وجهًا لوجه مع قاتل مأجور.

أنا مثلكم لا أعرف ابن الحرام هذا، ولا الأسباب الموجبة لقتلي، وحتى اليوم الذي سبق ظهوره أمامي كنت أظن بأني سأحظى بموت هادئ فوق السرير دون أن تموء لأجلي قطة. لم أكن أعلم بأن نهايتي ستكون صاخبة، وحياتي التي طالما ظننتها أتفه من رماد السجائر مهمة إلى حد التربص بها والرغبة في سلبها. لكنها لحظات خيبة الظن، التي مهما طال الزمان لا بد من بلوغها ذات يوم.

كنت عائدًا بالسيارة صوب المنزل، وبالقرب مني تستريح الكاميرا، وفجأة انبثق من جوف الظلام زعيق دراجة نارية ثم راحت تقتفي أثري. نظرت في المرآة الخلفية، لكن دون جدوى، فاللثام يخفي وجوه القتلة، وأضواء المدينة باهتة كسحنة المرضى! رفعت الزجاج وتابعت القيادة مصغيًا لصوت العود الهادر من المذياع. كانت معزوفة بغداد، التي ما سمعتها مرة إلا واكتسحني مد الحنين. دلفت إلى المحلة أخيرًا وانعطفت ببطء في الزقاق الرابع من جهة اليمين، ولم يبق سوى عدة أمتار على بلوغ عتبة الباب. غير أن صبر القاتل كان أقصر من لفافة تبغ بيد مراهق، إذ سرعان ما نفد ليجتازني ويعترض الطريق شاهرًا مسدسه الكاتم للصوت.

كانت عينه في عيني، وحركة كهذه كافية لإصابتي بالهلع. ارتجفت أطرافي وداهمني شعور بالخدر، متبوع برغبة شديدة في التبول. جذبت نفسًا كؤودًا ثم رحت أفكر، والحياة تشارف على خط النهاية، بما ستؤوله ذكراي. لا شك سيتصدر اسمي عناوين الأخبار، ويتبادل صور جثتي رواد المقاهي وربّات المنازل ومراجعو عيادات الأسنان. سينبشون دفاتري بإبر الفضول، لأغدو بذلك حديث الساعة ثلاث ليال كحد أدنى. إنها واحدة من سخريات القدر أن يكون خبر موتك سببًا في تعرف الناس عليك! لكن طيفًا لاح في الأثناء من خلف القاتل وأخذ يسطع شيئًا فشيئًا ليخرس صخب الذعر في قلبي ويثبت حماقة الظنون. كان طيف حارس البستان بذقنه الأبيض المهيب، وهو يهمس لي بتلك النبرة الرخيمة التي ما زالت منقوشة فوق صفيح الذاكرة:

ـ الأرانب تصل أولًا.

حينذاك تبدد الليل وتراءى وجه النهار صافيًا كنوايا الأطفال. ها هي ذي الزوارق تشق طريقها في النهر حاملة على أبدانها شباك الصيد، وها هو ذا ريمون يرشق الحصى بيده الصغيرة من على الجرف. أشاهد الآن زوجة أبي كيف تمزق ثوبها وتمرّغ جسدها في الطين غير حافلة بعيون الرجال من حولها، وأسمع صراخ جانيت يطرق باب السماء معاتبًا الرب على قدره. تطاردني نظرات الغضب ويتعالى نباح الكلاب من خلفي، فيشع وجه حارس البستان ليهمس من جديد:

ـ الأرانب تصل أولًا.

الفصل الثاني

بستان الجن

كنت في الثامنة حين عرفت الطريق إلى بستان الجن. حدث الأمر في صيف العام 1962 بعد حماقة كنت قد ارتكبتها في سوق العطارين. السوق الطويلة التي تصطف على خاصرتيها محال العطارة وباعة الزبيب والأعشاب، وتنبعث منها رائحة الغار المخلوطة بروائح الكاري والبخور. هناك، كانت زوجة أبي تبيع مكانس القش وليف الحمّام المحاك من خيوط الصوف، لتشتري بثمنها الزيت والملح والسكر. لم يكن لها دور في تلك الصفقات المبرمة مع أصحاب المحال، والتي لولاها لرمينا على أرصفة التشرد، فأختي الكبيرة، جانيت، هي من تصنع المكانس وتحيك الليف، وأنا من يحمل البضائع ذهابًا وإيابًا.

كنت أتبع زوجة أبي مثل الكلب مقابل أن تشتري لي قطعة زلابية، وكان منظري، واللعاب يسيل لمشهد قطع الحلوى الذهبية المرصوفة فوق بعضها بإتقان، مثيرًا للشفقة. لكني لم أر مشفقًا واحدًا في تلك السوق قط. كان الباعة يكنّون لي كل الاحتقار ويتعاملون معي بمنتهى الإهمال وكأني حصاة عالقة في كعب حذاء. ليس هذا فحسب، بل يعمد بعضهم إلى تفقد أخي الصغير، ريمون، دون رعاية لمشاعري!

ـ كيف حال ريمون؟

ـ لماذا لا تجلبينه معك إلى السوق!

ـ واه واه! يقولون عنه أشقر!

ليس أشقر أيها البائع البدين، بل أصفر باهت وأسنانه بارزة كأسنان الأرنب، لكنكم منافقون، كنت أردد في سري. أما زوجة أبي فتجيب، خشيةَ العين عليه، بأنه مريض ولا ينام الليل، ثم لا تنسى أن تشتري له الحلوى. كانت تشتريها له وحده، بينما تدس في فمي علكة رخيصة وتقول بمكر الشياطين: ـ أنهِ ما في فمك أولًا ثم أشتري لك ما تريد.

علمًا بأن ما أريده ليس صعب المنال إلى هذا الحد؛ قطعة زلابية فحسب.

المثير للحنق أن خداع هذه المرأة لم يكن سهلًا، بل واحدًا من المستحيلات السبعة، إذ كلما تحاذقت وابتلعت العلكة وأخبرتها: ـ انتهيت يا خالة.

أجابتني بحنان زائف:

ـ أووووه عزيزي! لقد نفد المال.

ثم قطعت لي وعدًا كاذبًا:

ـ سأشتري لك الزلابية في المرة القادمة.

فيمر النهار ثقيلًا وأنا أراقب قطعة الحلوى في يد أخي، بانتظار أن تسقط ويأكلها النمل.

أنا أحب أخي، لكن قسوتهم جعلتني أفضّل النمل عليه.

رأيتها ذات مرة تشتري له مكعبات حلقوم زهري، وتخبئها في الكيس. جذبت عباءتها إذ ذاك للتذكير بأني موجود: ـ خالة، خالة، وأنا؟

التفتت وأطلقت الكذبة ذاتها:

ـ لقد نفد المال، لا تحزن، بالمسيح سأشتري لك الزلابية في الجمعة القادمة.

وجاءت الجمعة الموعودة ولم تفعل، ثم جاءت التي بعدها ولم تفعل.. وهكذا حتى طفح بي الكيل وقررت ارتكاب حماقة ستقودني فيما بعد إلى بستان الجن.

في ذلك اليوم الساخن من أيام القيض اللاهبة، كانت زوجة أبي قد باعت ما لديها من بضاعة ووقفت لتشارك بائع الحلوى حديثًا جانبيًا. كانا منغمسين في الحديث إلى حد فقدان الشعور بوجودي، فما كان مني إلا أن اعتليت الدكة ومددت يدي وسرقت. خطفت من أمامهما قطعة زلابية وأخفيتها في جيب السروال دون أن يلتفتا. وحالما انتهى الحديث وابتاعت من السوق ما تحتاجه، حمّلتني الأكياس وتبعتها خائفًا أتلفت.

في الطريق، راودني شعور بأن قطعة الزلابية، وبسبب الحر الشديد، قد بدأت بالانصهار داخل الجيب لتلتصق بالقماش، مما دفعني للتباطؤ في المسير تحينًا لفرصة إخراجها والاطمئنان عليها. لكن زوجة أبي انتبهت لتصرّفي الغريب فاستدارت نحوي لتزجرني قائلة: ـ تحرّك يا غبي.

ـ حاضر، خالة.

وصلنا المنزل أخيرًا، ورميت الأكياس في المطبخ وركضت إلى السطح متحججًا بالاطمئنان على حماماتي وسقيها الماء. اختبأت في قن الحمام وأخرجت قطعة الحلوى. كان حالها سيئًا وتلتصق بها خيوط صغيرة وشعيرات وأتربة لا أدري من أين جاءت واستقرت في زوايا الجيب. إلا أن سوء حالها وخراب طعمها، لم يمنعاني من التهامها، أكلتها على دفعتين ومسحت على بطني كما يفعل الأغنياء بعد وجبة دسمة.

لكن؛ ولأني أحوز من النحس ما يكفي لإحراق قشة تطفو فوق الماء في يوم ماطر، كُشف أمري. لا أدري كيف حدث ذلك، إلا أن المرأة الماكرة سارعت للوشاية بي لدى أبي وانقضى الأمر. كانت جالسة على الغداء بوجه عبوس وبوز ملتو نحو جهة الشمال مبدية عدم الرغبة في تناول الطعام.

سألها أبي:

ـ ما بكِ؟ لماذا لا تأكلين؟

فقالت له بنبرة أسى بالغة الإتقان: ـ لا أشتهي الطعام، شبعت من القهر.

ـ قهر؟! من ماذا؟

ـ لا شيء، دعك مني الآن وأكمل طعامك، لا أريد أن أنغص عليك.

قال وهو يقضم رأس بصل ويردفه بكسرة خبز: ـ قولي ما عندك يا امرأة، مقهورة من ماذا؟

طأطأت رأسها بخبث وتنهدت قائلة:

ـ مقهورة من ابنك.. ابنك حرامي يا توما.

آه، كم كانت قاسية تلك الجملة القصيرة!

توقف توما عن تدوير الطعام في فمه وصفعني بكفه الثقيلة صفعة ما زال أزيزها يرن في أذني. ثم، ومن دون أن يعي الأسباب التي دفعتني لخطف قطعة الحلوى التافهة من أمام البائع، أمسك بقفاي وجرجرني كالأسرى نحو فناء المنزل. علّقني هناك، على جذع شجرة اليوكالبتوس وأخذ يقشّر جلدي بعصا التأديب. كان لسع الخيزرانة الممشوقة قاسيًا، ولا شيء يفوقه في القسوة سوى نظرات التشفي في عين تلك المرأة الحائزة على الميدالية الذهبية في أولمبياد المكر والخديعة.

أنزلني في النهاية ورماني في الشارع مردداً خلفي: ـ تف عليك وعلى أمك يا ساقط!

حتى اللحظة، لا أدري لمَ كان أبي يصفني بالساقط، رغم أني كنت في عمر لا يعد كافيًا لممارسة السقوط! كما لا أدري لم هو غاضب منا على الدوام، علمًا بأن رفاقه يصفونه

بالرجل الأنيس، الذي لا يقصر في مشاركتهم ساعات الأنس والبهجة!

لكن ما جدوى أن يكون الآباء مبتهجين خارج أسوار المنزل فحسب؟

كان أبي واحدًا من أولئك الآباء الذين يخلعون معاطف بهجتهم لدى الباب ليبدلوها بجلابيب الوحشة والنفور والغضب. مع أول خطوة داخل المنزل، مع أول نحنحة، يُصاب مزاجه بالحمى، فيقطب حاجبيه ليغدو شخصًا كئيبًا، عبوسًا، واجمًا لا طاقة له على احتمال أنفاسه. ثم لا يطيل البقاء بيننا لأكثر من ساعتين. كان عاطلًا عن العمل، يخرج في الصباح إلى المقهى، ليعود وقت الظهيرة من أجل تناول طعام الغداء ثم الاستلقاء على السرير لأخذ قيلولة خاطفة، وهي فترة السخط وتعكر المزاج وارتفاع مستوى الحموضة في المعدة. فترة قصيرة تنتهي بصفق الباب والعودة حيث مقاهي العاطلين. أما المساء، فيُقضى في خمارة سرية خلف أزقة المدينة، يحرس بابها كلب سمين مترهل الأوداج يعرف الزبائن كما يعرف أبناءه.

خرجت إلى الطريق حافيًا ذات مرة وتقفيت أثره. حينها رأيت بأم عيني كيف يتسللون كاللصوص نحو تلك الخمارة، وكيف أن الكلب يفز لتحيتهم واحدًا واحدًا. غير أني لم أجرؤ على الدنو أكثر حتى جاء اليوم الذي أجبرت فيه على ذلك. كانت الحمى يومذاك على وشك أن تخطف أختي الكبيرة، جانيت، فذهبت لإخباره. أتذكر جيدًا كيف نبحني الكلب اللعين، وكيف زجره أحد السكارى الخارجين، الذي لولاه لما كنت قد دخلت.

كانت دهشتي بالمكان كبيرة. جدران حجرية مطلية بأصباغ البوية الحمراء، وسقف منخفض تتدلى منه مصابيح صفراء يسقط ضوؤها فوق طاولات من الخشب متآكلة الأطراف. حول تلك الطاولات يتحلق رجال، بعضهم يلعب القمار، بينما يكتفي بعضهم الآخر بمزّ الخيار وشرب العرق. كانت قرقعة الكؤوس تمتزج بصوت الموسيقى الهادر من جهاز الغرامافون عند الزاوية لتصنع ليلًا خاليًا من الرتابة. أما في الطرف البعيد فتنتصب طاولة عالية تحمل زجاجات خمر وأقداح رشيقة كأجساد الراقصات، يقف خلفها رجل حليق

الشارب يمتلك بشرة قرمزية وعينين متراقصتين. كان شخصًا غريب الأطوار، سريع الحركة، ويعاني من قصر في إحدى أذنيه. قال لي مرقّصًا حاجبيه: ـ تفضل، كتكوت.

جفلت منه، فابتسم وأردف:

ـ لن أعضّك، أخبرني ماذا تريد؟

ـ أريد أبي.

ـ من أبوك؟ قل بسرعة.

ـ توما.

ـ آه، أنت كمال، إذن؟

ـ أجل.

أدار رأسه الصغير يمينًا وشمالًا مغمغمًا: ـ توما.. توما.. توما..

رقّص حاجبيه من جديد وأشار بيده:

ـ هناك، عند الطاولة في الزاوية.

اندفعت نحو الطاولة المدفونة تحت غمامة الدخان وصوت الموسيقى. وجدت أبي جالسًا مع ثلاثة من رفاقه يدخنون السجائر ويشربون العرق وأمامهم ورق اللعب. كانت بيده كأس توشك أن تفرغ، وكان واضحًا للرائي أنه قد خسر كالعادة، وجلس يوشل وعيه بشرب العرق. دنوت منه وهمست في أذنه: ـ بابا.. بابا..

ـ وجع، ماذا تريد؟

ـ جانيت مريضة.

لم تصدر منه نأمة تدل على أنه مزوّد بحس الأبوة!

أعدت عليه الكلام بعدما رفعت زر صوتي قليلًا: ـ بابا، عليك أن تأتي معي.. جانيت مريضة.

أجهز على وشالة الكأس ورفع رأسه متثاقلًا، ثم أشار لي بإصبعه نحو الباب: ـ اذهبْ، سأتبعك.

لكنه لم يفعل. وحق الله لم يفعل. بل عاد بعد انتصاف الليل مترنحًا وفمه يرسل صفيرًا متقطعًا. وقف وسط المنزل ليتجشأ خمسة آلاف مرة قبل أن يكمل طريقه نحو السرير، ثم نام وارتفع شخيره. وعندما أفاق صباحًا، شتم جانيت لأنها مرضت!

يؤلمني القول بأن أبي كان زبونًا دائمًا لدى الحانة؛ في كل ليلة يذهب هناك، ليشارك جلّاسه الكأس والقمار والضحك، فتكون النتيجة فقرًا مؤبدًا ومنزلًا من جحيم.

في ذلك اليوم، لم يكتف أبي بضربي، لو فعل ذلك لمرّ النهار بلا دموع، لكنه بصق على ذكرى أمي، فجلست باكيًا على دكة الباب. كانت الشمس حارقة ولا ظلال تفيء العتبات، أما دخول المنزل فممنوع طالما الجلاد خلف الجدران. فكرت بالقنطرة، حيث يمكن للمرء أن يستفيء بظل السقف الحجري ريثما يخجل وجه الشمس ويبتعد. كان بناة الحارات قد وضعوا في الحسبان أن شمس العراق حارقة، فوهبوا الأزقة بعض القناطر. بيد أني لم أستفد شيئًا حين ذهبت هناك، فبعض الصبية الأشداء يلعبون الكرات الزجاجية، ومن يقترب يسحقون رأسه. شاهدت في الأثناء صبيًا من ذوي الأجساد النحيلة يحمل بيده جزوة (1)، ويسير، كأي كائن ضعيف، قرب الحائط، ثم يعبر القنطرة بحذر شديد كي لا يزعج لعبهم. أعرفه جيدًا، طفل يتيم يسكن في الزقاق الخلفي، في منزل أشبه بالخرابة، رفقة أمه وجدته العمياء. تبعته بذات الوتيرة حتى خرج من المحلة وسار متجهًا صوب بستان الجن.

كانت المسافة بين محلة المياسة التي نقطنها وبين بستان الجن تبلغ ستمائة متر تقريبًا، إلا أن واحدًا منا لم يجرؤ على الذهاب هناك، وإلا سيحترق أو يفقد عقله كحد أدنى. تروي عجائز المحلة بأن خمسة أطفال تقريبًا كان الجن قد تلبّسهم حين دخلوا البستان، بينما احترق ثلاثة آخرون وتفحّمت أجسادهم. لذا صار من النادر أن تجد طفلًا يجرؤ على الاقتراب من السياج المشيّد بالحجارة والتمائم.

في غابر الأزمان، لم يكن الأمر كذلك. كان بستانًا مهجورًا لا وريث له، تتناثر على صدره أشجار توت يابسة، ويمر الناس بالقرب منه دون خوف وريبة أو فتوى تشرّع مرورهم. لكن حادثة وقعت جعلته مكانًا محرمًا، ومنحته اسمه الذي هو عليه الآن. حصل ذلك عندما أقدم أحد الفلاحين على دفن ابنته الصغيرة حيّة تحت شجرة توت لاكتشافه المتأخر بأنها ابنة حرام. تقول النمائم إنها جاءت عن طريق علاقة غير شرعية بين الزوجة الخائنة وسائس خيل لدى واحد من تجار المواشي الأغنياء، وعندما كُشف الأمر، هربا معًا. طارت الفضيحة وقتها وحلقت في الأرجاء، مما دفع التيس الغيور إلى وأد الطفلة المسكينة والرحيل مجللًا بالعار. لكن وبعد مرور فترة وجيزة، تفاجأ الجميع بأن أصواتًا تشبه صوت بكاء الأطفال أمست ترتفع من البستان ليلًا. ولأنها حادثة غريبة لم تشهد الموصل مثلها من قبل، اختلف الأهالي في تفسيرها، وانقسمت المدينة إلى فريقين؛ فريق يزعم بأن لعنة أصابت البستان بسبب ابنة الحرام التي نجّست ترابه، وآخر يدّعي بأنها علامة من الله ودليل على طهارة الفتاة وبراءة أمها الهاربة. واصل الفريقان عراك التفسير، وارتفع السباب وتطايرت الشتائم، كما هي العادة لدى كل خلاف تافه، حتى جاء في النهاية إمام جامع الخاتون وأخمد شرارة الحرب التي تنبأ الجميع بأنها ستكون طاحنة. جمع الأمام الناس وصعد المنبر وأفتاهم بأن الأمر لا يتعلق بمدفن الفتاة أيها الغافلون، بل بالجن. قبيلة من الجن الأزرق استغلت غفلتكم وانغماسكم في الشهوات والرذائل، فسكنت البستان وأمست تصدر الأصوات التي تسمعونها في جوف الليل، ولا حل أمامكم سوى التكاتف لمواجهة الخطر الداهم الذي يحيط بالمدينة. وبعدما انتهى من خطبته الصاعقة تلك أمرهم بحمل

المعاول واللحاق به لتشييد سياج من الحجارة والطين حول البستان. وفور ارتفاع السياج، دسّ تحته بعض التمائم، ثم أفتى بحرمة دخوله حفاظًا على سلامة البلاد والعباد.

رأيت الصبي يلج بستان الجن من خلال فتحة سرية صنعتها الثعالب والكلاب. كنت خائفًا، لكن جرأته، وهو هزيل وتافه مثلي، دفعتني لتجاوز خوفي قليلًا والولوج خلفه. تفاجأت بالبستان شاسع الأرجاء أخضر، تزدحم فيه أشجار التوت والفستق والزيتون، وتشقه ساقية يسبح فيها البط ويدب على كتفيها النمل والدعاسيق الملونة. عصافير الدوري تعشش آمنة بين الأغصان، والغربان تنط بسلام لتلقط أرزاقها على الثمار الساقطة بلا قطاف. أما العشب فكثيف ولامع، وفي المنتصف شجرة توت كبيرة ووارفة، تتقدمها ربوة صغيرة تنبت حولها أزهار النرجس.

التفت نحوي وابتسم.

ـ تعال، لا تخف، لوّح بيده.

تبعته عند الساقية وسألته بهدوء:

ـ ألا يوجد جن؟!

ـ أي جن؟! الكبار يكذبون.

مسحت بظاهر الكف بلل العرق الطافح على جبهتي، وجلست تحت فيء شجرة التوت، أراقب بافتتان مآل بستان الجن الغريب متسائلًا: هل يعمّر الجن البساتين إلى هذا الحد؟! أم هو رفات الفتاة البريئة من سمّد الأرض وأنبت خيرها؟! أما الصبي الهزيل، فمنشغل بنصب الفخ. كان يتصرف وكأنه اعتاد الدخول ههنا وصيد العصافير. بسط الجزوة وغشّاها بقليل من التراب وأوراق الشجر ثم أخرج من جيب سرواله حبات رز ونثرها بهدوء فوقها. لذنا بعد ذلك بجذوع الشجر نراقب العصافير؛ أيها سيكون أقصر عمرًا! سألته بهمس عمن أخبره بخلو البستان من الجن وكذب الأهالي، فقال: ـ جدتي.

ـ أليست عمياء؟!

ـ بلى، عمياء، لكنها تطبخ الطعام وتغزل الصوف وتميز بين الصادق والكاذب.. إنهم يكذبون؛ لا يوجد جن.

ـ هَه، وكيف يميز الأعمى بين الصادق والكاذب؟

ـ من الرائحة.

ـ كيف؟

ـ من يكذب رائحته نتنة، هكذا تقول جدتي.. دعك منها الآن وانتبه.

كان عصفور يحوم حول الفخ. وما هي إلا لحظات حتى فرفر محدثًا جلبة تداعى لها زملاؤه من فوق الأغصان. انطلق الصبي نحوه، أفلته من الحديد وربط ساقه بواسطة خيط، قبل أن يعيد نصب الجزوة من جديد. كررها عدة مرات حتى اكتملت مسبحة العصافير المسكينة. سيحملها ويطير بها نحو الخمارة.

ـ هذا يكفي. هيا بنا، قال وهو يرج الغنيمة في الهواء.

لقد آلمني منظر الطيور الصغيرة، الذاهبة نحو بطون السكارى في الخمّارات، وأوشكت على الاعتراض. لكننا هجسنا، ونحن نهمّ بالرحيل، صوت أقدام ثقيلة تسحق العشب خلفنا، فهربنا.

(1) فخ لصيد العصافير يصنع بربط قوسين من الحديد على خشبة صغيرة.

الفصل الثالث

كاميرا من ورق

لم تصدق جانيت بأني دخلت بستان الجن، وعندما أظهرت لها الغصن الذي كنت قد حملته معي للذكرى، قرصت أذني. كان عقابًا عابرًا لدخولي البستان وتأنيبًا وديًا على ارتكاب حماقة قد تحرقني أو تذهب بعقلي كحد أدنى. قالت حينها بنبرة واثقة إن أقدام الجن هي من سحقت العشب، وإن المسيح وقف معي هذه المرة.

ـ لن ينقذك في المرة القادمة، ضع هذا في الحسبان، كيمو.

ـ لماذا؟

ـ لأنه لا ينقذ المعاندين.

ثم عمدت إلى زبيل الخبز وأخرجت منه رغيفًا، مسحته بالزبدة ونثرت فوقه رشة سكر وطوته: ـ خذ، واذهب الآن، لدي عمل.

ـ لكني لست جائعًا.

ـ كلا، أنت جائع، خذ.

لن أجادل، فلربما يشعر الكبار بالجوع بدلًا عنا. تناولت اللفافة وخرجت من جديد لدى الباب. كانت الشمس قد ابتعدت وخفت وهجها. فكرت، وأنا أقضم الخبز، في كلام جانيت، إذ ليس ثمة شخص ثالث كان معنا في البستان. من سحق العشب إذن؟ من سحق العشب إن لم يكن واحدًا من الجن؟ ظللت أردد في سري وقررت ألا أدنو صوب البستان مرة ثانية.

أخبرت أختي الكبيرة بقراري الأخير، فمسّدت على رأسي وقبّلته لسماعي الكلام، ثم قررت أن تجازيني بهدية ثمينة؛ خاطت لي من أكياس الخيش حقيبة مدرسية: ـ هذا العام، ستذهب إلى المدرسة بحقيبة.. لستَ أقل من غيرك.

كانت تلك الفتاة النحيلة بعينيها الناعستين وضفيرتها السوداء، ورغم ما تلقاه من إهانة واستعباد داخل المنزل، بمثابة أم رؤوم. ولو أن الله أبقى لي أمي، لما كانت أحنّ من جانيت.

لكنْ؛ عندما حان الخريف وحملت حقيبة الخيش فرِحًا ألج بها باب المدرسة، شاهدها المدير الواقف في المدخل وابتسم! حتى اللحظة لا أدري لمَ ابتسم، هل لأن الحقيبة فقيرة تثير الهزء، أم لأن حمّالتيها طويلتان إلى حد أنها تحاذي ركبتي. غير أني شكرت الله الذي جعله يفعل ذلك، إذ كان لا يبتسم إلا بمعجزة. دخل علينا يومها وألقى خطبته السنوية، وبعد أيام جاء وأمرنا بالخروج والاجتماع في الساحة فورًا. لوهلة غالبنا الظن بأنه سيعاقبنا لأسباب مجهولة، فتفاجأنا برجل غريب هناك يرتدي بدلة ورباط عنق، كان بانتظارنا خلف كاميرا. قادنا المدير نحوه قائلًا بأن اليوم مخصص لمدرسة الطاهرة، وسيتم التقاط صورة جماعية لكل صف على حدة. ثم وجهنا للاصطفاف أمامه على شطرين؛ شطر خلفي، وشطر أمامي يثني فيه التلاميذ أرجلهم كمن يتأهب لسباق الركض. نفذنا الأوامر دون اعتراض، واصطففنا قبالة الرجل ذي الشارب معقوف الأطراف واللحية الصغيرة لدى الحنك. على يميننا وقف معلم اللاهوت، وعلى شمالنا السيد المدير، الذي وما أن استقر الجميع في أماكنهم حتى أعلن جاهزيتنا مخاطبًا المصور: ـ تفضل يا أفندي.

رفع الأخير إبهامه الأيسر وقال:

ـ انظروا هنا.

وأردف:

ـ اقطعوا النفس.

ثم راح يعد:

ـ واحد، اثنان، ثلاثة.

ليكبس على بالون صغير في يده: «ثْرِكْ إشششث». ويقول: ـ انتهى.

عاد التلاميذ إلى الصف سواي، فقد كنت ذاهلًا كالأبله، يهرش رأسي سؤال عما يكتنزه ذاك الصندوق السحري الرابض فوق السيقان النحيلة. شعرت بالمدير يقترب، ولم يكن ثَم وقت للإفلات، إذ سرعان ما أمسك بأذني وشدّها حتى استطالت وكادت تقطع.

ـ ماذا قلت أنا؟ ألم أقل إلى الصف؟

لكن المصور تدارك الموقف قائلًا:

ـ يا أستاذ، دعه يرى.

ثم أردف ساخرًا:

ـ عوضًا عن أذنه التي استطالت.

ابتسم المدير وسمح لي بالاقتراب والنظر. دنوت وكانت الكاميرا عالية، مما دفع المصور إلى تقصير أرجلها مرددًا: ـ هيا انظر أيها الجرذ الصغير.

لصقت عينَي في اللوح، دون اكتراث لسخرية صاحبه. كانت الصورة مقلوبة وكأن شيطانًا يتلبسها، والضوء ينعكس مؤكدًا بأن من صنع هذه الآلة شخص ممسوس.

ـ هل هي آلة من الجن؟! ـ رددت في سري ومضيت.

وعندما عدت إلى المنزل ودخلت حجرتي، التي كانت منزوعة الباب من قبل أن يخلق الله الأبواب ويدعو إلى الستر، عمدت إلى دفتر الرسم وقطعت منه ورقتين، ثم طويتهما على هيئة مثلثين صغيرين وحشرتهما ببعضهما لتكون النتيجة كاميرا من ورق. حملتها من بعد ذاك وذهبت إلى جانيت، المنشغلة بصناعة مكنسة قش. طلبت منها أن ترمي ما في يدها وتقف تحت شجرة اليوكالبتوس. دون اعتراض فعلت.

رفعتُ لها الإبهام الأيسر كما فعل المصور: ـ اقطعي النفس، جانيت.

أبعدت المثلثين عن بعضهما وبدأت بالعد: «واحد.. اثنان.. ثلاثة».. ثم أطبقتهما مطلقًا صوتًا يشبه صوت غالق الكاميرا: «تْرِكْ إشششتْ».

ـ انتهى، تنفّسي الآن.

ابتسمتْ جانيت، وقالت ممازحة:

ـ شكرًا، حضرة المصور كمال أفندي.

أطربني لقب المصور وظلت الكاميرا الورقية رفيقتي أينما ذهبت. كنت كلما انبثق شعاع من تحت غيمة، أو مر سرب طيور مهاجرة، أو شقت الأرض نبتة، أو سقط ضوء على وجه فتاة، نظرت من خلال الفتحة بين مثلثَي الورق، وأطلقت من خلف أسناني المطبقة ذلك اللحن البهيج: «تْرِكْ إشششتْ». ليس هذا فحسب، بل أصابتني حمى قطع الصور من الجرائد ولصقها في دفتر محفوظ تحت وسادتي.

في أحد المساءات كنت ممسكًا بكاميرا الورق، أنظر من خلال الفتحة إلى المصباح الأصفر الكئيب المتدلي من السقف، ورأسي في حجر جانيت. كانت الأخيرة تمرّ بأصابعها في فروتي لتطمئن من خلوها من القمل، فالغد خميس، وهو موعد التفتيش عن القمل في المدرسة. سيخرجوننا كالخراف إلى الساحة، ويأمروننا بالوقوف تحت الشمس، ثم يُفلّون رؤوسنا واحدًا واحدًا، ومن يُعثر على قملة في رأسه يُمنح حمّامًا نفطيًا أمام الجميع. إبريق

نفط سخي يغسلون به رأسه دون اكتراث لحرقة عينيه، ثم يجبرونه على البقاء في الشمس لساعتين كاملتين. لم يكن الوقوف تحت الشمس آنذاك امتحانًا عسيرًا لكن من يُعاقب بحمّام النفط، يوصم بلقب سيظل يطارده ويخدش كبريائه لسنوات طويلة؛ «أبو القمل».

بفضل جانيت لم أذق ذات يوم هكذا عقاب، فهي من تفلّي رأسي وتسخّن لي الماء في الشتاء من أجل الاستحمام. حتى الثياب، هي من كانت تغسلها وتشرها، وتدسها بعدما تنشف داخل الكيس تحت السرير. لم أكن أملك ما أحفظ فيه ثيابي سوى ذلك الكيس. لقد حرمتني زوجة أبي من امتلاك خزانة للثياب، كي لا أشعر بوجودي داخل المنزل. حتى صندوق من خشب، كالذي تفضله عجائز ذاك الزمان لحفظ الثياب والحاجات، لم تعطني. كانت تريد لي البقاء طارئًا مثل زائر، وقد تحقق لها ما أرادت، إذ لم أشعر ذات يوم بالانتماء لمنزل أبي.

قالت جانيت وأصابعها تواصل العبث في فروة رأسي: ـ كيمو!

ـ نعم!

ـ لماذا لا تذهب وتسأل عنه في السوق؟

ـ أسأل عمن؟

ـ عن الأفندي، المصور.

ـ من أجل ماذا؟

ـ من أجل أن يعلمك التصوير.

صدرت مني نأمة بلهاء وغفوت.

وفي الغد ذهبت إلى السوق وطفقت أبحث عن المصور ذي الشارب المعقوف واللحية الصغيرة. دلّني عليه في النهاية بائع المجلات الذي يفترش الرصيف في شارع النجفي.

ـ تقصد موريس أفندي؟

ـ لا أعرف اسمه.

ـ نعم هو، لا غيره، ستجده هناك في آخر الشارع.

ذهبت حيث أشار البائع، وكان ستوديو بواجهة زجاجية تطل من خلفها غابة صور فوتوغرافية. كانت في المنتصف صورة الأفندي، صاحب المكان وهو في كامل أناقته؛ بدلة ورباط عنق وسدارة (2)، وغليون ثمين يتدلى من بين شفتيه.

ـ تعال يا ولد، نادى عليّ من خلف الزجاج، فقفزت وسط الأستوديو وألقيت عليه التحية.

لم يردّها، كان طرف الغليون في فمه، ويداه مشغولتين بحفّ صورة صغيرة بواسطة المقص. قال دون النظر لي: ـ ماذا تفعل أمام الأستوديو؟

أربكتني نبرة الرجل الذي بدا أنه يجيد الحديث من خلف أسنانه، لكني استجمعت قواي وأجبت: ـ أتفرج على الصور.

ـ مممم، تتفرج على الصور! ما اسمك؟

ـ كمال.

وأعدت الجواب لعله ينظر لي:

ـ اسمي كمال.

ثم أضفت:

ـ لقد التقطتَ لنا صورة مدرسية.

قال وكأنه لم يسمع:

ـ اذهب يا فتى، وقل لصاحب المقهى أن يجلب لي الشاي.

ولأسباب ما زلت أجهلها، هتفت بطاعة الجند: ـ حاضر.

ذهبت وأبلغت صاحب المقهى بطلب الأفندي، لكنه كان مشغولًا بتفريق الطلبات، فأوكلني المهمة. وبعد لحظات دخلت على موريس أفندي بقدح شاي، فاض بسبب الرجرجة ثلثه وملأ الطبق. وضعته على الطاولة وتسمّرت أمام الرجل الذي جلس يشرب الشاي محدقًا بي.

قال أخيرًا:

ـ لديك وجه فوتوغرافي أيها الفتى.

فأجبته:

ـ عذرًا يا سيد، أنا لا أفهم ما تقول.

ـ هذا أفضل، فعدم الفهم يجلب الراحة.

ثم تنازل عن رأيه ليوضّح:

ـ يعني أن الكاميرا تحبك.

ـ هل هذا يعني بأنك ستلتقط لي صورة؟

ـ لمَ لا، إن كنت تملك النقود.

ـ النقود؟

ـ نعم، النقود، لا يوجد شيء بالمجان هنا.

شعرت بأني أخاطب رجلًا غبيًا نوعًا ما، فمن أين يأتي بالنقود من كان بهيئتي؟ لكني ابتسمت بانكسار ولم أعلّق، فقال الرجل بعدما أشعل الغليون ونفخ الدخان: ـ ممم! مفلس!

ـ أجل، مفلس.

ـ حسنًا اذهب من هنا ولا ترني وجهك ثانية.

خرجت، وخرج خلفي ليقفل الباب بالمفتاح ويرحل. رأيته ينحدر في السوق فشتمته في سري، ثم عدت للفرجة على غابة الصور من خلف الزجاج. وبعد ربع ساعة تقريبًا عاد محملًا بأكياس الخضار والفاكهة. بلق عينيه غضبًا حين رآني، وعندما دنا قال: «ألم أقل لك ارحل يا فتى؟» كان فظًا رغم رقة ملامحه. لكني لم أستجب، وبدلًا من الرحيل، أنزلت عنه الأكياس بحركة فطرية لم أقصد بها النفاق. فك الباب ودخل، فأدخلت الأكياس خلفه وهممت بالرحيل، غير أنه قال: ـ لا تنزلها. أوصلها إلى المنزل وعد بسرعة.

ـ أي منزل؟

ـ منزلي طبعًا، خلف سينما الحمراء، هل تعرفها؟

ـ أجل، أعرفها جيدًا.

ـ حسنًا، أوصل الأكياس إذن. في الشارع الخلفي للسينما ستقرأ على الباب الرابع من جهة اليمين لافتة صغيرة مكتوب عليها منزل موريس أفندي.. تستطيع القراءة؟

ـ أستطيع القراءة والكتابة والحساب، يا سيد أقول لك بأنك التقطت لنا صورة مدرسية..

ـ حسنًا، لا تطل، ضع حقيبتك البائسة هنا وأذهب.

يا إلهي! هل يعتقد هذا الرجل بشاربيه المضحكين بأني خادم عند أبيه؟! لقد شعرت بالإهانة ونازعتني رغبة شديدة بالرفض، أو إبداء علامات الامتعاض كحد أدنى. بيد أني تراجعت علّني أجازى بصورة مجانية، فكان لي ما أردت، إذ حالما أوصلت الأكياس وعدت لأخبره بإنجاز المهمة، قال من خلف أسنانه: ـ حسنًا، مر لي غدًا من أجل الصورة.

لكنه تدارك:

ـ عليك أن تغتسل وترتدي ثيابًا جديدة، وإلا فلن أدخلك صالة التصوير بهيئتك الرثة هذه.. هيا اغرب عن وجهي.

غادرت الأستوديو وعدت صوب المنزل فرحًا بوعد الجلوس من جديد أمام الصندوق السحري، الذي يحبني بحسب المصور غريب الأطوار. لكنْ سرعان ما تذكرت بأني لا أملك ثمن القميص الجديد، فجفّ الفرح وتضمخت الملامح بالخيبة. وصلت إلى المنزل منكسرًا كمن تلقى رصاصة في صدره. سلّمت على جانيت الواقفة خلف تنور الطين، ودلفت إلى الحجرة. رميت جسدي على الأرض وجلست ساندًا خدي بقبضة يدي، أفكر ما عساي أن أفعل؟ جاءت جانيت خلفي ورائحة الحطب تفوح من ثيابها. لم يفاجئها أن تراني بهذه الحال، وأخذت تتفحص وجهي موقنة بأن أحدهم قد نال مني كالعادة! إلا أن وجهي بدا خاليًا من الشروخ والكدمات هذه المرة.. كان مليئًا بالخيبة فحسب. ألحت في السؤال، فأخبرتها بالحكاية وبشروط موريس أفندي. ابتسمت لي برقة، وكأي أخت عطوف رددت: ـ لا عليك.

ثم ذهبت إلى حجرتها، أخرجت من ثقب سري أسفل الحائط عشرة فلوس وعادت بها مسرعة: ـ هاك، اذهب إلى السوق واشترِ قميصًا. لكن، حاذر أن يعرف أبي وزوجته الأفعى بالأمر.

قفزت واحتضنتها. وفي اليوم التالي انطلقت إلى السوق واشتريت قميصًا أبيض بياقة طويلة، ثم ذهبت إلى موريس أفندي ليمنحني لحظة ما تزال ذكراها عالقة في رأسي.

كان قد أدخلني إلى الصالة وأجلسني على كرسي من خشب الصاج المكسو باطنه وذراعاه بالجلد البنّي الفاخر، ثم ذهب ليقف خلف الكاميرا لحظات قبل أن يعود من جديد. تقدم ورفع بإصبعيه حنكي، ثم دفع إلى الخلف قليلًا كتفي الأيمن وظل ينظر في وجهي بعينين تعمد تصغيرهما كمن يراقب مشهدًا ضبابيًا بعيدًا. عاد إلى مكانه وأزال غطاء العدسة، وضع لوح الفيلم السالب وأشهر إبهامه الأيسر مطالبًا إياي بالنظر نحوه. وكما فعل في المدرسة، أمسك بالبالون الأسود الصغير المرتبط بالصندوق من خلال خرطوم نحيل، وراح يعد حتى الثلاثة قبل أن يكبس عليه. خفق قلبي مع صوت الكاميرا وعرفت أنه قد تم التقاط الصورة. نزلت من على الكرسي وتقدمت بغية معرفة ما سيفعله الرجل بذلك اللوح المربع الشكل الذي أزاحه من مكانه. لكنه زعق بي وكأنه قد تنبه للتو إلى فداحة وجودي: ـ ماذا تفعل هنا يا حشرة؟ هيا اخرج.

حمدًا لله أنه لم يصفعني. خرجت ولم أغادر عتبة الأستوديو، بقيت مرابطًا هناك على أمل الحصول على الصورة. وبعد لحظات تقدم الرجل وأقفل الباب على نفسه من الداخل ليغوص في جوف الأستوديو. لا أدري أين ذهب، وماذا يفعل، وبعد وقت ليس بالقصير فك الباب ونادى: «تعال، ادخل». دخلت، فمد يده بقصاصة بحجم الكف: ـ خذ، أجمل بورتريه في تاريخ التصوير الفوتوغرافي.

ألم أقل لكم إنه رجل غريب الأطوار؟

ابتسمت وأنا أشاهدني بتصفيفة الشعر المضحكة تلك، ثم حملت الصورة وغادرت. كنت مبللًا بالسعادة أعدّ الخطى من أجل الوصول إلى المنزل وإطلاع جانيت عليها. غير أن القدر لم يشأ رؤيتي سعيدًا لبعض الوقت، إذ حالما دخلت الزقاق، رأيت أبي واقفًا عند الباب، فتسرب لي دبيب الفزع وارتعدت فرائصي. حاولت تغيير وجهتي والعودة من حيث أتيت،

لكن دون جدوى، فقد رآني وانتهى الأمر. نادى خلفي بصوت مرتفع جعل صبيان المحلة يتجمهرون تأهبًا لفرجة محتملة: ـ كمااال، تعال يا ساقط.

مع تلك الصرخة المدوية، شعرت بأن عقال الغضب لدى أبي قد انفلت، وأن فيلقًا من مصارعي الثيران لن يقدروا على حمايتي من يده، لكني رغم ذلك سرت إليه سير الخراف؛ ذليلًا بلا حول ولا قوة.

(2) قبعة رأس اشتهر بارتدائها مؤسس الدولة العراقية الحديثة الملك فيصل الأول (1883 ـ 1933)

الفصل الرابع

حالة غريبة

ما دمت قد سرقت مرة، فأنت لص محترف! هذا ما يشغل بال أبي، حتى أن سؤاله الأول قبل الشروع بحفلة التعنيف التي لا تُنسى، كان: ـ من أين سرقته؟

كان يسأل عن ثمن القميص الذي لم يعد قميصًا بعدما فقد بالشد ياقته وبعض أزراره. أما أنا فكنت ذاهلًا مستسلمًا بين يديه كالدمى. لم أكن قادرًا على استيعاب غضبه، لقد رأيت في عينيه المحمرتين بركانًا يغلي ويوشك على الثوران، وقبل التفوه بحرف واحد، وجّه لي لكمة بكف ثقيلة مضمومة. ثم راح يكرر لكمي أمام الصبيان ناعتًا إياي باللص والفاشل والساقط، وابن العاهرة أيضًا. عند ذاك، أصابتني حالة غريبة لم أعرفها من قبل؛ حيث تخشب لساني وتعطل تدفق الكلمات فوقه. راوغت قبضة أبي وأفلت منها أخيرًا ودلفت نحو المنزل، مما جعل الغضب يتملكه تمامًا. جاء خلفي صارخًا، أمسك بي ثم أخذ بتلابيبي ورفعني لتلامس ركبتاي بطنه.

ـ من أين سرقت الفلوس؟ تكلم يا ساقط.

ـ بـ ااا بـ ااا..

لم أكن قادرًا على النطق، وحق الله لم أكن قادرًا على النطق، فجال الدمع في عينَي وشرعت بالبكاء.

ـ لا تبكِ، جبااان، قل من أين سرقت النقود؟ كان يردد.

وفي الأثناء ارتفع من خلفه صوت منكسر: ـ أنا أعطيته.

كانت جانيت تضحي من أجل إنقاذي.

أفلتني واستدار نحوها:

ـ تسرقيني يا قحبة؟!

ثم راح يضربها بعنف وهي تتلوى صارخة وباكية. أمسكت بأذياله في محاولة لتخليصها من بين يديه، لكن دون جدوى، فقد رفسني بكل ما منح الله الثيران من قوة، وأسقطني على الأرض.

اعترفت جانيت، تحت الضرب، بحكاية الصورة، وأخبرته بأنها خبأت تحت الحائط فلوسًا قليلة كانت قد ادخرتها من عملها. فما كان منه إلا أن تناول الخيزرانة وأخذ يجلدها حتى كادت تموت. كان يردد: ـ سارقة.. قحبة..

فرغ منها وأمسك بي من جديد، مزّق القميص على جسدي، ثم جلب شفرة حلاقة ليحدث في رأسي طرقًا متعرجة ستجعلني موضعًا للسخرية لأيام طويلة. كنت مستسلمًا أنظر في عينيه والدمع يسيل بصمت فوق خدي. لكني شعرت حينها بخيط من الكراهية يرتفع بيننا، خيط رفيع كدخان السجائر سيتكاثف مع الأيام ليغدو أثقل من شاهدة قبر على صدري.

حمل الصورة عن الأرض، وراح ينظر فيها وما زال يصرّ أسنانه. قطّعها إلى فتات، ثم دخل إلى حجرة جانيت، أخرج باقي الفلوس وغادر المنزل تاركًا خلفه فرائس تلعق جراحها.

في مساء ذلك اليوم لم أنم فوق السرير، بل تحته. اختبأت هناك وبصوت منخفض أخذت أكرر لفظ حروف اسمي علّني أستعيد القدرة على النطق: «ككـ مماا ل». كنت خائفًا من غضب أبي ومعاودته لضربي من جديد، حتى أني حين سمعت صوته في الفناء الخارجي، بلّلت سروالي.

وهكذا تسلل الخوف إلى قلبي مثل لص محترف، وراح يسلبني القدرة على مواجهة ذبابة كسيحة. لقد صرت مع الأيام هدفًا للسخرية في الشارع والمدرسة، وتحول رأسي إلى كيس ملاكمة يدرب به الصبيان قبضاتهم. الجبان والتافه والمخنّث والحمار ألقاب سترافقني طويلًا ويُذيّل بها اسمي أينما ذُكر. غير أن أسوأ ما جابهني في تلك الأيام وسحق كرامتي هي الضحكات المشوبة بالتهكّم والتي يطلقها الصغار عندما أتأتئ بالكلام أمامهم. ليس الصغار فحسب، بل حتى الكبار يفعلون ذلك. ذات يوم دخل علينا معلم الحساب وبدأ بأخذ الغياب، وعندما نادى باسمي، تأخرت قليلًا في الرد. كنت شاردًا، فردّ أحد التلاميذ بدلًا عني: «نـ نـ نـ نـ عم» ليضحك الجميع، بمن فيهم ذلك المعلم البليد. بكيت كثيرًا يومها وكرهت الحساب والمدرسة وغادرت دون إذن من أحد. ليس غريبًا أني لا أحفظ جدول الضرب حتى اللحظة. تسلقت السياج وهربت. وفي الطريق دعوت الله أن تحترق مدرسة الطاهرة بمن فيها، لكنه لم يستجب لدعوتي، بل عاقبني على يد السيد المدير بعشر ضربات بالعصا والوقوف على ساق واحدة في ركن الفصل أمام التلاميذ.

المثير للخيبة أن مسلسل التنمر لم ينته عندما رفعت الراية البيضاء واعترفت أمام الجميع بأني تافه وجبان وابن كلب! بل طالت حلقاته واتخذ أساليب جديدة في الإذلال والإهانة. كانوا يسلبونني حقيبة الخيش ويتقاذفونها في ما بينهم كالكرة الطائرة وأنا في المنتصف أجاهد لاسترجاعها باكيًا، ثم لن أحصل عليها ما لم أتلق ركلة أو ركلتين كحد أدنى. دسّوا فيها ذات مرة ضفدعًا، وعندما فتحتها لإخراج دفتر الإملاء، قفز الضفدع فجفلت وراحوا يضحكون. وفي مرة ثانية صنعوا لي ذيلًا من ورق، وربطوه في عروة سروالي من الخلف دون أن أشعر، فغدوت بذلك نكتة الموسم. كانوا يهمزون في ما بينهم: «جاء الحمار.. أهلًا بالحمار».. وكنت أسمع همزهم، لكني لم أكن أعرف بعد بأني الحمار المومأ إليه. ثم حتى لو عرفت، ليس ثمة ما أستطيع فعله من أجل إيقافهم.

كنت لا أقوى على التفوه بكلمة تدفع عني سخرية الآخرين، وفي كل يوم، أعود منكسرًا، أروي لجانيت بغصة ما فعلوه بي، لتقول لي ما اعتادت على قوله: «ستكبر وتنسى». لكني كبرت ولم أنس، وما زلت أسمع حروف اسمي وهي تتدحرج خلفي مقطعة في أزقة

المياسة. أولاد الحرام، لم يتركوني وشأني حتى وأنا أداعب كرة القش وحيدًا عند الباب. كانوا يقفون على مقربة مني ويضحكون. ولأني ضعيف الشخصية، كنت أدحرج الكرة نحوهم، لينشغلوا بها عني، بينما أكتفي أنا بالفرجة. سمحوا لي ذات مرة بمشاركتهم اللعب. يومها أرسلت نحو أخي ريمون، الذي خرج للتو من المنزل، ابتسامة فخر وكأني حققت انتصارًا في الحرب العالمية الثانية. دعوته للانضمام إلينا، وكذلك فعلت مع الصبي الهزيل، صائد العصافير. لقد تصرفت بأريحية مفرطة، وانقسمنا إلى فريقين، واحد بقيادتي، وهذه سابقة ما زالت مرصوفة في دفتر الذكريات، وآخر بقيادة صبي مكتمل العافية من أولئك الذين يتحصلون على ثلاث وجبات من الطعام في اليوم الواحد. كنت أظن بأن التنازل يمكن أن يكون درعًا لاتقاء شرور الآخرين، لكني سرعان ما اكتشفت بأن ماكينة الشر لا تهوى التوقف، وأن دورانها يتضاعف كلما زيّتناها بالتنازل. إذ حالما دارت المباراة، بدأت السخرية. كنت كلما لمست الكرة، تأتأوا خلفي وكأني ألعب بلساني لا بقدمي. أما ريمون فمضوا يسخرون من أسنانه ويرددون خلفه في الملعب: «أرنب.. أرنب.. أرنب».. لم يكن يعي أسباب ذلك، وكان يسألني: ـ كيمو، لماذا يقولون لي أرنب؟

ـ لأنك سريع كالأرانب يا أخي.

لم يكفوا عن مضايقته، بل صاروا يطلقون علينا فريق الأرانب.

الأرانب صفر/ الذئاب ثلاثة. انتهى الشوط الأولى بتلك النتيجة القاسية، فعزمنا على رد الاعتبار والجري بسرعة الأرانب من أجل الوصول إلى الكرة قبلهم. كدنا نصل، لكن أحدهم عرقلني وكسرت ساقي، لتفوز الذئاب أخيرًا وتخسر الأرانب. وهذه بديهة من بديهيات الغابة التي نعيش في كنفها. عدت محمولًا على كتف أخي ريمون، وأرنب آخر، وكان أبي جالسًا يحتسي العرق في باحة المنزل. ساطني بنظرة غضب وقال بصوته الأجش: ـ كسرتها يا ساقط؟!

ثم وضعني في عربة الأحمال الصغيرة وسار بي صوب دكان الحلاقة من أجل تجبيرها. أخبره الحلاق الأملط بأن عليه الإمساك بي جيدًا كي لا أعيق عمله: ـ امسكه بقوة لو

سمحت.

ـ اطمئن، لن يتحرك.. أكسر رأسه إذا تحرك.

قال ذلك وهو يمد يده نحو المنديل الرمادي، الذي اعتاد أن يضعه على قفاه لامتصاص العرق وحماية ياقة القميص من الاتساخ. استله من هناك ودسه في فمي منعًا لصراخ محتمل. ثم كتفني بيديه، بينما أخذ الحلاق بسحب ساقي رويدًا رويدًا من أجل إعادة العظم إلى مكانه. لفها بالجبيرة أخيرًا وقال: ـ خلاص، انتهينا.

كانت عملية مؤلمة، لكنها على أية حال ليست أكثر إيلامًا من شتائم أبي التي ظلت متواصلة طوال الطريق، فخزانة أبي من الشتائم لا تفرغ ولا تشتكي العوز. المثير للحنق أنه كلما رآنا أحد أصدقائه ومعارفه في طريق العودة، ورمى عليه سؤالًا عابرًا: ـ خيرًا؟ ما به كيمو؟

ردّ قائلًا:

ـ ابن الكلب، يريد يصير عمو بابا (3).

حبستني الجبيرة بين جدران المنزل لثلاثة أسابيع، ليس ثمة ما أفعله فيها سوى سماع الشتائم والفرجة على العراك، فنحن عائلة متخاصمة؛ يهرس فينا الكبير الصغير ويمر فوقه مرور المدحلة. قرأت القصة، التي كنت قد استعرتها قبل الحادثة من مكتبة المدرسة، عشرات المرات إلى أن حفظتها. وحين عدت، أخبرت معلم العربي بذلك، فقرر إخضاعي إلى اختبار ميداني. كنت سعيدًا باهتمامه. سألني عما حفظته، فقلت: ـ قصة الحذاء الطائر.

دارت عيناه في محجريهما.

ـ مممم! حسنًا، تعال قبل الدرس الأخير لنرى.

ـ حاضر، أستاذ.

رنّ جرس الفسحة الأخيرة، وذهبت إليه. كنت فرحًا بأن أحدهم قد تبرع لسماعي. وجدته جالسًا خلف طاولة القراءة الطويلة، بيده كتاب وأمامه قدح شاي يتصاعد منه خيط دخان. كان واحدًا من أولئك الذين يقرأون أكثر مما يأكلون، ولا يطيب له المكوث إلا في المكتبة. لعق إصبعه وقلب الصفحة، ثم أشار لي بالجلوس. وبعد دقائق جاء بضعة تلاميذ من صفوف أخرى، بدت على وجوههم ذلة أعرفها، تحلقوا حول الطاولة، وأبصارهم شاخصة نحو المعلم. توجّه لي الأخير: ـ هيا، اقرأ القصة.

ـ حاضر، أستاذ.

هممت بالقراءة، لكن شكًا خالجني بأن هؤلاء الصبية التافهين سيسخرون مني. فبعض المقهورين يحاولون التخفيف من عبء ما أصابهم بالإساءة لمن هو على شاكلتهم.

شعرت بالارتباك وتعرقت جبهتي. «بماذا ورطت نفسك يا أحمق؟!» ـ رددت في سرّي، وعضضت على شفتي محاولًا التماسك، دون جدوى.

شاهد المعلم حالتي، فهتف:

ـ ما بك؟ هيا اقرأ.

ـ حححاااضر، أسستااذ.

أسدلت جفنَي وسككت فكّي حتى كادت أسناني لتثلم، ثم أرخيتهما وأفلت أول جملة سالمة. تتابعت الجمل من بعد ذلك بسلاسة نادرة، لكن القصص، قاتلها الله، كانت قد تشابكت في رأسي، ووجدتني أروي قصة أخرى، بطلها حذائي الضاحك.

كان لي حذاء مهترئ من الأمام، يكشر عن أصابع قدمَي، وكنت أحبه، رغم خيانته لي أيام الشتاء، رافضًا وصفه بالحذاء الممزق: «حذائي ليس ممزقًا.. حذائي يضحك». دخلت فيه

خنفساء ذات يوم وانعقدت بيننا صداقة حميمة. كانت تدغدغني فأضحك، وعندما أربّت عليها بباطن القدمين، تركد. دغدغتني في أحد المساءات قبل أن تنام..

ـ كفى يا تافه.. كفى يا تافه، هتف المعلم.

فتحت عينَي، فشاهدت الصغار يتغامزون، بينما سياط الغضب تلوح في نظرات المعلم.

قال بصوت مرتفع:

ـ ألم تقل بأنك تحفظ قصة الحذاء الطائر؟ من أين جئت بهذا الهراء إذن؟!

وإذ لم يسمع مني جوابًا، أردف:

ـ تكلّم، ما بك خرست؟

بلعت ريقي وأجبته:

ـ للاا أددري.

ـ من يدري إذن؟! جدي؟!

ـ أأأ..

ـ كفى.. هيا اخرج، فاشل.

قلّبت بصري بين الأرض ووجوه الصبية الكاتمين ضحكاتهم، وخرجت مثقلًا بالخيبة.

رآني أبي ذاك النهار منكسرًا، فقال: ـ هل ضربوك من جديد؟!

وأردف:

ـ ما كان يضرّ الله لو أعطاني فتاة ثانية بدلًا منك.

دفنت رأسي بين ركبتي وبكيت.

وفي الأثناء نشب عراك في المنزل. هي الحكاية ذاتها؛ ترفض جانيت الزواج عنوة من عجوز سكير يكبرها بأربعين عامًا تقريبًا، ويعيش في قرية نائية.

ـ ما أريده ما أريده، بالمسيح أحرق نفسي.

وزوجة أبي تصرخ بوجهها:

ـ أبوكِ أعطى الناس كلامًا يا كلبة.

ربما لو أن أمنا ما زالت حيّة لاستطاعت منع هذه الزيجة.. ما أوهن صوت اليتامى!

تدخل أبي في النهاية ليفض النزاع بكلمة واحدة: ـ تتزوجينه ورجلك فوق رقبتك.

ثم غادر وصفق الباب خلفه.

(3) عمو بابا (1932 ـ 2006) لاعب كرة قدم عراقي مشهور، ومدرب المنتخب الوطني لاحقًا.

الفصل الخامس

سباق الزوارق

في السابع والعشرين من شهر تموز 1964 أمسكت بيد أخي ريمون وانطلقنا صوب النهر. كنت قد بلغت العاشرة من عمري وبدأت بتعلم السباحة، إلا أني لم أكن ذاهبًا من أجل السباحة، بل لتسيير زورق كنت قد صنعته من الفلين. زورق صغير حففت بالسكين جوانبه وركزت فوقه راية سبق من ورق ملون. اصطحبت ريمون دون أن أخبر أحدًا، ستقتلني زوجة أبي إن علمت بالأمر، فهي تخشى على ابنها المدلل من الغرق. فوق ذلك كانت تعتقد بأنه محط تربص السرّاق والغجر العابرين والحيوانات الضارية، هكذا يحدثها عقلها المصاب بحمى الضغائن. وللواقع، فإني لم أكن راغبًا في إثارتها لولا أن توسلّني أخي الرفقة، فوافقت بعدما اشترطت عليه كتمان السر. مشينا، وفي الطريق انضم إلينا صائد العصافير حاملًا قطعة فلين عليها راية زرقاء، وصبي آخر بيده زورق أكبر من زوارقنا قليلًا. كان تسيير الزوارق في النهر عادة نمارسها أيام الصيف هناك. وكان رشق الحصى خلف قطع الفلين بغية تسييرها في الماء، والهتاف لها من فوق الجرف، يصيبنا بلوثة من السعادة لا تُنسى.

وصلنا النهر أخيرًا، خلعنا أحذيتنا قرب الصفصافة، ثم وضعنا الزوارق في الماء وأخذنا نرشق ما وراءها بالحصى. كان منظرها في الماء مغريًا للتصوير، مما دفعني إلى إخراج كاميرتي الورقية والتقاط عدة صور. مرّت في الأثناء زوارق الصيادين المحملة بالشباك والسمك، وراحت تصفع زوارقنا التافهة بموجات جعلتها تتأرجح فوق سطح النهر. لكننا رغم ذلك لوّحنا لأصحابها بفرح غامر، وبعضهم رد التحية.

على بعد أمتار، صبية عراة يتناوبون على صخرة تجثم على صدر الجرف، كانوا ينطون منها في الماء واحدًا تلو الآخر. انتبه إلينا أحدهم وهتف: ـ ماذا يفعل الأرانب هنا؟

ليرد عليه آخر وهو يضحك: ـ يأكلون الجزر.

ثم اقتربوا منا بغية المشاكسة، وبدأ رذاذ قفزاتهم يبلل ثيابنا. أخفيت الكاميرا والتزمت الصمت كما هو حال من معي، فنحن أخوة الصمت، نجيد الصمت كما يجيد الصيادون غزل الشباك. لكن واحدة من عيوب الصمت أنه لا يشبع رغبات الأوغاد! إذ كانوا كلما طال صمتنا، تمادوا أكثر فأكثر وراحوا يرشقوننا بالماء والطين وهم يضحكون.

نقر أخي ريمون على خاصرتي:

ـ كيمو، كيمو، دعنا نذهب.

كان خائفًا وشفاهه ترتجف.

حاولت طمأنته:

ـ لا تخف، لن يستطيعوا إيذاءك.

لقد فاتني بأن المذعور لا يهب السكينة!

لاذ خلفي ومضينا نراقب ما سيحدث، فتقدم أحد الصبية ليخرج قضيبه ويلوّح به أمامنا مردداً: ـ هل تنفعكم هذه الجزرة؟

حينذاك نفد صبري وهشّمت جدار الصمت: ـ تنفع أمك.

كانت تلك حماقة ستكلفني الكثير، سيما وأني رشقت الصبي السافل بحصاة أصابت رأسه. صحيح أنها حصاة جبانة، لم تؤذه ولم تخرج دمًا وفيرًا من رأسه، إلا أنه صرخ متوجعًا

وتنادى له ابنا عمه لينقضوا عليّ ويشبعوني ضربًا وسط صيحات وصفير رفاقهم.

كنت أتلوى بين الركلات جاعلًا من يدَي ترسًا لتفادي نياشين جديدة تثير غضب أبي. قلبي عند أخي الصغير، الذي شرع بالبكاء وهو يحاول عبثًا تخليصي منهم. كشفت عن عينَي قليلًا ورحت أراقبه من بين السيقان المدهونة بالطين. كان عاجزًا عن زحزحتهم وكأنه يصارع الجدران. ظل يصرخ باسمي ويشتمهم دون جدوى. وفي غمرة العراك دفعته إحدى السيقان، وانقطع الصريخ. انتبه الجميع بأن البكاء توقف، وصاح في الأثناء صبي: «غريق.. غريق»..

لقد انزلق ريمون في النهر وغرق، فتوقف العراك وعافت المخالب لحم الفريسة. قفزت خلفه. لم أفكر حينها بأني لا أجيد السباحة بما يكفي لإنقاذ غريق، فعند الفاجعة يغدو التفكير ضربًا من البطر. رميت نفسي في الماء، وبدلًا من إنقاذ أخي، غرقنا معًا. وثب خلفنا شاب كان يمر قريبًا من الجرف، أمسك بي وجذبني خارج الماء، ثم عاد لإتمام المهمة. كان سهلًا على شاب بالغ إنقاذ طفل صغير من الغرق، إلا أن للقدر أحكامه كما يبدو، فقد اختفى الطفل تمامًا وغاب عن الأنظار.. جذبه النهر قبل أن تصله يد المنقذ النبيل!

اجتاحني موج الذهول وأنا أشهد غرق أخي. سقطت ونهضت، ثم سقطت ونهضت صارخًا بأصوات لم يفهمها أحد من حولي. كنت أردد: «ريمون.. ريمون.. ريمون».. لكنهم لا يفهمون! رأيت الشاب يخرج من دون أخي، لطمت جبهتي بقوة وقفزت في النهر ثانية، فأخرجني ليقول: «كفى، كفى، لقد غرق أخوك، لقد غرق». وقفت على الجرف مبللًا وباكيًا بينما ذهب أحد الصبية لإبلاغ أهلي بالأمر. جاءت من بعدُ زوجة أبي صارخة، وفي ذيلها جانيت وسرب من نساء المحلة، اللواتي شرعن، حالما رأين النهر، باللطم والندب. رفع صراخهن الحماسة في قلوب الرجال المتجمهرين، فقفز بعضهم في الماء للبحث عن أخي من جديد، بينما رمى الصيادون شباكهم لاصطياد الجثة، لكن دون جدوى.

اتفق الجميع في النهاية على أنها «ساعته» وأن الله أخذه إليه، علمًا بأن الله بريء كل البراءة من الحادثة، إذ رأيت بعيني كيف دفعته تلك الساق نحو الماء. صحيح أني حتى

الساعة لا أعلم ساق من هي، لكنها على أية حال ساق واحد منهم. مرّ الوقت والناس بانتظار الجثة أن تطفو من أجل دفنها، فالموت لديهم لا يكتمل دون قبر وشاهدة. أما أنا فعين على النهر وعين على الطريق ترقب قدوم أبي.

يا ترى أي غضب سيعتريه؟

أي مصير بانتظارك يا كمال؟

رأيت جانيت تبكي وتلوّح نحو السماء معاتبة ربها الذي تحب، بينما شقّت زوجة أبي زيقها ومضت تولول من فوق الجرف: «آه يا ريمون! آه يا قلب أمك! لقد أغرقوك، أغرقك الساقط، أنا أعرفه، ابن الكلبة لا يحبك.. كمال أغرق ولدي.. كمال أغرق ولدي.. آه يا ريمون! آه يا عين أمك!» عندما سمعت تلك الكلمات، أيقنت بأن الشمس لن تغيب اليوم قبل أن ألاقي حتفي، فقررت الهروب. بركت على الأرض وانسللت من بين غابة الأقدام بحذر ثم نهضت وأطلقت ساقي للريح، غير آبه بصرخة أعرفها قد دوّت ورائي: ـ كمااااال!

ركضت حافيًا مذعورًا حتى وصلت بستان الجن واختبأت هناك. جلست قرب شجرة التوت عند الساقية، وشرعت أخرج ما علق في ساقيّ من شوك وحصى ناعمة. وبعد ساعة تقريبًا سمعت أحدهم ينادي: ـ كيمو.. كيمو..

كان صوت الصبي، صائد العصافير، جاء حاملًا بيده حذائي الضاحك ليخبرني بما حصل من بعدي. قال بأن الجثة لم تظهر حتى الآن، وإنه سمع أبي يقسم بالمسيح على ذبحي.

ـ اهرب، كيمو، ارتد حذاءك واهرب، سيذبحونك، ردد الصبي.

كان لساني آنذاك متخشبًا، والتأتأة تمسك بالحروف وتجعل الكلمات خرساء ومشوّهة.

ـ رييييموووون؟

ـ قلت لك لم تظهر جثته.

أخرجت الكاميرا الورقية من جيبي ودفعتها إليه: ـ خخخخخذذ.

ـ ما هذه؟ ماذا أفعل بها؟

ـ أأأعطها إلى ريمون عندما يخرج من النهر، وقل له أخوك يحبك.

ـ لكن..

ـ ببدون لكن، عدني بأنك ستوصل الأمانة.

ـ حسنًا، أعدك.

ثم نهض قائلًا:

ـ اعتن بنفسك جيدًا.. وداعًا.

ـ ووودداعًا.

لم يكن في نيتي التفريط بأخي، غاية الأمر أني ارتكبت حماقة أخرى، أعني حماقة الكلام والتلاسن مع أولئك السفلة، ولو كنت التزمت الصمت لما حدث ما حدث.

ارتديت الحذاء وبقيت وحدي خائفًا أرتجف حتى أسدلتْ ستارة الليل وأمسى بستان الجن مظلمًا كبئر بلا قرار. نظرت نحو السماء وكانت موحشة إلا من نجوم قليلة متناثرة هنا وهناك. زاد في خوفي نباح كلاب حملته الريح من بعيد جعلني أحتضن ركبتَي وأتكور كما الخنفساء. وفي الأثناء رأيت في الأرض جسمًا صغيرًا لامعًا. مددت يدي وانتشلته من بين الحشائش، فتفاجأت به حجرًا أزرق داكنًا، مثقوبًا من الأعلى وكأنه سقط من قلادة. كان سطحه أملس والتماعه غريبًا. دسسته في جيبي علّني أنتفع به، فقد يكون من تلك الأحجار الجالبة للحظ، أو الجواهر الغالية التي يمكن دفعها لمن يخرجني من ورطتي هذه. حشرته في جيب السروال، ثم تكورت من جديد بانتظار النهار. وفجأة تناهى لي صوت أقدام ثقيلة

تسحق العشب خلف شجرة التوت. كانت واضحة هذه المرة، فهممت بالهروب، لكن أحدهم نادى خلفي بصوت رخيم: ـ انتظر، لا تذهب.

كان شيخًا وقورًا، رأسه أصلع، وذقنه أبيض مسترسل على صدره، وكان يرتدي رغم الصيف معطفًا طويلًا بني اللون. لمعت عيناه من خلف حاجبيه الكثيفين وساورني خوف لا مثيل له؛ خوف مشوب بالإجلال والرهبة.

دنا مني قائلًا:

ـ لا تخف، أنا حارس البستان.

بلعت ريقي ولم أقدر على النطق بما نويت النطق به. أردت القول لو أني استطعت: ـ يا عم، أنا لم أقتل أخي، قتله واحد منهم، دفعه بساقه، لقد رأيت ذلك، لم لا تصدّقني؟ هذه هي الحقيقة.

ابتسم الشيخ الوقور وكأنه قرأ ما يدور في رأسي الصغير، وعندما بدأ نباح الكلاب يقترب متبوعًا بأصوات رجال وصفير، قال: ـ جاء الصيادون لقتل الأرنب إذن.. لا تخف.

ثم أشار بيده نحو الطريق:

ـ اذهب من هنا.

وأردف:

ـ الأرانب تصل أولًا.

أغمضت جفنَي وانطلقت في درب النجاة. كان في عينَي صورة الحارس الغريب، وفي أذني كلماته التي لم أفهمها وقتذاك. درت برأسي بغية النظر إليه، فتفاجأت بجذع شجرة التوت

وحيدًا. لقد اختفى الشيخ تمامًا وتلاشى عن الوجود، بينما البستان لا يزال يغط في سكينة وأمان.

في تلك اللحظة أيقنت بأن للبساتين ملائكة تحرسها، وأن ما نسمعه من حفيف الأغصان ما هو إلا همهمة صلاة.

ركضت بهمة أرنب مذعور، وراحت الطرقات تنزلق تحت أقدامي، حتى وجدتني في نهاية المطاف خارج المدينة واقفًا على أعتاب مزرعة للخراف. عشرات من الخراف السعيدة تفترش دوحة مسوّرة بجذوع الشجر، وتلتحف شرشف السماء الداكن. كانت تنام بأمان، لشدة إفراطه، أخذت أعاتب الله بودّ: «ما كان يضرك لو خلقتني خروفًا؟!»

على مقربة من المزرعة كان هنالك منزل ريفي، وعلى الطرف الشمالي زريبة مشيّدة بالصفيح والخشب. وكان يلزمني، من أجل بلوغ الزريبة، عبور السور دون ارتكاب فداحة توقظ الخراف. غير أن الاختبار، في الواقع، لم يكن في خفة العبور، بل في اجتياز الكلب النائم على عتبة المنزل. كان كلبًا سلوقيًا، من تلك التي يجنيها المزارعون للصيد والحراسة، وكلب كهذا مع رائحة كرائحتي لا يمكن اجتيازه إلا بمعجزة. لو أني أملك عظمة مدوفة بعقار منوّم، لرميت بها نحوه ونجوت، لكن أنى لي في هذه الساعة بعقارات النوم فضلًا عن العظام؟! فركت جبهتي بحثًا عن حل آخر، ثم انتبهت إلى وجود شاحنة تبات على كتف الجادة الترابية غرب المزرعة، فعصفت بي فكرة الاختباء في جوفها بدل الزريبة. استلقيت على بطني وأخذت أزحف. كدت أصل لولا استيقاظ الكلب. كان مسار الزحف معاكسًا، إلا أن رائحة الخوف التي ما برح جسدي ينثّها وقتئذ، كانت أقوى من رائحة الخراف ولا تعترف بالجهات.

«بُفّ بُفّ».. ـ نبح الكلب، فتوسدت التراب بخدي، وعيناي مصوبتان نحو المنزل الريفي. خرج رجل يحمل أمام وجهه فانوسًا مضاءً، تنحنح وسعل ثم صاح بصوت أجش أثخنته السجائر: «من هناك؟» كررها مرتين، قبل أن يعود ويغلق الباب خلفه. قتلتني رائحة البعر المهروس بالتراب وانتظرت حتى هدأ الكلب وغفا. حينها، زحفت المسافة المتبقية وتعلقت

بالبوابة الحديدية، ثم رفعت جسدي على مهل وانقلبت في جوف الشاحنة. كانت محملة بأكياس الصوف، وكان عليّ المكوث فيها ريثما يلهمني الله الخطوة التالية.

«لن يصلوا إليّ ههنا». ـ ردّدت في سري بين تلك الأكياس النتنة آملًا الاستيقاظ على صباح آمن. لم أكن أعلم حينها بأن رصيد أيامي في الموصل قد نفد، وأن لا نهار يطلع عليّ في هذه المدينة بعد الآن. إذ وبعد نصف ساعة تقريبًا، نبح الكلب السلوقي من جديد، وسمعت جلبة أحدثها دوران محرك الشاحنة. سارت من بعد ذلك سفينة نجاتي ولا أدري إلى أين، فأغمضت عينَي ورجوت الله أن تكون الوجهة بعيدة.

الفصل السادس

خان الرحمة

ها هو الليل يلفظ أنفاسه الأخيرة، وها هي شاحنة الصوف تتدحرج ببطء ويتثاءب حديدها ليوقظ الأرنب الطريد المحشور في مؤخرتها.

رفعت رأسي بحذر ورحت أراقب الكون بنظرات خائفة. كان لون الغبش يسري فوق سعف النخيل، وأغصان شجر البرتقال المتطاولة من خلف أسيجة المنازل تمنح القادمين دفقة من الطمأنينة. انعطفت الشاحنة شمالًا ودلفت نحو ما يشبه المرأب الكبير. تتبعت الرصيف المكسو بالقرميد وسقطت عيناي على حاويات صغيرة صفراء معلقة على خاصرات أعمدة النور. كان مخطوطًا عليها: «حافظ على نظافة العاصمة».

هتفت في سري: «إنها بغداد!» وتأهبت للنزول. توقفت الشاحنة أخيرًا، فقفزت إلى الأسفلت وركضت هاربًا قبل أن يترجل السائق ويمطرني بالشتائم:

ـ توقف، لص، شيطان.

لم أكترث وواصلت الجري حتى ابتعدت وشعرت بالأمان. استندت إلى حائط يلوذ خلف دكان مغلق، لجذب أنفاسي، ثم عاودت المسير متمهلًا.

في الواقع، لم يكن لدي ما أقصده، كما أن بغداد بدت لي آنذاك أكبر مما سمعته عنها! لقد راودني هاجس بالتيه وأنا أجتاز شارعًا طويلًا ينتهي ببناية عالية ذات طراز فريد. انعطفت بعدئذ نحو سوق شعبية ما زالت أبوابها مغلقة. درت هناك كالفأر الجائع، أبحث عن طعام، دون جدوى، فلا طعام يقدم في هذا الوقت المبكر من الفجر. «أين أذهب؟!» ـ رددت في

سري ودلفت إلى اليمين، فوجدتني سائرًا وسط سوق أخرى تنبعث من جدرانها رائحة ذرق وريش ويتناهى من خلف أبوابها شخير الدجاج. خنقتني الرائحة وقررت المغادرة، غير أني رأيت في الأثناء نورًا يندلق من زقاق في آخر السوق. حثثت الخطى نحو مصدر النور، فإذا به خان تعتلي جبينه بلاطة مستطيلة من الفخار، منقوش عليها: «هذا من فضل ربي». وإلى الأسفل منها: «خان الرحمة».

كان الباب مواربًا. مددت رأسي وجلت النظر، فوجدته منزلًا كبيرًا مؤلفًا من طابقين تتوزع الحجرات فيهما بشكل دائري. الفناء الداخلي شاسع يتوسطه حوض ماء، وعلى جهة اليمين حبال وسروج معلقة وعربة مركونة قرب حمار نائم، أما الجهة الأخرى فتملأها أكياس تبن وصفائح معدنية وأعقاب سجائر. برز، في الأثناء، من إحدى الحجرات رجل يرتدي دشداشة ويعتمر قلنسوة محاكة من الخيوط البيضاء. بدا شخصًا طيبًا؛ إذ حالما اكتشف وجودي خلف الباب، ابتسم ونادى:

ـ بسم الله يا ابني، تفضل، تعال.

ثم أدخلني وغادر الخان دون سؤال أو تحقيق!

سرت ببطء وذهول حتى وصلت أكياس التبن. جلست متكئًا عليها، ثم احتضنت ركبتَي ورحت أطيل التفكير في تلك اللافتة المعلقة على باب الخان؛ «هذا من فضل ربي!»

أنى لهؤلاء الناس بالحصول على فضل ربهم؟!

يخالجني شعور بأن الرب قد تخلّى عني منذ اللحظة التي غادرت فيها رحم أمي، وأنه نادم كل الندم على خلقي! لا شك أنها أفكار شيطانية عابرة، لا تستلزم الاتهام بالزندقة، سيما وأني كنت حينها مجرد صبي في العاشرة لا يؤخذ على محمل الجد. ومن أجل إثبات حسن النية، مستعد الآن للتنازل عنها أو تعديلها كحد أدنى، فلست من النوع الذي تستهويه لعبة التشبث.

ببساطة؛ أنا لا أملك استعدادًا للتضحية دفاعًا عن فكرة ما، ولست من صنف المتشبثين بحبال أفكارهم حين تكون الحياة ثمنَ الفكرة. أعرف واحدًا تشبّث بفكرته فغدا طعامًا للكلاب، وآخر أقسم بشاربه أنه لن يبدل أفكاره، فنُتف شاربه وقُطع لسانه ثم دُفن حيًا وشُيّد فوق قبره تل من القمامة.. نحن في بغداد يا جماعة، وليس في كوبنهاغن.

ثم أن الأفكار تذهب وتجيء، تتوهج وتنطفئ، تستطيل وتتقزم، لا قداسة للأفكار ولا ترياق يحميها من الخمول والموت.

«الإنسان أغلى من الفكرة». كما كان يردد موريس أفندي.

ما زلت أتذكر الواقعة التي جعلته يقول ذلك. كان أبي قد غاب عنا ذات مرة لثلاثة أيام متواصلة، فذهبت للسؤال عنه في الحانة. وحينذاك التقطت فكرة غريبة كان يجلجل بها أحد السكارى على مسامع رفاقه. كان مفادها أننا جئنا من الطبيعة كالعاقول، وما دمنا كذلك فالطبيعة هي ربنا ولا رب لنا سواها. رددها بضع مرات مؤكدًا لهم بإصرار عجيب:

ـ يا جماعة، يا جماعة، صدّقوني لا رب لنا سوى الطبيعة.

ولأني غبي وسريع الحفظ في ذات الوقت، نقشت الجملة في رأسي وحملتها معي في الغد إلى المدرسة. وفي الحصة الثالثة وعندما شرع القس، معلم اللاهوت، بممارسة هوايته في الحديث عن رحمة الرب ومحبته، رفعت يدي مستأذنًا الكلام.

ـ تفضل، كمال، أتحفنا، قال.

تنحنحت وأطلقت في الهواء نظرية العاقول التي شرحها رجل الحانة:

ـ نحن جئنا من الطبيعة، كالعاقول.

ثم أردفت كالببغاء:

ـ يا جماعة، يا جماعة، صدّقوني لا رب لنا سوى الطبيعة.

فما كان من المعلم إلا أن تقدم نحوي وأمسك فكي الأسفل بقوة مطالبًا إياي بفتح فمي: «افتح، افتح». فتحته، فبصق فيه مردّدًا: «تف على شيطانك».

في الواقع؛ لم يجرح كرامتي ابتلاع البصاق المخلوط برائحة الصدأ والتبغ، بل ضحك التلاميذ وغمزهم لبعضهم هو ما فعل بي ذلك. أنا لم أرتكب جريمة أيها الأوغاد، قلت فكرة فحسب، لمَ الضحك؟!

إلا أني لم أستسلم، بل أطرقت قليلًا ثم رفعت رأسي وحاولت، رغم التأتأة، التمسك بفكرتي والدفاع عنها:

ـ لللككن يا أأبوونا..

ـ لكن ماذا يا حقير؟

ـ لككنك تقول بأن الرب محبة، فلماذا تعاقبني؟

ـ الرب محبة لرعاياه وليس للشياطين أمثالك.

ثم تفجّر غضبه وطردني من المدرسة ناعتًا إياي بالساقط:

ـ لن تعود ما لم تحضر وليّ أمرك، يا ساقط.

كلكم اتفقتم على أني ساقط؟! يا لجبروتكم!

تسللت إلى الأستوديو واستنجدت بموريس أفندي من أجل إعادتي، إذ كان أبي ما يزال غائبًا. شرحت له بصعوبة بالغة ما جرى، فأجلسني الرجل أمامه وراح يغسلني بسيل من النصائح:

«يا غبي، إياك أن تتمسك بفكرة ثمنها الهلاك».

«إياك أن تموت من أجل فكرة».

«إياك أن تجادل حمارًا بما تؤمن به».

وفي النهاية قال:

«الإنسان أغلى من الفكرة».

ثم شفع لي عند القس وعدت.

لهذه الأسباب دعوني الآن، وبعد هذا العمر الطويل، أن أعدل فكرتي حول فضل الرب وهداياه: أنا باختصار لم أشعر يومًا بأن الرب يقف معي، ولم يراودني الإحساس بالطمأنينة الذي يتحدث عنه الوعاظ والقساوسة أكثر مما يفعل بائعو الخواتم والأحراز، والعائد بحسبهم إلى وجود يد تحمينا. لم أر هذه اليد ولم أشعر بمرورها فوق رأسي، ولعلني المذنب في ذلك، فأنا ابن كلب؛ لا أذكر الله إلا عند الحاجة.

ـ هذا من فضل ربي.. هذا من فضل ربي.. هذا من فضل ربي.. مكثت أردد بصوت خافت ناظرًا نحو السماء حتى غفوت.

كانت غفوة قصيرة، استيقظت منها على صوت هامس يداعب أذني:

ـ يا أخ.. يا أخ..

انتبهت على صبي يقاربني في العمر، حليق الرأس وعلى وجنتيه أثر الجدري. كان يرتدي ثوبًا باليًا خاليًا من الأزرار ومثقوبًا من جهة الصدر، وكانت هيئته تثير الشفقة. من أين جئت بكل هذا البؤس يا فتى؟! تمتمت وأنا أرنو إليه، فقال: «هيا، انهض». وسار ليغوص في إحدى الحجرات دون أن يضيف شيئًا آخر! نهضت ومشيت متثاقلًا نحو حوض الماء،

غسلت وجهي وغادرت الخان هائمًا في الأزقة لا ألوي على شيء. وبلا هدف دخلت منعطفًا من جهة اليمين، فاعترض طريقي مشرد، على رأسه وكتفيه من الغبار ما يجعلك تظن بأنه الناجي الوحيد من زلال بقوة ست درجات على مقياس ريختر. رفع حصىً كبيرة كانت تنام في يده وراح يلوّح لي بها. تراجعت خطوات إلى الوراء وقد داخلني الهلع. كان يمكن للطير في السماء أن يرى، لفرط الخوف، ارتجاف ساقَي ويسمع نبضات قلبي. لا أعرف بالضبط ما يريد هذا المجنون، ولمَ هو خائف ومتحفز إلى هذا الحد؟! استندت إلى الجدار ثم جذبت نفسًا عميقًا ولذت بالفرار، فسمعت بعد لحظات أزيز الحصى وهي تجتاز أذني وتسقط.

قبل اللقاء بهذا المخلوق، كنت أظن بأن المشردين أشخاص مسالمون؛ غاية طموحهم كسرة خبز وركن دافئ. لقد رأيت الكثير منهم في الميدان وباب الطوب والسرجخانة، وشاهدت كيف يتحصلون على خبز يومهم دون عناء أو حاجة للتذلل. كانت تكفيهم نكتة يلقونها على عابر سبيل، أو رقصة على باب مقهى، أو ضرطة طويلة بوجه الحياة، ليتحول ما يفعلونه بعد ذلك إلى مرويّات يتناقلها أهل المدينة ويضحكون لها في مجالسهم. لم أكن أعلم بأن الأرض تحمل من هذه المخلوقات ما هو أخطر!

جذبت أنفاسي وعاودت المشي حتى شممت رائحة خبز. كان فرنًا له باب من الصفيح مطوي إلى الأعلى، تتقدمه طاولة خشبية مغطاة ببطانية عتيقة علقت بها كسر صغيرة وناعمة. شعرت بالأمان وأنا أراقب الخبّاز، بقميصه الأبيض وعصابة رأسه الرمادية، يخرج الأرغفة الساخنة واحدًا تلو الآخر ويرميها على المنضدة. كان يتمايل أمام التنور المستعر وكأنه يستمع إلى موسيقى راقصة. هيّج الجمر بعد ذلك بواسطة سيخ حديدي، ثم وضعه جانبًا، واقترب من طاولة خشبية مربعة الشكل ترقد فوقها كرات العجين. حمل أربعًا منها بيد واحدة وراح يديفها برذاذ الطحين المبثوث فوق بلاطة تجانب فوهة النار. التقط واحدة وصفقها بكفيه حتى تمددت. نشرها فوق مخبزة مصنوعة من الخيش المحشو بالقش، وعدّل أطرافها قبل أن يودعها في جوف التنور المستعر. استدار بعد ذلك نحوي قائلًا:

ـ اذهب من هنا، الله يعطيك.

داخلني شعور بالإهانة متبوع بالتوتر والتأتأة.. صحيح أني أبدو غبيًا وأبلهًا لكني لا أتسول الخبز أيها التافه.

«ويعطيك». ـ أجبته في سري وانزحت جانبًا. ثم ابتعدت مائة متر تقريبًا، وجلست على طرف الرصيف ناظرًا نحو السماء بعين ذابلة. كانت هنالك سحابة رمادية تسير مسرعة وتجثو على صدر المدينة، جعلتني أتساءل عما إذا كان المطر يهطل على بغداد صيفًا! سقطت قطرة على شفتي. سحبتها بلساني ومضغت ريقي، ثم نهضت ورحت أبحث عن مخبأ يحميني من مطر وشيك. عثرت على مظلة من القماش المدعوم بالخشب، تنسدل فوق واجهة دكان يحمل رسمة لزجاجة كحول. احتميت بها ورحت أدرّب لساني على المكتوب تحت الزجاجة بالخط الديواني: «يـ وو جـ د لدينا عرَق».

لا أدري لمَ تناهى إلى سمعي صوت أبي وأنا أقرأ تلك اللافتة بانتظار هطول المطر! لكنه لم يهطل، كانت سحابة صيف عابرة، سرعان ما انزاحت ليعود وجه السماء صافيًا بلا كدر. وعندئذ سمعت جلجلة عربة يجرّها حصان، فاقتفيت إثرها. تبعتها حتى غدوت خارج السوق، واخترقت محلة شعبية، وسرت في طريق معبّد، ولاحت لي من بعيد أعمدة نور مصطفة على كتفَي جسر يطلقون عليه جسر الشهداء.

لا يحتاج المرء إلى وقت طويل ليعرف بأن بغداد مدينة الجسور. تصطف الجسور على نهر دجلة كأضلاع السمك وتشد ضفتيه إلى بعضهما في مشهد يشعرك بأن من بنى هذه المدينة يستهويه منظر العناق.

وقفت فوق الجسر وعيناي على دجلة. بدا وديعًا ومسالمًا، تغازله أشعة الشمس، وعند جرفيه تبات زوارق الصيد المدثرة بالسمط البلاستيكية الزرقاء والبيضاء. ثبّت ناظري في النهر، فتراءى لي وجه أخي ريمون ملوّحًا بيده من تحت الماء. لسعتني جمرة الإثم ورددت نادمًا: «آسف يا أخي». ثم قطعت الجسر نحو الضفة الأخرى، وسرت بلا بوصلة حتى

وصلت شارعًا، لفرط أناقته، وددت لو أني استطعت المكوث فيه. لقد أغرتني أسطوانات الكونكريت الشاخصة على خاصرتيه، وشُتلت مذاك صورتها في رأسي. المحال هي الأخرى، لفرط تميزها، التصقت في الذاكرة، فقد كانت تحوز على فرادة في الترتيب والدفء حتى ليخال إليّ الآن وكأني كنت دائرًا في واحد من شوارع باريس. في المنتصف شرطي يرتدي خوذة ينشغل بتنظيم السير، وعلى الطرف الآخر بائع ورد يلقّط رزقه من المارة دون إلحاح أو تذلل. مضيت خطوات لتعترضني بناية عالية، تحمل على جبينها اسم مطبعة السلام. كانت بناية مميزة بأقواس إسمنتية تحملها أسطوانات سميكة لها تيجان وزخارف. طابقها العلوي مشكل بأقواس أصغر وأسطوانات أنحف من تلك التي تسند السفلي، ولها شرفة تعتليها مشربيات مصنوعة من شجر البلوط تتدلى منها أصص ورد وفوانيس ملونة. وقفت طويلًا أتأملها قبل أن أكمل طريقي وأنعطف شمالًا. طويت الطرقات بعد ذاك واحدة تلو الأخرى حتى شعرت بالجوع ودخلت شارعًا للطعام. كان ممرًا ضيقًا ينسلخ من سوق مزدحمة يباع فيها كل شيء حتى الكلاب. جذبتني رائحة زاكية تنبعث من أحد المطاعم، فوقفت أمام الواجهة أغمّس بالهواء خبز جوعي.

جرحتني رائحة الشواء وسألت الله بهدوء أن يمنحني الصبر. ثم انزحت نحو خرابة، تبوّلت فيها وعدت إلى السوق، وقفت لدى بائع يعرض قفصًا من الجريد، خلف قضبانه يتكور زوج من الديكة الرومية النائمة. عبثًا قرفصت أمامهما ومددت إصبعي في القفص مستغلًا انشغال البائع بالدردشة مع جاره، فوثب أحدهما وراح يقرقر. جلدني البائع إذ ذاك بنظرة حادة، ثم طردني وشتم أمي بأقذع الشتائم.

«من أنت لتشتم أمي يا سافل؟!» ـ وددت الاعتراض، لكني جبنت وغربت عن وجهه كما أمر. غادرت السوق، ورحت أذرع الطرقات حتى شرعت الشمس بمراسم الوداع وتركتني حائرًا أردد: «أين أذهب؟!» سؤال وجودي مذ ذاك أمسى يحاصرني.

سرت بخطى حائرة كمن يلج مغارة مظلمة، ثم تذكرت، وأنا تائه في الطرقات، ذاك الخان المكتظ بأكياس التبن، فعصفت بي فكرة الذهاب هناك والحديث مع الرجل الطيب. سأطرح

عليه عرضًا سخيًا؛ «يا عم، دعني أحمل المكنسة ستين ساعة في اليوم كي أجعل لك الأرض لامعة كأباريق الفضة، مقابل أن تسمح لي بالمبيت داخل الخان.. ها، ما رأيك؟» وهكذا اختمرت الفكرة في رأسي وانطلقت حيث خان الرحمة في محلة العلاوي.

لكن الرب لم يرغب في إتمام الأمر؛ إذ كان باب الخان مغلقًا!

الفصل السابع

أخوان الليل

تزعزعني نظرات القطط، ويعتريني الشك، كلما حدّقت بي إحداهن، بأن وحشًا يكمن وراء تلك النظرة ويتأهب للقفز عليّ والتهامي.

عندما كنت في السابعة شاهدت جانيت ترسم علامة الصليب على صدرها وتقرأ الصلاة بوجه قطة كانت قد تخشبت على بعد ذراعين منها. وعندما سألتها عن السر في ذلك، أعرضت عن الجواب واكتفت بإغماض عينيها والغمغمة. لم تفصح عما يدور في خلدها حتى قفز علينا قط الجيران من فوق السياج ذات يوم. وقتها جفلت مأخوذة من الذعر وهربت إلى حجرتها وأخذت تقرأ التمائم. كان قلبها يصرخ من الخوف. تبعتها وألححت في السؤال، فقالت حالما هدأت، بأن هذه الكائنات ما هي إلا مسوخ لشياطين لعينة كانت بادئ الخلق تفتك بالأطفال، فأمر الله بمسخها. كانت تتحدث بيقين دون الكشف عن مصدر يقينها.

أقف الآن على باب الخان المغلق، أراقب قطًا سائبًا يتقدم نحوي بخطوات ثقيلة.

لماذا أغلق الرجل الطيب باب الرحمة يا ترى؟

أم هو الصبي المثير للشفقة، من اجترح حماقة الإغلاق؟

هل عليّ الطرق بكف الرجاء؟

أم الانتظار وحسب؟

وقفت حائرًا أفكّر، بينما راح القط يقترب. لمحته كيف يغرس في الأرض خطى واثقة، غير أني لم أطل، إذ لا أريد رؤية عينيه. اعتراني الخوف وهو يدنو أكثر فأكثر. أنزلت كتفي قليلًا، وبحركة خفيفة قبضت الهواء وتظاهرت برمي حجارة تجاهه، لكن دون جدوى، إذ يأبى الفرار ويواصل التقدم. كان أشجع مني وأكثر ثقة بنفسه. طرقت باب الخان أخيرًا بواسطة القبضة النحاسية الشبيهة بكف صغيرة مضمومة. طرقته مرة واثنتين وثلاثًا، طرقته طرقًا سريعًا وأنا أفكر في القط الذي اقترب كثيرًا. أمسينا في النهاية وجهًا لوجه وأغلق اللعين، مثل مصارع محترف، كل الزوايا. تخشّب جسده وهو يحدق بخصمه المحشور في ركن الحلبة، وشرع يصدر زئيرًا مخيفًا. دارت عيناي كالبندول يمينًا وشمالًا بحثًا عن زاوية هروب آمنة. «ما هذا يا رب؟! هل تراني فائضًا عن الحاجة لتجعلني طعامًا لهذه الكائنات الصغيرة والتافهة؟!» ـ تساءلت في قلبي دون نيّة للاعتراض. لا أعترض على أحكام الله، لكني أتساءل فحسب.. متى كان السؤال ذنبًا؟!

«يا رب يا قدير.. يا رب يا قدير.. لا شك أنك تستطيع إنقاذي». ـ رددت بلسان الخائفين، فارتفع الزئير، وعند ذاك فُتح الباب، ولاذ القط بالفرار. كان الصبي واقفًا هناك.

ـ سَـ سَـ سَـ لام! ألقيت عليه التحية.

ـ أهلًا! أجاب.

ثم سار أمامي بعدما أقفل الباب بالمزلاج، ليتركني وسط الفناء ويرتقي السلّم.

الخان هادئ تمامًا، ويمكن للمرء سماع طنين الذباب حول أنف الحمار. استندت إلى أكياس التبن وفي رأسي ماكينة تدور: «يا ترى ماذا يفعل هذا الصبي التافه في الأعلى؟! هل يعقل أنه يملك نقودًا تكفي لكراء غرفة في خان؟!»

وفي صبيحة اليوم التالي أفقت على نهيق الحمار واقفًا عند باب الخان. كان ثلاثة من الصبية البائسين يحمّلون العربة المربوطة على ظهره أكياسًا من التبن. كانوا يعملون تحت

إشراف الرجل ذاته، الذي، وكما الأمس، لم يعترض على وجودي ولم يسألني شيئًا. أرسل نحوي ابتسامة رضىً، وأكمل عمله. «ما أطيب قلبك يا رجل!» ـ غمغمت قبل أن أبلل رأسي تحت صنبور الماء وأغادر.

كان الجوع يقرض أحشائي، ولو أني رأيت فأرًا ميتًا في الطريق لأجهزت عليه. سرت نحو الجسر وعبرت إلى الضفة الثانية ومضيت في ذات الطريق. غير أني، هذه المرة، انعطفت نحو سوق ضيقة على اليمين، فتفاجأت بمرقد ديني، على بابه الخشبي آثار حنّاء. دفعني الفضول ودخلت، فوجدته خاليًا إلا من رجلين؛ أحدهما كهل طاعن في السن، يجلس في الزاوية ويعلق على ذراعه خرقًا خضراء للتبرّك، بينما الآخر في سن الخمسين، يمسك بشبّاك الضريح وقد بدا عليه التأثر. تقدمت نحو الضريح وأخذت أنظر من خلال الفتحات في الشباك الفضي. كان ضريحًا خشبيًا مغطى بقماش أخضر مطرّز بآيات قرآنية، تتناثر حوله النقود والرسائل والخرق، ويحيط به شبّاك مطلي بالفضة تفوح منه رائحة دهن العود والبخور. دنوت أكثر حتى التصقت بالشباك الفضي، وفي لحظة خشوع نادرة قبّلته. إي والمسيح قبّلته، بل تمادى بي الخشوع وطلبت من صاحب المقام فلسين أخيط بهما فتق الجوع في معدتي.

في الواقع، أنا لا أعرف من ينام داخل هذا الضريح، إذ نسيت أن أقرأ اللافتة عند الباب، كما لا أعرف لأي دين أو طائفة ينتمي، لكني خاطبت صاحب مقام يتوسد أرضًا أنتمي إليها. بل كررت الطلب عدة مرات ظنًا مني بأن الاستجابة مشروطة بالتكرار، فارتفع، دون قصد وشعور، صوتي. وإذا بالرجل المتمسك بالضريح يقطع خشوعه، ويدخل يده في جيب سترته ثم يخرجها ليمد بها نحوي قائلًا: ـ خذ يا فتى، هذا الدرهم لك، خذه وانصرف ولا تشغل الإمام عني، فمصيبتي أكبر.

ثم يردف بنبرة أسى:

ـ السرطان يأكل مثانتي.

حملت الدرهم العظيم وانطلقت شاكرًا الإمام على عطاياه، داعيًا للرجل بصدق نادر: ـ الله يشفيك يا عم..

لكني سرعان ما نسيت مصيبته وانشغلت بشأني، إذ غدوت أملك النقود، وعليّ الآن البحث عن طعام.

وهكذا سرت في الأزقة حتى وجدتني وسط سوق يزدهر فيها الضجيج. سوق كبيرة مسقوفة بجذوع الأشجار، تصطف على جنباتها دكاكين تعرض الأواني والأباريق والملاعق والفوانيس، المصنوعة كلها من النحاس. كان أصحاب الدكاكين يفترشون الأرض ويطرقون بأزاميلهم على صفائح صفراء لامعة، مصدرين ذلك الضجيج الذي لم يكن منفرًا. أطربني صوت الأزاميل ورحت أطيل النظر في تلك الأواني المزخرفة بالآيات والحكم، ولولا نداء الجوع المتصاعد من معدتي لما برحت المكان. غادرت السوق ومشيت في زقاق طويل ينفتح على الشارع الرئيس، ومن هناك أكملت المسير حتى وصلت شارع الطعام المنسلخ من الباب الشرقي. الآن يمكنني إسكات معدتي. دلفت إلى المطعم، فزعق الرجل ذو الكرش الجليل والرأس المكوّر: ـ اذهب من هنا، الله يعطيك.

آلمتني صفاقته، فأجبته بحرقة ويدي تنسل إلى جيب السروال: ـ أملك النقود، وأريد تناول الطعام.

كنت أنوي رمي الدرهم على الطاولة أمامه، لكني لم أجده! نبشت الجيبين معًا ومررت أصابعي يمينًا وشمالًا، دون جدوى، إذ ليس هناك سوى الحجر. لعل الدرهم سقط في سوق الصفارين (4) وفاتني سماع رنينه في غمرة الضجيج، أو أن نشّالًا استلّه بخفة من جيبي ولم أنتبه. أنا أحمق على أية حال.

هزّ صاحب المطعم كفه في الهواء قائلًا: ـ هيا انصرف من هنا.

وثانيةً:

ـ قلت لك انصرف.

ثم نادى على النادل المشغول في توصيل الطلبات للزبائن: ـ عبود!

ـ نعم، أستاذي.

ـ تعال ارمِ هذا الحيوان في الشارع.

ـ حاضر، أستاذي.

كان بإمكانه، بدلًا من وصفي بالحيوان، أن يكريني لشطف الصحون مقابل وجبة طعام واحدة.. وجبة طعام واحدة لا أكثر أيها المتغطرس. على أية حال، خرجت منصاعًا وانزحت جانبًا مكتفيًا بشم الرائحة وتوهم الطعام. لكن الإحساس بالجوع أعظم من أن تبدده الأوهام، فشددت بيدي على معدتي وراودتني رغبة عارمة في البكاء.

الفقراء تقتلهم رائحة الشواء وتمرّغ بالوحل أنوف كرامتهم. وعلى أصحاب المطاعم أن يعلّقوا على أبوابهم تحذيرًا باللون الأحمر: «يمنع مرور الفقراء من هنا».

رمقني صاحب المطعم من خلف الزجاج بعينين غاضبتين، فولّيت مدبرًا، وانسقت أذرع الشوارع والحواري. وعندما سقط قرص الشمس وانحسر ضوء النهار لملمت خيبتي وعدت إلى خان الرحمة.

كنت خائر القوى، ولا طاقة لي على مواجهة القط إن ظهر من جديد. سأرفع يدَيّ كالأسرى وأوكل إليه القرار؛ يعفو أو يلتهم، هذا شأنه. شكرًا لله، ليس ثَم قط بانتظاري. طرقت الباب بهدوء، وفتح لي الصبي قبل أن يعود إلى حجرته في الطابق العلوي. دخلت الحمّام وكان بابه قد خلع وأبدل بخرقة متهرئة مشدودة بمسمارين في الأعلى. أفرغت مثانتي وذهبت إلى السرير، أعني أكياس التبن، جلست هناك وما زال مسمار الجوع يثقب معدتي. من أين لي بالطعام الآن؟! عصرت بطني وراودتني في الأثناء فكرة أكل التبن. فما كان مني إلا أن

فتلت إصبعي في واحد من تلك الأكياس حتى ثقبته وأخرجت منه بضعة أعواد. وضعتها في فمي وأطبقت عليها أضراسي بهدوء، ثم رحت ألوكها بحذر وأمتص ما تجود به من عصارة. كان طعمها سيئًا ولاذعًا. بصقتها ولكمت الأرض بيدي مردِّدًا: ـ أنا جائع يا رب!

ثم وبلا شعور غفوت، إلا أني تفاجأت بالصبي واقفًا كذلك عند رأسي! كان هذه المرة يرقّص إصبعه في الهواء كمن يقول: ـ انهض، تعال معي.

«متى طلع النهار؟!» ـ تساءلت في سري وتبعته نحو حجرة في آخر الدهليز عند الركن الأيمن للخان. حجرة بدت، من الرائحة، بأنها المطبخ.

ـ ادخل.

ـ أين؟

ـ ادخل، لا تخف.

دخلت بحذر، فرأيت صينية في الأرض تحتوي على بقايا طعام؛ ثلمة جبن، وبقايا زبدة، وكسرة خبز، وزيتون!

ـ هذا لك.

وكما الذئب الجائع انقضضت عليها.

قال الصبي وهو ينظر لي:

ـ على مهلك، على مهلك، لن يطير الطعام.

ولولا هيئته المثيرة للشفقة، لوبّخته على كلامه هذا، وعلّمته كيف ينبغي له الإمساك عن مطالبة الجياع بالتمهل. إن واحدة من أشهر الصفاقات التي نرتكبها في حياتنا هي مطالبة

الجياع بالهدوء والكياسة.

نعم نعم، أنا معكم، ليس في الصينية سوى فضلات طعام، لكني جائع حد الإعياء، ولا مجال للدلال والبطر. لففت بقايا الجبنة بكسرة الخبز ومسحت بها لعقة الزبدة والتهمتها. كانت في رأسي عبارة تجول: «سقف وطعام! حقًا إنه خان الرحمة».

أخيرًا، شعرت بتحسن طفيف ونظرت إلى الصبي الذي ما زال واقفًا ينظر. قال بصوته الأنثوي: ـ إذا انتهيت، اتبعني.

ـ إلى أين؟

ـ إلى مولانا.

ـ من؟

ـ مولانا.

تبعته نحو حجرة يندلق من خلف بابها صوت القرآن. أدار المقبض فانفتح وولجت مكانًا نظيفًا ومفروشًا بالحصير. كان الرجل الطيب جالسًا هناك على سماط قطني خلف منضدة خشبية قريبة من الأرض. يا الله، كم ارتحت حين رأيته! لكن ماذا يريد مني؟ أومأ لي وقال بصوت ملائكي: ـ اجلس، بني، تفضل.

جلست والريبة تهرش رأسي. لماذا يبدو هذا الرجل وكأنه ملاك مرسل من السماء؟! هل تهبط الملائكة في بغداد؟!

بادرني:

ـ ما اسمك؟

ـ كمال.

ـ ما شاء الله! اسم جميل.

ثم وبدون مناسبة، تلا آيات عن الصدقة والفقراء والمساكين ومن لا مأوى لهم في هذه الدنيا. لم يكتف بقراءة تلك الآيات، بل أخذ يشرح معانيها وكأننا في درس دين! أما أنا فكنت أحدق بوجهه كالأبله.

تبسم وهو يشاهد الحيرة تنسكب من عينَي: ـ اسمع بني، كمال.

ـ نعم، أستاذ.

ابتسم لمناداتي له بالأستاذ، واستأنف: ـ الله يحاسبنا يوم القيامة ما دام بيننا جياع.

«كنت أظنه يحاسبكم في الدنيا». ـ قلت في سري وأنا أفكر في ما يقوله هذا الرجل المؤمن، الذي يتحدث بثقة تامة عن أمر لم يحدث بعد؛ يوم القيامة! من أين جاء يا ترى بكل هذا اليقين؟!

ـ هل تعرف بأن هنالك يوم قيامة؟ قال.

بيني وبينكم فكرت أن أعيد عليه نظرية العاقول تلك، لكني كففت عن تكرار الحماقات لئلا يفعل بي ما فعله معلم اللاهوت من قبل. لست راغبًا في ابتلاع بصاق جديد. هززت رأسي بلا فهم: «نعم». ليواصل الرجل: ـ في يوم القيامة سيكون هنالك حساب وستذهب الخلائق إلى النار، إلا من رحم ربي، ويبدو أنك ستكون من أولئك المرحومين بإذن الله تعالى.

ـ كيف؟

ـ أنصت ولا تقاطعني، بني.

ـ حسنًا.

ـ بني، لقد هداك الله إلى خان الرحمة، ونحن لا نرفض هدايا الله، لذلك سنوفر لك الطعام والسكن في الدنيا، بينما تجازى في الآخرة بالجنة. لكن بشرط ألا تقصر في عملك.

ـ عملي؟! هل حصلت على عمل؟!

ـ أجل، ستعمل مع أخوانك، أخوان الليل، في تنفيذ عدالة الله.. هل تفهم ما أقول؟

ـ كلا.

ـ حسنًا، سأبسطها لك. في بغداد يوجد أغنياء ويوجد فقراء أيضًا، الأغنياء لديهم أموال كثيرة ولا يسمحون لأحد بالاقتراب منها، أما الفقراء فلا يجدون حتى الطعام. واجبنا نحن أخذ القليل من أموال الأغنياء وإعطاؤه إلى الفقراء.

قاطعته بسذاجة؟

ـ نسرقهم، يعني؟

ارتجفت أطراف فمه وقال بعدما رفع نبرة صوته قليلًا: ـ استغفر الله، بني نحن لسنا لصوصًا، نحن نستنقذ الحق لأهله.. كما كان يفعل الأنبياء من قبل.

ثم عادت ملامحه لتسترخي رويدًا رويدًا ويبتسم.

كانت تدور في رأسي هواجس يتعذر البوح بها، إذ لم أقرأ في المدرسة أن واحدًا من الأنبياء سطا على بيوت الناس! المفاجئ في الأمر أن هواجسي بدت عارية حد الفضيحة، إذ باغتني الرجل قائلًا وقد عرضت ابتسامته: ـ نعم فعلوها.

ثم استدرك:

ـ لكن لكل فقيه طريقة.

كان كلامًا يصعب على صبي مثلي فهمه، ولم أجد طريقة لإنهائه سوى مواصلة الإيماء والتأييد. انتهت الجلسة وفاضت عينا الرجل بالرحمة، ثم نادى على الصبي، الذي ظل مرابطًا خلف الباب: ـ هوبي!

ـ نعم، مولانا.

ـ دل أخاك، على مكانه.

والتفت نحوي:

ـ هل أكلت؟

ـ نعم، مولانا، أكلت.

ـ طعام العافية إن شاء الله، لن تجوع بعد الآن.

ـ هوبي، اعتن به.

ـ أمرك، مولانا.

وبهذا أمسيت واحدًا من أخوان الليل، وجنديًا مطيعًا لدى مولانا.

(4) يسمى النحاس بالصفر، ويطلق على سوق النحاسين سوق الصفارين أو الصفافير.

الفصل الثامن

قلب مولانا

في الطابق العلوي لخان الرحمة سكنت غرفة، أرضها عارية وسقفها ينث هواء لاهبًا تحرّكه أذرع ثقيلة. يقاسمني المنام صبيان صامتون، يمتلكون وجوهًا صفراء باهتة وأبدانًا قشّرها العوز. كانوا يصولون في المساء على بيوت الأغنياء لجلب الغنائم إلى حضن مولانا ثم يصعدون لدسّ رؤوسهم في وسائد متهرئة تنفر الجرذان سوء رائحتها. لم أكن أشاركهم الصول بعد، فالأيام الأوَل، لكل قادم جديد، ينبغي قضاؤها في رص أكياس التبن والخدمة داخل الخان. ظل العمل ساريًا على ذلك المنوال حتى مجيء هوبي ذات ليلة معلنًا عن بدء حياة جديدة.

كانت الساعة تقترب من العاشرة، والصمت يطبق على الخان.

ـ هيا كمال، حان دورك.

ـ إلى أين؟

ـ على باب الله.

ستأكلني الكلاب إن خرجت في هذه الساعة المتأخرة من الليل. وحق الله ستأكلني الكلاب إن خرجت في هذه الساعة المتأخرة من الليل.

نظر لي:

ـ ما بك؟ هل أنت خائف؟

ماذا ترى أيها التافه؟

قلت:

ـ كلا، ولكن صوت الكلاب..

قاطعني:

ـ لا تخف، الكلاب لا تقترب من فاعلي الخير.. هيا.

نزلنا إلى الباحة وكان في انتظاري صبي دميم الخلقة، يكبرني بأربعة أعوام تقريبًا، يطلقون عليه لقب الزنجيل. شخص متغطرس، سألني بفظاظة حين التقيته: ـ جاهز يا خرا؟

ترددت في الجواب.

ـ ما بك؟ أسألك، جاهز؟

ـ أجل، جاهز.

كُسر في الأثناء صمت الخان وتعالى أنين من جهة السرداب، يبعث على الخوف والرهبة. سألت الزنجيل: ـ ما هذا؟

ـ لا شيء، خنزير يئنّ.

ـ هل هو مريض؟

ـ كلا، أدّبه مولانا وحبسه في السرداب.

ـ ماذا فعل؟

ـ حاول الهرب.. هيا بنا، لا تكثر الكلام.

خرجنا من الخان وانعطفنا شمالًا. كنت أسير ملتصقًا بكتف الصبي، الذي أيقنت منذ الليلة الأولى، بأنه يحوز في صدره شرًا يكفي لحرق غابة بمساحة ألفَي هكتار. قال لي وهو يهم الخطى: ـ اسمع، أنا القائد، نفذ ما أقوله لك.. مفهوم؟

أجبت طائعًا:

ـ مفهوم.

وصلنا المنزل المقصود الذي بدا من الخارج مملوكًا لواحد من الميسورين. اقتربنا وكادت المهمة أن تبدأ لولا أن استشعر الصبي خوفي المبالغ به وشاهد ارتجاف جسدي، فقرر ألا يجازف. تردد قليلًا ثم قرر المضي وحده: ـ ابق هنا، لن تدخل معي.

وأمرني بالنزول إلى الأرض: ـ ابركْ.

كان سياج المنزل عاليًا يلوح من خلفه رأس نخلة مدللة. نفذت الأوامر؛ ثنيت ركبتَي وبركت. اعتلى كتفي وأخذت أرفعه بعناء رويدًا رويدًا حتى لامس كفاه حافة السياج وتعلقتا بها. رفع جسده برشاقة وصار في الأعلى. همس لي من فوق: ـ راقب الطريق.

ـ حاضر.

لا يوفر الانتظار في الخارج أمانًا يُخرس صدى الخوف، فصوت الكلاب السائبة وصفير حارس المحلة من بعيد كافيان لإصابتي بالهلع. بيد أن النقاش مرفوض أثناء تنفيذ المهام، فأنا محض فرد مسلوب الإرادة في قطيع مولانا، والنقاش ليس من شأن القطيع.. القطيع ينفّذ ولا يناقش.

نجحت المهمة أخيرًا، وها هو الزنجيل يتسلق النخلة ليقفز من السور، ومخابئه مثقلة بالنقود والأساور. شعرت بنوع من الطمأنينة لرؤيته، وفي الطريق، أخبرني بنبرة يشوبها التعاطف: ـ على فكرة، أنت جبان.

ـ أعلم ذلك.

ـ لكن مولانا لا يعلم.

دلفنا زقاقًا مظلمًا، وأخرج لفافات سجائر كان قد سرقها من المنزل كما يبدو. أشعل واحدة وأخذ ينفخ الدخان. سحقها قبل أن نصل خان الرحمة ونطرق الباب. أدخلنا الصبي المثير للشفقة، وذهب الزنجيل لإيداع المسروقات في حجرة مولانا المنهمك في قراءة القرآن وأداء الصلوات النافلة. ثم وحالما خرج أومأ لي برأسه: ـ ادخل، مولانا يريدك.

دخلت بحذر وشفتاي ترقصان. كان خيط الدخان يتصاعد من عود البخور المحشور في شق الحائط خلف مولانا، بينما هو يقرأ في مصحف بيده.

ـ سسسلللام عليكم، ألقيت التحية.

ـ عليكم السلام ورحمة الله، ردّ وهو يغلق المصحف ويضعه على المنضدة الخشبية الصغيرة.

تناول من بعد ذلك المسبحة وشرع يطقطق حبّاتها مرددًا: ـ أهلًا بالمتخاذل.

ـ ممم..

ـ شششش، اسمع، هذه المرة سماح.. مرة ثانية، أسلخ جلدك.

هالني كيف يبصق كلمات التهديد بهدوء وروية؟!

أردف وما زالت حبّات المسبحة تصفق بعضها: ـ قل لي، هل تعلمت الصلاة؟

ـ كلا.

ـ آه! هذا سبب جبنك إذن.. عليك أن تصلي يا فتى، مفهوم؟

ـ مفهوم، مولانا.

ـ اغرب عن وجهي الآن.

ذهبت إلى حجرتي وتم إبلاغي لاحقًا بالعقاب؛ الحرمان من الطعام ليومين كاملين، وخدمة الحمار ورفع الروث من تحته إلى أجل غير مسمى. وفوق ذاك تعلم الصلاة والدوام على حركاتها الغريبة.

في تلك الأيام، كنت أشاهد الزنجيل يصول برفقة أتباع آخرين ليعود بالنقود والحلي ولفافات التبغ التي لا يفوتها بطريقه. حاولت الاقتراب منه علّ عدوى الشجاعة تصيبني، لكن دون جدوى، فقد كان شخصًا منزوع الخوف كالضباع. كان يضمر للأغنياء كرهًا مبالغًا به، وكلما وضع رأسه على الوسادة، ردّد: ـ آه، لو صرت زعيمًا ليوم واحد!

ـ ماذا تفعل؟

ـ أجمع الأغنياء في حفرة كبيرة وأضرم النار فيهم.

وعلى أية حال، فهذا الصبي الدميم يحب كثيرًا إشعال النار، حتى أنه أحرق منزلًا ذات مرة بعد سرقته. تعود حكايته مع الحرائق إلى سن الخامسة. في ذلك العمر اشتعلت النار في صريف القصب واحترق أهله، لينقذه أحدهم ويبيعه على صاحب حمّام وسط المدينة. ولأن الأخير ابن حرام، أذاقه طعم الذل على أصوله. كان يضربه ويسخر من شكله ويناديه أمام الزبائن بالضفدع. ليس هذا فحسب، بل يقهقه بصوت مرتفع كلما قام أحد الزبائن السفلة بتقليد صوت الضفادع خلفه: «وررررق وررررق».

قد تكون الغطرسة أمرًا فطريًا لدى الكبار، فالشعور بالتفوق البدني والعمري يمنحهم في الغالب دافعًا شيطانيًا للنيل ممن هو أدنى، لكني أعجز عن فهم شعورهم بالمتعة حين يُلبسون الصغار ألقابًا تحط من كرامتهم! ما المتعة في أن تنادي طفلًا بالضفدع أو الحمار أو الأرنب؟! ثم ما هذا الانجذاب الغريب نحو الحيوانات الأليفة؟!

سألته بهمس بين أصوات الرعد المسبوقة بالوميض: ـ ماذا فعلت في النهاية؟

ـ لا شيء، حرقت الحمّام وهربت. لا تثرثر، دعني أنام.

كان الشتاء قد جاء مسرعًا في ذلك العام، وكان المطر غزيرًا تلك الليلة حتى أن واحدًا لم يجرؤ على الخروج من الخان سوى مولانا.

في الشتاء يلوذ المشردون بأسمال فقرهم، ويمسي الحصول على ركن دافئ هبة يستحق باذلها السمع والطاعة. لهذه الأسباب يتضاعف نشاط مولانا في هذا الفصل من السنة، ويكثر خروجه تحت المطر، حتى لتشعر وكأنه في موسم الصيد. كان يأتي بالصبية المبللين من أرصفة التسول ليجعلهم عبيدًا خاضعين دون أن يبذل جهدًا في إخضاعهم. وهذه حكاية لا يصعب فهمها، فأنت لن تجد أتباعًا يسهل إخضاعهم كالجياع.. الجوع طريق معبدة نحو عتبات الخضوع.

وحده مولانا من كان مشغولًا بأطفال الشوارع، هذه الكائنات المسكينة التي تنبذها الطبيعة، وتنزلها الحكومات منزلة أعقاب السجائر على الأرصفة. كان يحنو عليهم ويجتذبهم إلى العمل تحت خيمته قبل أن تتكفل أحذية المارة بسحقهم وتفتيتهم. في البدء يرمي لهم طعمًا على هيئة نظرة تفيض رحمة، وابتسامة مطمئنة تتبعها صدقة، ثم يجلبهم إلى الخان من أجل تناول الطعام أو المبيت ليمسوا في النهاية قطيعًا يدمن الطاعة. «هذا خان الرحمة، منزل الفقراء وأحباب الله، أهلًا بك في أي وقت، بُني». ـ خلطة سرية تجعل الفقير خاتمًا بإصبعه وجنديًا يحركه على رقعة الليل كيفما يشاء.

لكن؛ أين تذهب كل هذه الغنائم التي تلقى في حجره؟!

لا أحد يعرف الإجابة سوى هوبي، الخادم الذي يستقبل من الإهانات والشتائم ما يرفضه حتى حمار التبن. كان زر كرامته معطلًا ويحوز درعًا واقيًا ضد الإحساس بالمهانة. تقول النمائم بأن مولانا قد عثر عليه في مقبرة مهجورة، طفلًا صغيرًا يقتات على الدغل

والحشرات ويبات في سد قبر مهدم. انتشله من هناك وجاء به إلى الخان ليربيه خادمًا مطيعًا واسفنجة لامتصاص البصاق. أخبرني ذات يوم بأن سيده خرج لشراء الطعام وتفريقه على منازل الفقراء. لكنه حالما انتهى من الكلام، ندم لفعلته وشدد على عدم الإفشاء.

سألته بدهشة:

ـ وهل الأمر سري إلى هذا الحد؟!

ـ أجل.

ـ لماذا؟

ـ لأن الله لا يقبل الصدقات ما لم تكن سرًا.

ـ من قال هذا؟

ـ مولانا، طبعًا.

لمولانا قلب طيب كالسمك، ووجه يحوز على ثلثي نور الله. قد يغضب فجأة وينطفئ ضياء الرحمة في جبينه، قد يشتم ويعربد، يبصق على وجوهنا، ينال من شرف أمهاتنا إن استلزم الأمر، لكن هذا، كل هذا، لا يعيبه.. لسبب بسيط؛ لأنه مولانا.

هكذا اعتاد أن يردد هوبي.

فاجأني في إحدى الليالي بأن مهمتي في رفع الروث قد انتهت، وأن عليّ الاستعداد للخروج في صولة على أحد المنازل. كان يقول لي بأن عقابي سيكون مضاعفًا هذه المرة ما لم أنجح. ربّت على كتفه مردفًا بثقة زائفة: «اطمئن يا عزيزي، ستُنجز المهمة»، وانطلقنا، أنا والزنجيل، نحو منزل لم يكن سياجه عاليًا بما فيه الكفاية، إلا أنه مزود بشظايا من الزجاج.

توكلنا على الله وعبرناه بنجاح، ثم سرنا من خلال الحديقة بخطوات خفيفة حتى وصلنا الباب الخارجي لغرفة المعيشة. كان بابًا ثقيلًا مصنوعًا من خشب الصاج. أخرج الصبي مفكًا صغيرًا، وبحركة شيطانية تم الفتح دون صرير. أبواب الأغنياء لا تصدر صريرًا عند فتحها.. معلومة جديدة اكتشفتها تلك الليلة. مناضد متفرقة وكراسٍ ومصابيح وسجاد فاخر، مررنا من خلالها بحذر اللصوص واخترقنا المنزل من الباب الداخلي الفاصل بين غرفة المعيشة والصالون. التفت الصبي يمينًا وشمالًا وتسلل فوق السلّم بخفة قاصدًا غرفة النوم في الأعلى. استدل عليها من خلال شخير متقطع يتعالى من جوفها. أما أنا فاتبعته بقدمين مرتجفتين وقلب يكاد يسكت من فرط الهلع. دخلنا بيُسر ملفت. سرير ملكي وزوجان يغطان في نوم عميق. وضع المفك في باب الخزانة العالية بجرأة يحسد عليها. عالجه وانفتح بلا عناد. أخرج من بين الثياب علبة خشبية موشومة بزخارف أنيقة، في جوفها أساور وقلائد لامعة، مدّ بها نحوي وأومأ وكأنه يقول: «امسكها ودعني أفتش عن غنائم أخرى». حملتها بحذر وعدت خطوات إلى الخلف، إلا أني تعثرت بفازة كبيرة ترقد قرب الباب وأحدثت جلبة أيقظت الزوجين.

ـ اهرب.

ركضنا بفزع نحو السلم، ورأيت الزنجيل ينط أمامي بسرعة عجيبة. لحقنا صاحب الدار وهو ينادي: «حرامي.. حرامي.. حرامي».. وبخفة عجيبة تمكن صاحبي من الخلاص والقفز نحو ضفة الأمان، بينما كنت في أثره حاملًا صندوق المجوهرات اللعين الذي غدا ثقيلًا كقنبلة. اعتليت السياج بهمّة وإصرار. لن أفشل هذه المرة، هذا ما جال في خاطري وأنا أركض هاربًا أمام صاحب المنزل. لكن ساقي، قاتلها الله، علقت بشظيّة من تلك الشظايا المثبتة بخبث في الأعلى، وعرقلت هروبي. تمكن الرجل من الإمساك بطرفها. سحبتها بقوة منه، فجُرحت وتمزق السروال. نجحت في الإفلات أخيرًا، غير أني فشلت في الحفاظ على علبة المجوهرات التي سقطت وانفرطت في حضن صاحبها.

ركضت والدماء تخط خلفي أثر الهروب. لحقت الزنجيل الذي بدا غاضبًا، ووصفني بالغبي والفاشل. أخافني غضبه، وأصابتني سياط نظراته بالارتجاف والتأتأة، أما صدري فشرع بالصعود والنزول. وصلنا الخان، وكان مولانا بائتًا في الخارج حسب هوبي، الذي نظر في أيدينا كمن يسأل عن مصير المهمة.

ـ كاد يضيّعنا الفاشل، قال له الزنجيل ودخلا سويةً إلى الحجرة.

أما أنا فسرت نحو الحوض، غسلت جرحي وضمدته بخرقة وصعدت حيث منامي. لم أنم تلك الليلة، في الواقع، كنت بانتظار ما يحمله لي غضب الصباح. وكما توقعت، سمعت في السابعة زئيرًا يتنامى من الأسفل، فسرت متطوعًا نحو مقصلة العقاب. أنزلني مولانا إلى السرداب، أوثق ساقَي وعلّقني بالمقلوب على سيخ حديدي طويل نابت في الجدار. شتلني شتل البصل وراح يقشّر جلدي بالعصا كما وعد. وبعدما شفى غليله، أمر بعدم الدنو مني حتى يأذن بذلك.

حتى اللحظة، ما زلت أتذكر هوبي حين جاء مساءً يفك وثاقي. كان الدمع يترقرق في عينيه، وأنفه يضخ أنفاسًا عالية. أما أنا فصدري يفور وليس في رأسي إلا الانتقام. أنزلني برفق وجلب لي طاسة ماء ليعينني بعدها على الصعود إلى غرف المنام. جلست على الفراش، وعيناي تمطران الدمع والغضب. إلى متى يا كمال؟! لا بد من وضع حد لحياة الذل هذه. أطلت التفكير في طرائق الانتقام، فأنا لم أجرب بعد أيًا منها، وفي النهاية اخترت الحرق.. لا يشفي قهر الأذلّاء كما تفعل النيران.

الفصل التاسع

طعم الحجر

عندما رأيت مولانا للوهلة الأولى ظننت بأن الأرض ما تزال تحمل على متنها بذار الرحمة، وأن وصفي لها بالغابة ما هو إلا ضرب من اليأس السابق لأوانه. لم أكن أعلم آنذاك بأن القسوة كالجمر؛ قد تنام بعين واحدة تحت رماد مغشوش. صحيح أني فشلت، والفاشل لدينا لا يقوَّم لينجح، بل يُعاقب من أجل أن يغرق في فشله ويعترف على الملأ بأنه فاشل، لكني لم أفشل، على أية حال، في تسديد ركلة جزاء، هذه عملية سطو يا أولاد الكلب.

ـ لـ لـ لن تـ تـ تمر الليلة بسلام، كنت أتأتئ وأديم غضبي يسخن.

لن أحيد عن حرق الخان بما فيه. سأنتظر عودة اللصوص وخلودهم إلى النوم، ثم أشعل النار وألوذ بالفرار.. هذا قرار نهائي لا رجعة فيه. سأثأر لكرامتي، وإلا مسخني دوام الذل أرنبًا.

جلست على الحصير أصك أسناني وألكم الجدار بمؤخرة رأسي لكمات خفيفة ومتتالية بانتظار ساعة الصفر. لقد فهمت مبكرًا بأن فتيل الغضب يخبو مع الوقت، وأن لا شيء يبقيه مشتعلًا كزيت الذكريات السيئة. لهذه الأسباب رحت أشحن رأسي بشريط من تلك الذكريات. كان أزيز الصفع يرن في الأذن، والجسد النحيل ينزلق تحت الأقدام على جرف خضل. الكفان الجبانتان لا تحميان من عنف الركل، والأخ المسكين يغرق، فتُساق الكلاب بحثًا عن مذنب بريء.

تذكرت في الأثناء الحجر، فمددت يدي وأخرجته. كان حجرًا صامتًا ككل الأحجار. أطلت النظر فيه وفركته برؤوس أصابعي ممعنًا النظر في لونه العجيب، ثم التقمته. ماذا أفعل؟

تنّين الجوع يهاجمني، وليس لي ما أشاغله به سواه. قلّبته بلساني يمينًا وشمالًا. كان طعمه غريبًا، غير أني شعرت بالراحة واختفاء مفاجئ للتأتأة! لهجت بأسماء أخوان الليل واحدًا واحدًا، فكان لساني خفيفًا يلوك الكلام بيسر عجيب! لا شك أن شيطانًا تلبّس هذا الحجر الصغير. اعتدلت في جلستي ونطقت اسمي عدة مرات: «كمال.. كمال.. كمال».. ها أنا أرددها بسلاسة: «كمال.. كمال.. كمال».. الحروف تجلس، كل حرف في مكانه، وصفيح الغضب يبرد رويدًا رويدًا ليحل محله شعور مائز بالسعادة. هدأت أخيرًا وغادرتني الرغبة في الانتقام. لقد أنساني الحجر غضبي، وغفوت خفيفًا بلا أحقاد. حتى أن الصبي، هوبي، حين جاء في الصباح لإيقاظي وتكليفي بخدمة الحمار من جديد ورفع الروث من تحته، مع إضافة مهمة غسل المراحيض وتنظيفها من رذاذ البول والخراء، لم يجرح كرامتي، بل أجبته بود: ـ على أمرك يا أخي.

مذ ذاك اليوم أيقنت بأن نسيان الغضب يمنحني الشعور بالسعادة وأن الصفح ينجيني، فشددت الحجر بخيط ولبسته كالقلادة، ثم غدوت كلما غضبت، دسسته في فمي ومضغته، وهكذا سهلت حياتي.

تسللت ذات ليلة إلى المطبخ بحثًا عن طعام فائض، ولم أجد سوى نصف رغيف بائت وحبة خيار يتيمة. أخرجتهما من زبيل الخوص ثم تناولت السكين وشرّحت بها حبة الخيار إلى أربع شرائح طولية، سطرتهن فوق الرغيف ورششت عليهن القليل من الملح. مصصت ذرات الملح العالقة بأصابعي، وصنعت سندويتش، وشرعت بالتهامه على عجل مختبئًا عن عيون الصغار. لكني تذكرت، وأنا ألوك لقمتي الأخيرة في خان الرحمة، بأن الليلة هي الخميس، وفي ليالي الخميس يمسي الخان فارغًا، إذ تتضاعف صولات أخوان الليل على منازل الميسورين بدعوى أنها ليلة مباركة. هذا يعني ألا أحد معي سوى مولانا وخادمه المطيع. «لن يُكشف أمري، لمَ العجلة؟» ـ قلت في سري، ثم كبست على فرامل أسناني وأمسيت ألوك الطعام على مهل. حينها دخل هوبي من أجل تخمير الشاي، ليتفاجأ بي.

ـ هذا أنت؟ ماذا تفعل هنا؟

ـ قتلني الجوع، ونزلت أبحث عن طعام.

ـ حسنًا، أكمل ما في يدك، واصعد إلى فراشك.

تناول علبة الكبريت من بعد ذلك وأشعل الموقد النحاسي الصغير، الرابض على مسند عند الزاوية. وضع فوقه الإبريق وظل رهن الانتظار ريثما يفور الماء الذي في جوفه. حدّق بي وكأنه يريد قول شيء ما.

بادرته:

ـ ماذا؟

ردّ بانكسار:

ـ لا شيء.

تجرأت:

ـ هوبي، عندي سؤال.

ـ اسأل.

مضغت اللقمة، وقلت: ـ لماذا يشتمك مولانا؟

أجاب:

ـ لأنه مولانا.

ثم أردف:

ـ مولانا يفعل بنا ما يريد، لأنه مولانا.

وبعد لحظات أضاف محاولًا مداراة أنّة مكبوتة: ـ هيا اذهب قبل أن يراك.

لم أعقّب، هززت رأسي ومسحت يدي بصدري وصعدت بغية النوم. كانت الغرفة باردة، والفراش رطبًا ومليئًا بالقاذورات وبقع الدم التي لا أدري ممَ تأتي! كما أن رائحة الزنخ المتشربة في الوسائد تكفي لتخدير عجل برّي. كان أخوان الليل يتناوبون على تلك الأفرشة القذرة، ومن يعود من المهمة، يدس جسده في أي فراش شاغر وينام. بعضهم نضج مبكرًا وأمسى لا يطبق جفنيه ما لم يمارس العادة السرية تحت الدثار. ستجد في مخابئ الوسائد قصاصات تحوي صورًا مثيرة لنجمات السينما، يسرقونها من بسطات المجلات على الأرصفة، ومن المنازل التي يزورونها تحت دثار الظلمة. كانوا يجمعونها كأدوات مساعدة على الاستمناء، مما يجعل الأغطية دبقة بفيالق من الحيوانات المنوية المهدورة. وضعت رأسي وكدت أغفو لولا آهة ارتفعت من الطابق السفلي. هرش الفضول جلدي، رميت الغطاء ونزلت درجات السلّم حافيًا علّني اكتشف مصدر الصوت.

ليس في الخان سوانا نحن الثلاثة؛ أنا وهوبي ومولانا.. من هذا الذي يتأوه إذن؟!

سرت على أطراف أصابعي نحو الحجرة التي ما زالت مضاءة، واقتربت حتى التصقت بالباب. تأوهات ولهاث وهمهمة. ماذا يجري بحق الشيطان؟! وضعت عيني في الخرم، فرأيت ما يعز تصديقه حتى اللحظة. كان مولانا النذل يعض على طرف ثوبه منزلًا سرواله والجًا قضيبه في الصبي، هوبي. أما الأخير فخاضع كالشاة فوق المقصلة، ويده على فمه محاولًا كتم النشيج! صدمت لما رأيت، وبلا شعور صدرت مني شهقة، سمعها ابن الحرام وفك المزلاج. حاولت الهرب، لكنه أمسك بكتفي وجرّني إلى الداخل وأغلق الباب من جديد. كانت رائحة جسده تملأ المكان، والصبي المسكين منزويًا يبكي. نظرت في عينيه، وأنا أصارع للخلاص، فأفزعني أن الوداعة قد تلاشت تمامًا. ليس ثمة نور يضيء جبين صاحب الخان في تلك اللحظة. العينان الفائضتان بالرحمة تقطران خسة ونذالة، والصوت الدافئ المتهجد بتلاوة القرآن يبصق رذاذ العهر. راوغته محاولًا الإفلات. قوة غريبة تدب في جسدي. قوة تشبه تلك التي يمنحها الله للقطط حين تُحاصر في ركن ضيق. عضضت يده

واندفعت إلى الأمام بغية الوصول إلى مزلاج الخلاص. وفي غمرة الصراع انكفأت المدفأة النفطية واشتعلت النار في الحصير. هبّ الساقط ليخمدها، فاغتنمت الفرصة وهربت.

لاحقتني صرخات الوعيد والشتائم: ـ حرقتنا يا ابن الكلب!

ـ سأقتلك.

ـ توقف.. توقف..

ـ حريق.. حريق..

غير أني لم أكترث؛ أطلقت ساقي للريح مخلّفًا ورائي عامين من الذل عشتهما في خان الجحيم.

الفصل العاشر

عربة الشاي

الأوغاد، وإن كانوا أوغادًا، قد يتحلّون بالصدق أحيانًا، يحصل هذا عندما يعدون ضحاياهم بالموت مثلًا.

لقد كان الصدق عاريًا في نبرة مولانا الوغد وهو يتوعد بتعليق مشنقتي. لذا توجب عليّ الابتعاد ما استطعت. وهذا ما فعلته، إذ عبرت الجسر راكضًا ورأسي يدور مثل أرنب فزِع، ثم دلفت الأزقة الملتوية كالأمعاء وسرت في تلافيف الحواري بحثًا عن مخبأ آمن في بطن المدينة. ليلتها، كان الجو باردًا، وبغداد نائمة، ولولا أنوار الحانات المندلقة على الأرصفة لقلت عنها موحشة. سرت حافيًا وسمعت صوت موسيقى ينساب من جوف ركن بعيد. اندفعت وراءه، فكان ملهى منزويًا في زقاق ضيق. للحظة لم يراودني الشك بأنه يحتضن دفء الله كله، فهممت بالدخول، لكن رجلًا حليق الذقن يقف على الباب اعترضني قائلًا: ـ ممنوع الدخول.. للكبار فقط.

ـ تبًا لك وللكبار، غمغمت بحنق ومضيت لائذًا بالجدران حتى وجدتني ألج سوق الشورجة.

كانت رائحة البهارات المنبعثة من جوف الدكاكين المغلقة والضوء الخافت الساقط من المصابيح الصفراء المعلقة على أبوابها يشعرك بأنك داخل إلى معبد هندوسي شبه مهجور. سمعت نحنحة الجرخجي (5) قادمًا من بعيد، فلملمت فزعي ولذت به خلف حاوية القمامة. انتظرت هناك ريثما يمرّ الحارس المثقل بالثياب ورائحة التبغ، وتتلاشى سعلاته المتتالية، ثم عاودت الظهور والبحث عن مخبأ. كان برد الأديم يخزّ أقدامي ويجعل مشيتي عرجاء كالملدوغ. لم يكن أمامي سوى التكوّر تحت منضدة خشبية مصفوفة على باب واحدة من تلك الدكاكين الصغيرة والمتساندة. اختبأت وشرعت بتدليك باطن قدمَي، بينما

راح الزفير يخرج مصحوبًا بهمهمة لا إرادية: «أففف.. أححح».. عاد الدم ليسري فيهما من جديد، فاحتضنت رُكبتَي وأوقفت اصطكاك الأسنان بالعض على الشفة، ثم وحالما هدأت قليلًا واستقرت عملية الشهيق والزفير، أخرجت حجر السعادة ومضغته. حينها فقط انخفض عدّاد الفزع واستعدت القدرة على النطق، ولم يبق لي، من أجل عيش حياة طبيعية، سوى الشعور بالدفء.. قاتل الله الدفء كم يبدو عزيزًا على أطفال الشوارع!

أدخلت رأسي في البلوفر الصوفي في محاولة استدفاء فاشلة، وبقيت أرتجف تحت المنضدة حتى تفجر صوت الأذان من مسجد قريب: «الله أكبر.. الله أكبر».. عندئذ راودتني فكرة المغادرة وطلب اللجوء في بيت الله.

وهكذا خرجت من مخبئي البارد وسرت مستهديًا بالصوت الرخيم الصادح من رأس المنارة. وصلت هناك وكانت الأنوار ساطعة رغم قلة المصلين. مضيت حيث المراحيض في آخر المسجد، تبولت وشطفت وجهي بماء دافئ، ثم وقفت في الحرم مؤديًا تلك الحركات التي تعلمتها في خان الرحمة. وبعدما انتهت الصلاة تراجعت إلى الخلف قليلًا واتكأت على أسطوانة مشبعة برائحة البخور حتى تشرب الدفء في عظامي وغفوت أخيرًا.

كان ملجأً دافئًا، لكن أحدهم أيقظني مع ضوء النهار الأول: ـ انهض، يا ولد، لا يجوز النوم ههنا.

كان خادم المسجد بثيابه الصوفية الفقيرة، وقد قرر كما يبدو ممارسة دور المفتي في تلك الساعة المباركة.

ـ النوم في المسجد حرام، إنه يطرد الملائكة ويستجلب الشياطين.. هيا انهض.

أطعت ولم أعترض، فلا حجة لدى طفل تفنّد كل هذا الهراء.

ـ حاضر يا حاج، تحت أمرك، رددت بنبرة خافتة وعيون شبه مطبقة قبل أن أغادر مكللًا بالأسئلة: يا ترى من خوّل هذا الرجل البسيط البتّ في طلبات اللاجئين؟!

لا أظنه يجيد صف الحروف كحد أدنى!

ثم إنه بيت الله، فإلى من يلجأ الفاقدون للمأوى؟

كثر السؤال وعزّت الأجوبة!

عدت إلى السوق وقد بدأت تشرع أبوابها، ويرش الباعة عتبات رزقهم بالماء والتمائم. سرت في جوفها حتى وصلت محلًا يبيع الكباب. كان مكتوبًا على واجهته الزجاجية: «مطعم كباب السيد» ويدير دفته رجل صموت لا يزعجه وقوف الصغار خلف الزجاج كما يبدو. كان أصحاب المحال وسائقو سيارات الأجرة وبعض الأفندية من الموظفين يتهافتون عليه لتناول إفطارهم قبل التوجه صوب أعمالهم. ولأني مفلس ولا أملك ثمن الطعام، تنحيت جانبًا ورحت أمارس طريقتي في الأكل؛ شم الرائحة والتلذذ بها حد الشبع. انتبه في الأثناء بائع الشاي عند الباب وأومأ لي بالاقتراب. دنوت، فأشار بيده التي تجري فوقها خرائط من الشقوق المكسوة بلون الصدأ، قائلًا: ـ ماذا تفعل هنا أيها الصبي؟

ـ لاا شيء.

ـ ما بك؟ هل أنت جائع؟

ـ للاا.

ـ حسنًا، خذ اشرب.

مدّ نحوي قدح شاي تتصاعد من جوفه خيوط الدخان، وكأنه يحنو على متسوّل عارٍ.

في الواقع، أنا لا أنكر بأن تصرف البائع قد أحدث شرخًا في كرامتي، لكن قدح الشاي في تلك اللحظة الباردة من عمر الكون كان أنفع وأجدى من الكرامة بسبعين ضعفًا كحد أدنى. تناولته من يده، وقرفصت أمام صفيحة معدنية محشوة بالجمر كانت مركونة بجانب العربة. أدرت الملعقة في القدح وأخذت أرتشف الشاي الساخن برويّة وتلذذ. لقد حلقت بي

رائحة الخشب المحترق نحو بيتنا في الموصل. كانت جانيت تلقم التنور بالحطب وتشعل به النار لتطعمنا خبزًا أطيب من ثمر التوت، وكان اللهب يشعل ملاحتها لتبدو وكأنها نازلة من عالم نوراني. أما ريمون الذي يظفر، حسب أوامر سيدة المنزل، بالخبزة الأولى، فقسماته البريئة وهو يقضم طرف الرغيف، تمنحك دفقة هائلة من الأمل وتجعلك تنسى بأنك الثاني.

آه، ريمون! ماذا عملت بي يا أخي؟!

لكن ماذا عليّ أن أفعل الآن؟ رددت في سري وأنا أراقب شرر النار المتطايرة من الصفيحة.

يخامرني شعور بأن ما صنعته بصاحب الخان لن يمر بسلام. اليوم أو غدًا، سيجدني أخوان الليل، فهؤلاء اللصوص الصغار لا يردّون أمرًا لمولاهم. سيفلّون، لا شك، أزقة بغداد من أجل الإمساك بي وجلبي مخفورًا إلى خان الجحيم.. يا للمحنة! عليّ أن أختبئ.

لكن؛ أين أختبئ؟!

أنا تائه في هذه المدينة وأجهل مخابئها.

أنهيت شرب الشاي وأرسلت نحو صاحب العربة نظرة امتنان، ثم سرت متخذًا من الطرقات الفرعية دثارًا يحميني. سرت لا ألوي على شيء، واخترقت متاهة الأزقة لأجد نفسي بعد حين وسط محلة عامرة بالدكاكين والمقاهي. كان فيها دار سينما وملهى ليلي محاط بسياج من القصب. مررت من أمام مقهى ينشغل صاحبه بتعليق لافتة عمودية تضم إعلانًا تجاريًا لمشروب غازي، وشاهدت ثلاث نسوة يفترشن الرصيف المحاذي ويبعن القيمر. اقترب منهن رجل يرتدي بدلة وربطة عنق وله شارب رفيع يظنه الرائي سرب نمل. توقف عند البائعة الوسطى ذات الوجه المشرق، التي تطيل بقلم الكحل عينيها، وتلوّن شفتيها بالديرم (6).

ـ صباح القيمر يا قيمر، غازلها.

ـ صباح الخير، هلا بالأفندي، ردّت وهي تغطي فمها بطرف الفوطة.

ثنى ركبتيه وكشف القماشة البيضاء الناعمة عن وجه بضاعتها، ثم شرع يحادثها بصوت منخفض كمن يضرب موعدًا غراميًا في حديقة عامة. كان البخار النافذ من جوفيهما جراء البرد يمنح الحديث سخونة يمكن استشعارها من بعيد. مدّ يده في جيبه أخيرًا وناولها ورقة نقدية، ثم حمل صينية القيمر بأكملها وذهب. رأيت البائعة إذ ذاك تتهامس مع رفيقتيها ويتبادلن الضحك، فأسدلت جفن الفضول وانصرفت. غادرت المحلة وعبرت شرقًا باتجاه شارع عريض مكتظ بالسيارات والمارة، ثم سرت بتؤدة حيث لا عمل لي سوى التسكع.

في ذلك الصباح بدت المدينة، رغم المنخفض الجوي الذي سقطت فيه، صاخبة ومزدحمة. مررت بالقرب من حائط مدرسة، تنطلق من خلفه أصوات التلاميذ وصرخات لعبهم، ورأيت بائعًا متجوّلًا يرتدي ثيابًا ثقيلة ويلف عنقه بشال صوفي سميك، كان يدفع عربة وينادي: «لَبْلَبي (7).. لَبْلَبي.. بيعْ أمّكْ واشتِري». كرر النداء بضع مرات حتى قفز بعض التلاميذ من فوق الحائط وتحلقوا حول العربة. مدوا له أيديهم الصغيرة بمصروف يومهم متطلعين لتناول وجبة ساخنة، فملأ لهم الكاسات البيضاء الصغيرة بالحمص وماء السلق ذي الصفرة الباهتة، ثم عاد يستجلب قفزات الآخرين بترديد النداء من جديد: «لَبْلَبي.. لَبْلَبي.. بيعْ أمّكْ واشتِري».

أما أنا فجانبت الطريق ورحت أراقبهم كيف يعصرون ثمار النارنج على الأطباق ويتناولونها بمرح يفتق جرح الذكريات. كان بالإمكان، لولا أني مفلس، مشاركتهم الطعام والمرح، بل كان سهلًا عليّ ارتداء ثوب الدفء والسعادة لو أن القدر منحني طالعًا غير الذي ولدت به.. بلعت ريقي ومضيت. جلت المدينة حتى انقضى عمر النهار وأُسدلت ستارة الليل.

آه من الليل!

ها هو الظلام يطفئ وهج النهار وها أنا ذا أحيك الأماني بإيجاد مأوى دافئ. طفت الشوارع والحواري وفتشت بين الخرائب، لكن دون جدوى. وقفت في النهاية وسط الطريق ودرت من حولي كالملدوغ مرددًا: «أين أذهب؟!» ثم وجّهت بوصلتي صوب سوق الشورجة وحثثت الخطى نحو مطعم كباب السيد.

في الواقع، إن ما دفعني إلى هناك في تلك الساعة، ليس رائحة الشواء، بل رجاء رؤية بائع الشاي علّه يأويني. لقد كان في عينيه التماع رحمة فائضة. بيد أني وجدت المطعم مغلقًا، وعربة الشاي مركونة على بعد ذراع! وهذه محنة يتعذر اجتيازها، فما كان مني إلا أن كورت جسدي في تلك المسافة الضيقة بين العربة والباب، ولشدة التعب غفوت. ثم وبعد ساعات أطلق الصباح صيحته الأولى وراح أصحاب الدكاكين يشرّعون أبواب رزقهم. رأيت عربة يدفعها عتّال مربوع، تهم بالوقوف أمام دكان ما يزال مغلقًا. توقفت وشرع العتّال بإنزال الأكياس التي بدت ثقيلة. جاء خلفه رجل بدين في السبعينيات من عمره يسير ببطء شديد. قال وهو يلهث: «انتظر، انتظر، أدخلْها». لكن العتّال تجاهل طلبه ومضى يدحرج العربة.

ـ الله لا يوفقك، دعا عليه صاحب الدكان، وأخرج من جيبه مفتاحًا طويلًا فك به الباب الحديدي، ثم حاول، بلا جدوى، حمل بضاعته إلى الداخل.

كنت واقفًا أراقب، فأومأ لي:

ـ يدك معي، ساعدني، الله يخلّيك.

ـ حاضر يا عم.

حاولت مساعدة الرجل إلا أن الأكياس بدت ثقيلة وتفوح منها رائحة الكاري الهندي، فطلبت منه أن يتنحّى جانبًا وشرعت بسحلها على الأرض. وضعتها في الداخل وهممت بالمغادرة.

ـ تعال خذ، قال ودس في يدي فلسًا، ثم مضى يرتب البضائع بحركة ثقيلة.

رأيت بعد ذلك صناديق خشبية ترتكن السوق، فذهبت وتسمّرت أمام البائع برجاء أن يستكريني لحملها. مسحني الأخير بنظرة شاملة وصدرت منه ابتسامة صفراء، وكأنه أراد أن يقول: «أنى لك القدرة على رفع الأحمال أيها الصبي الهزيل؟!»

آلمتني ابتسامته وقررت ألا أدع الأمر يمر بهذه البساطة. تقدمت وحملت الصناديق كي أثبت له خطأ اعتقاده. أدخلتها إلى الدكان وأنجزت ما لم يتوقع مني إنجازه، وهذا يعني بأني قد هزمته وصار لزامًا عليه دفع الأجر. لكنه اكتفى بالدعاء لي: ـ بارك الله فيك.

يظن الغبي بأن الدعاء يشبع البطون الجائعة!

على أية حال، لدي فلس وأستطيع الأكل من عرق جبيني. غادرت السوق وطفقت أبحث عن طعام رخيص. وفي النهاية عثرت على مطعم يبيع المخلمة. كان مطعمًا بائسًا بأربع مناضد خشبية متهالكة، يرتاده العتّالون والعربنجية، وتمر فيه القطط السائبة بأمان لتلقي التحية على الزبائن قبل أن تداعب سيقانهم وتخرج. رحب بي صاحب المطعم الذي يمتلك من الحيوية والخفة ما لا يمتلكه أشهر لاعبي تنس الطاولة في العالم. وضع أمامي رغيف خبز، وطبقًا فيه بصل أخضر وخيار مخلل، ثم عاد ليجهّز الطبق الرئيس أمام الأنظار. رأيته يسكب الزيت في المقلاة الراقدة فوق النار، ويخرج من سلة صغيرة على يمينه رأس بصل مقشرًا ومغسولًا. فرمه بحركة سريعة ونثره فوق الزيت ثم قلّب النثار بملعقة طويلة حتى اكتسب لونًا ذهبيًا. رمى فوقه قطع طماطم صغيرة ولحمًا مفرومًا، واستأنف التقليب، فتصاعدت الرائحة وامتلأ فمي باللعاب. خفق بيضة فوق المكونات، ثم منح الطبخة رشة ملح لتجهز أخيرًا ويقدمها لي بطبق من المعدن الرخيص، محدّقًا بقدمَيّ الحافيتين.

كان الطعام، رغم فقر المكان، شهيًا. أكلت بنهم، وناولت البائع ما أملك، فابتسم وردد بدهشة: ـ فلس؟!

لكنه تدارك وقبّله ووضعه على جبهته قائلًا: ـ الحمد لله.. رزق.

بدأ الناس بالتوافد، وازدحمت السوق رويدًا رويدًا. لم يكن لي عمل أنجزه سوى الاختباء في تلك الأزقة ورصد الطريق. راقبت عتّالًا يدفع عربة أحمال خشبية ويفرغ بضاعته على باب أحد الدكاكين ويعود. تبعته حتى باحة صغيرة يتجمع فيها العتّالون. بعضهم كبار طاعنون في السن، وبعضهم شباب بعضلات مفتولة، وفئة ثالثة من الفتيان الذين يقاربونني في العمر أو يكبرونني قليلًا. اقتربت منهم بحذر وجلست جانبًا فوق صندوق خشبي مهمل. شزرني أحدهم، فانكفأت داخل صدري محاولًا تجنب سياط نظراته. ثم اقترب مني وراح يسأل: ـ ما اسمك؟

ـ كمال.

ـ أين بيتكم؟

سرحت قليلًا ثم قلت:

ـ في العلاوي.

ولو ألحّ في الأسئلة، لاجترحت الكذب:

ـ المنزل الرابع من جهة اليمين خلف خان الرحمة..

غير أنه فزّ راكضًا نحو رجل يلوّح بيده بحثًا عن عتّال. رفع الأكياس وسار خلفه معتمرًا غرور الفائزين. داومت الذهاب هناك، وصرت ألقّط رزقي من حمل الأكياس خلف الأفندية وربّات البيوت، وإيصالها حيث الشارع العام لدى مدخل السوق. لكن المأساة لم تنته وظلت تتكرر كلما غابت شمس بغداد؛ أين أبات الليل؟ في أي ركن من هذا العالم اللعين أفرش جسدي؟ ما كنت أجنيه من العمل في العتالة لم يكن كافيًا لاستئجار سرير بائس في فندق هرم، ولا حتى لمزاحمة أجساد المشردين في الخانات الفقيرة. كل ما استطاعت توفيره لي تلك المهنة المرهقة رغيف خبز يومي، وثمن حذاء في منتصف العمر. لهذه الأسباب لم يكن

أمامي سوى عربة الشاي؛ ألوذ بها عندما تغيب الشمس ويهبط الظلام. هناك، وفي كل ليلة، كنت أفترش الأرض حتى الفجر، لأمضي من بعد قاصدًا تجمع العتّالين والعربنجية.

ذات نهار حملت تسعة أكياس ثقيلة ملأى بثياب البالة، ولم يعطني البائع أجري. دبقت به حتى خضع في النهاية ومنحني بدل المال سترة مسلوبة الأزرار، أردانها متآكلة. كانت أكبر من قياسي بخمس مرات. وعندما ارتديتها أمامه، كُسر قلبه وزادني بطانية متهرئة ونتنة. آه، كم انتفعت بها! حتى أني كنت أخفيها عن عيون النهار داخل صندوق حديدي مهمل قرب المطعم. أما بياتي خلف العربة فقد ظل سرًا لوقت طويل. وفي أحد الأيام استيقظت على صوت أحدهم يندد: ـ يا ولد.. يا ولد.. أنت، يا ولد.

كان صاحب العربة. سألني برفق عما أفعله، فقصصت عليه الحكاية. زفر إذ ذاك هواءً ساخنًا وأخذ يردد: ـ لا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم أخبرني بأن هذه الأزقة، رغم وجود الجرخجي ليست آمنة تمامًا، وأن النوم على الأرصفة قد يعرض حياتي للخطر.

ما الجديد في ذلك؟ أعرف جيدًا بأن نوم الأرصفة غير آمن، لكن ما جدوى المعرفة بلا حلول؟!

رفعت كتفَي وخفضتهما تعبيرًا عن فقدان الحيلة، ثم تركته وذهبت صوب تجمع العتّالين. إلا أني وعندما عدت في المساء وجدت باب العربة مواربًا. كان يطل منها كيس فيه كسرة خبز وفتات لحم وبصل. «شكرًا لله أني حظيت بشرف أكل الكباب أخيرًا». ـ تمتمت وأنا ألتهم بقايا الطعام. ثم تكرر الأمر في الليالي اللاحقة حتى أمست عربة الشاي منزلي وعنوان سكناي. بيد أن المنازل لا تكون منازل ما لم تظللها السقوف، ويدفئها صوت الأمهات. لقد ارتجفت كثيرًا تحت تلك العربة، سيما وأن لصًا استدلّ على مخبأ البطانية لاحقًا وسرقها. فوق هذا، كان طيف أخوان الليل يلاحقني، والخوف من الوقوع بأيديهم يعتمل في صدري. لم يكن خوفًا نافلًا، ولا وهمًا يعانيه مرضى الريب، فقد رأيت بعينَي

هاتين الزنجيل وهو يلج السوق ذات يوم برفقة صبي ثان يقاربه في الطول. كانا يسيحان في الأزقة وبين جنبات الحوانيت بحثًا عن الطرائد.

في الواقع، لم أكن أعلم حينها ما إذا كان ذانك الجنديان الصغيران مكلفين بالبحث عني أم عن طريد آخر، غير أني لم أراهن على الحظ، فتزحفت بهدوء واختبأت في حاوية قمامة. ظللت قابعًا هناك حتى حلول الظلام، وعندما خرجت، اجتمعت حولي القطط ظنًا منها بأني علبة سردين.

شكرًا للفقر أن جعل مني صبيًا نحيلًا لا تضيق بي حاويات القمامة. إلا أن حظوظي في المنافسة تأثرت كثيرًا بسبب ذاك النحول، وغدا الحصول على الفلس إنجازًا يستحق الاحتفاء. كانت الأيام تجر الأيام والشهور تجر الشهور وأنا عاطل عن العمل، فضآلة جسدي واصفرار وجهي، وإن كنت قد بلغت الثالثة عشرة، يحكيان للناظرين قصة طفل مريض في الثامنة. كان الزبائن يشيحون بوجوههم عني ليختاروا من هو أشد عودًا وأطول قامة. آلمني الجلوس على عتبات الانتظار، ولولا كسر الخبز التي يعافها لي صاحب العربة، وثمار الفاكهة المتعفنة الملقاة على هامش السوق، لقضيت جوعًا ودفنت في مقابر المشردين.

(5) الحارس الليلي.

(6) لحاء شجرة الجوز، وكان يستخدم لتلوين الشفاه ومنحها لونًا قانيًا.

(7) حمص الشام المسلوق.

الفصل الحادي عشر

صاحب الكاميرا

ذات يوم كنت جالسًا عند مدخل السوق أراقب الداخلين والخارجين علّ زبونًا يستكريني لحمل أغراضه، فتوقفت في الأثناء سيارة أجرة وترجل منها شخص يرتدي الغترة والعقال. كان طويل القامة وذا هيبة. يمم وجهه نحو المحال وأخذت عيناه تجولان الوجود بحثًا عن عتّال. لم ير سواي، فأومأ لي وانطلقت نحوه. أشار بيده، دون كلام، إلى إنزال البضاعة من صندوق السيارة، فامتثلت بسرور بالغ. كانت صفيحة تفوح منها رائحة زيت السمسم، وبرطمانَ من الفخار أغلِق فمه بقماشة بيضاء. حملتهما وسرت خلف الرجل المهيب، الذي بدا وكأنه زعيم قبيلة. ولدى الخطوات الأوَل، سقطت من جيبه ورقة نقدية. ناديت خلفه: «يا عم يا عم، فلوسك».. ثم وضعت الأغراض في الأرض وطأطأت لرفعها، كانت من فئة النصف دينار. أعطيتها إياه، فابتسم ولم يعدها إلى حوزته، بل دسّها في جيبي قائلًا: «حلال عليك.. هذا أجرك». فرحت أيما فرح وأوشكت على تقبيل يده، ثم عاودت المسير بالحمولة مرددًا: «شكرًا يا عم.. شكرًا يا عم».. حتى أوصلته آخر السوق، عند بائع القدور والأواني الذي قفز من مكانه مرحّبًا بالضيف. تركتهما يقبل أحدهما الآخر، وعدت غانمًا وفي رأسي خطة لدخول المطعم وطلب الكباب. كنت سأفعلها لكسر أنف الجوع، لكن ملمّع أحذية خطف من أمامي مسرعًا، فكبست على فرامل التنفيذ وأرجأت الخطة إلى وقت لاحق. كان صبيًا أصهب يعلق على كتفه صندوقًا خشبيًا، وفي يده فرشاة أحذية، وينادي: «لمّعْ.. لمّعْ».. تساءلت في سري بعدما رأيته: ـ ما رأيك في تأجيل خطة الكباب؟

ـ وأنف الجوع؟

ـ دعك منه، سيُكسر يومًا ما.

ـ حسنًا، بماذا تفكر؟

ـ باستثمار النقود في مشروع يدر بدل الكباب ذهبًا.

ـ آه، فهمت، فكرة رائعة!

ـ هيا بنا إذن.

ودون تأخير انطلقت صوب النجار ليصنع لي صندوقًا مزودًا بدُرج صغير وحزام جلدي. اشتريت بعدئذ فرشاة وعلبتي تلميع؛ سوداء وبنية، حشرتهما في الدرج، ثم علّقت الصندوق على كتفي، ورحت أدور بين الأسواق والمقاهي مناديًا: «لمّعْ.. لمّعْ»..

عليّ الاعتراف بأن تلميع الأحذية لم يكن عملًا شاقًا، فلا عربات ولا أحمال تئن لها الأكتاف الهزيلة. كان عملًا سهلًا وسريعًا يوفر ثمن الخبز والشاي معًا دون الحاجة إلى صدقة، لكن فيه من الذل والمهانة ما يفوق العتالة بعشرة أضعاف، فقد تعرضت لسباب وشتائم لم تسمعها أذني من قبل. كان صوتي، وأنا أدور بصندوق التلميع، يزعج أولئك الأفندية الذين يحرصون على قراءة الصحف مع الشاي على أرائك المقاهي. كانوا يتذمرون كثيرًا ويشتمون بطريقة أولاد الشوارع، وكأن القراءة لم تهذب طبعهم. القليل منهم من يعف عن الشتائم، فيسلك طريقًا آخر للتعبير عن انزعاجه وغضبه، كأن يمرر الشكوى للندل ليمارس هؤلاء الأميون مهامهم بفظاعة لا تخلو من ذكر الأمهات.

حتى الساعة، لا أدري لمَ يرغب بعض الذكور بتضمين شتائمهم فروج الأمهات! يفعلونها وكأنهم جاءوا إلى الدنيا بالتبرعم أو الانشطار أو نتيجة السقوط إلى الأرض من قضيب عملاق!

مررت يومًا بالقرب من شخص يجلس متأملًا خيوط الدخان المتصاعدة من قدح الشاي، فرفسني مدعيًا بأن صوتي ثقب أذنه. وفي يوم لاحق من أيام الشتاء ضربني صاحب مقهى يقع في شارع الخلفاء لأني تسببت بتوسيخ الأرض. صحيح أن أقدامي رسمت خارطة من

الوحل على البلاط، وأن تصرفًا كهذا من شأنه أن يشعل الغضب في صدر صاحب المكان، غير أنه على أية حال ليس سببًا كافيًا لصفعي بهذه القوة! ابن الحرام، أسقطني بكفه الثقيلة على الأرض وتناثرت علب التلميع، بينما كان يكفيه أن يوجه لي توبيخًا أو شتيمة خفيفة، أو يأمرني بتنظيف البلاط كعقاب عادل!

يجرحني أن أخبركم بأني بكيت كالفتيات في ذلك النهار وأن التأتأة اجتاحت لساني، فما كان مني إلا أن انزحت جانبًا وأخرجت الحجر ودسسته في فمي. قلبته، وأنا أكفكف دموع الذل، حتى هدأ غضبي واستعدت القدرة على النطق المعافى.

«كمال». ـ رددتها بوضوح ونسيت ما جرى.

كان المطر قد توقف حينها ولاح في السماء قوس قزح هائل سيلوّن آهاتي. افترشت الرصيف المحاذي لحائط كنيسة اللاتين ورحت أنقر بالفرشاة على الصندوق مرددًا: «لمّع.. لمّع».. وفي الأثناء رأيت شخصًا يحمل كاميرا ويصوبها باتجاه طير يعتلي قبة الكنيسة. كان رجلًا طويل القامة في أواخر الأربعينيات من عمره، يرتدي قميصًا قطنيًا ثقيلًا وجاكيتًا صوفيًا بلون الحناء، وكان شعره غير مصفف وحذاؤه مثنيًا من الخلف. راقبته، فرأيته يميل بجسده مع حركة الطير دون أن يعير اهتماماً لما حوله. لقد بدا الرجل في تلك اللحظة وكأنه يحلق في عالم آخر، عالم من الضوء والصورة. لم يربكه المارة ولا صوت النقر على الخشب، لكنه اختفى! حجبني عنه زبون متغطرس يبالغ برفع حذائه قرب أنفي وكأنه يطالب بتقبيله لا تلميعه، وحالما انتهيت منه، لم أرَ أثرًا لصاحب الكاميرا.

بقيت جالسًا في مكاني حتى انتصاف النهار. لمّعت حذاءين بثمن زهيد، وعندما شعرت بالجوع، انزلقت صوب السوق. كنت على موعد مع غداء كل يوم؛ رغيف خبز مغمّس بالشاي وثمرة خيار في أفضل الأحوال. سألني صاحب العربة الرحيم عن رزقي، فأومأت له بعلامة الرضا وباشرت الطعام. لا أدري إن كنت منافقًا يضمر السخط، أم مكابرًا يجدّل ضفائر الوهم ليجمّل بها فداحة الواقع. غير أن اللقمة، على أية حال، تمر وتغدو طاقة ترطب يباس العروق. تمر بانسياب أحيانًا، وفي أحيان أخر تنغصها كف ريمون الملوحة من تحت الماء،

وصرخات زوجة أبي المنقوشة كالندوب في الذاكرة: «آه يا ولدي المسكين، قتله ابن الساقطة!»

لست أنا يا خالة، قتله واحد منهم.

أنهيت طعامي وتفاجأت بصاحب الكاميرا جالسًا خلف الزجاج يأكل الكباب. راقبته حتى انتهى ودفع الحساب وخرج، ثم ألقى التحية على البائع وطلب شايًا حلوًا: ـ واحد حلو يا حلو.

لكنه سرعان ما تنبه لوجودي وأخذ يذرع بعينيه المسافة الفاصلة بين الجبهة والحنك طولًا، وبين الأذنين عرضًا. كان ينظر لي بدهشة وكأني معجزة.

ـ ما اسمك يا فتى؟ بادرني بالسؤال.

ـ كمال، أجبته وعيناي في الكاميرا المعلقة على صدره.

وضع البائع قدح الشاي مرددًا: ـ تفضل، أستاذ خليل.

أجاب وما زال يحدق بي:

ـ شكرًا.

أمسك بالكاميرا بعد ذلك وثنى ركبتيه لتكون العدسة بمستوى وجهي. زحف خطوتين إلى الوراء وقال: ـ ابتسمْ.

التقط الصورة ودنا يمسّد على رأسي. كان يسري فوق عينيه حزن طفيف. استدار نحو البائع المشغول بسكب الشاي من الإبريق الخزفي الأبيض في ثلاثة أقداح يحملهن بيد واحدة، التقط له صورة ليتفرغ بعدئذ لشرب الشاي بطريقة غريبة. أدار الملعقة بسرعة قبل أن يثبتها بسبابته ويمسك بالقدح. رفعه وسكب السائل الساخن في الطبق الصغير الأبيض

المزين بالأزهار الحمراء الناعمة، ثم شرع بالنفخ عليه والشرب منه على دفعات محدثًا بذلك صوتًا يسمعه الطير في البصرة: «شششب طأ». انتبه لي وأنا أراقب بدهشة ما يفعل، فتلاقت نظراتنا وابتسمنا.

عندما رحل، سألت البائع: ـ عم، من هذا الرجل؟

قال:

ـ هذا خليل المصور.

وبلا فواصل أردف:

ـ فنان معروف وعنده ستوديو في شارع الرشيد.

ـ آه! ما اسم الأستوديو؟

ـ والله يا ابني لا أعرف.

بيني وبينكم؛ لم أكن مقتنعًا بأن هذا الرجل الأشعث الذي لا يحسن ارتداء حذائه فنان مشهور وصاحب ستوديو. ثم ما هذه الثياب؟! «لا شك أنه شخص مدّع». ـ مضيت أردد.

لكن، لمَ التقط لي صورة؟! فاتني سؤاله.

بعد بضعة أيام كنت دائرًا ألقط رزقي في شارع الرشيد، فسمعت نداءً من خلفي: «يا ولد.. يا ولد».. استدرت لأرى صاحب الكاميرا يومئ لي: «تعال.. تعال».. ذهبت إليه وكان متكئًا بكتفه على باب الأستوديو، ممسكًا بالكاميرا، وحذاؤه ما زال مثنيًا من الخلف. في الأعلى، فوق رأسه، لافتة أنيقة بخط التعليق؛ «ستوديو خليل». وعلى يساره واجهة زجاجية تطل من خلفها صور في غاية الروعة.

نظر في عينَي وابتسم:

ـ كمال، أليس كذلك؟

قلت:

ـ نعم، كمال.

وبلا فواصل، أردفت:

ـ أين صورتي؟

ـ تلفت.

ـ آه!

ـ لا تخف سألتقط لك واحدة أخرى، لكن ليس الآن.

تناول مني الفرشاة وطأطأ يلمّع حذاءه.

ـ دعني ألمّعها لك، أستاذ.

ـ لا داعي، شكرًا يا بطل.

ثم أخرج من جيبه خمسة فلوس: ـ تفضل.

شعرت بالخجل لتواضع الرجل.

ـ كلا، على حسابي، أستاذ.

ـ لست أستاذًا، خذ يا بني، الله يرضى عليك.

تناولت الفلوس ولم أرحل؛ بقيت واقفًا أحدق في الصور، وصاحب الكاميرا يحدق بي.

كان سهلًا على الرائي اكتشاف أن هذا الرجل مغرم بالمدينة وأزقتها، إذ لم يدع زقاقًا إلا وطافه بعدسته. بل يمكن القول بأن بغداد برمتها كانت معلقة خلف هذه الواجهة الزجاجية المستطيلة التي لا يتجاوز ارتفاعها ثلاثة أمتار.

يا لله، كم كنت غبيًا حين ظننته شخصًا مدّعيًا! وكم كنت ساذجًا حين حسبت الفن تصفيفة شعر وثيابًا أنيقة!

قال لي وهو يشعل سيجارة ويحمي لهب القداحة من الهواء بيده: ـ إي، ما رأيك بالصور، كمال أفندي؟

أجبته:

ـ جميلة.

ومن حيث لا أشعر عقّبت:

ـ أنا كنت مصورًا.

تفاجأ الرجل وأرسل نحوي نظرة اهتمام وكأنه صدّق ما تفوهت به من ترهات، أو تظاهر بذلك.

ـ وهل ما زلت تجيد التصوير، أم نسيته؟

أجبته بثقة مبالغ بها:

ـ مستحيل أنسى التصوير.

وبخطوة مفاجئة هيّأ الكاميرا ودفع بها نحوي: ـ هاك، خذ لي صورة إذن، أرني شطارتك.

«يا للورطة! متى كنتَ مصورًا أيها الأحمق؟! لماذا ترمي بنفسك في موقف محرج كهذا؟!» ـ جلدت ذاتي، إلا أن لا حل لدي سوى تنفيذ طلبه والتظاهر بمعرفة التصوير، فأنزلت صندوق التلميع من على كتفي، وضعته جانبًا، وتناولت الكاميرا. حينها شرع قلبي بالخفقان، وبلا تركيز صوبت العدسة نحو الرجل وكبست على الزر. أعدتها إليه بعد ذاك وهممت بالرحيل هربًا من النتائج، التي لا شك ستكون مخزية. بيد أنه ما زال مصرًا على مفاجأتي، إذ قال: ـ ستعمل عندي إن كانت صورة جيدة.

ـ شكرًا أستاذ.

ـ لا تقل أستاذ، لا تقل أستاذ.

ـ ماذا أقول إذن؟

ـ قل: يا عم.

ـ حسنًا يا عم.

ـ هيا اذهب الآن، وتعال غدًا لتعرف النتائج.

أراهن بسترتي، التي لا أملك سواها، على أنها ستكون صورة سيئة.

غادرت وعدت في الغد لأقف بخجل على باب المصور. ارتسمت فوق عينيه الضيقتين ابتسامة ملفتة، وأجاب وهو يومئ لي بالدخول: ـ أهلًا بحضرة المصور العظيم كمال أفندي.. تعال هنا، تعال.

دخلت وكان الأستوديو بسيطًا من الداخل؛ مكتب ومصباح وكرسي هزيل من خشب الصاج وجدران مورّقة بالجرائد.. هذا كل شيء. أخرج الرجل الصورة من الدرج ودفعها نحوي: «هاك، تفضل». تناولتها من يده ونظرت، فتعرّقت خجلًا. لم يكن هناك سوى خصلة شعر

وحائط! كانت صورة بائسة بجدارة. طأطأت رأسي واعتذرت بأني لست معتادًا على هذا النوع من الكاميرات.

رد مازحًا:

ـ آه، وما نوع الكاميرا التي كان جنابكم يستخدمها؟

قلت:

ـ كاميرا من ورق.

لم يفهم الرجل ما كنت أعنيه، وراح يهرش ذقنه.

ـ كاميرا من ورق؟!

ـ نعم، كاميرا صنعتها من ورق الدفاتر.

وما إن انتهيت من الجملة، حتى فلتت منه ضحكة عالية: ـ هاهاها..

لكنه تدارك عندما رأى الخجل يبلل جبهتي، ليقول واضعًا يده على كتفي: ـ لا عليك؛ سيأتي اليوم الذي تقتني فيه كاميرا حقيقية وتمارس التصوير.. أنت بطل.

يا لها من كلمة ساحرة؛ أنت بطل!

لكن، لمَ يحدق بي هكذا؟!

ودّعته ومضيت بهمّة عجيبة أدور في الطرقات مردداً: «لمّعْ.. لمّعْ»..

وفي المساء استيقظ الحلم القديم.

الفصل الثاني عشر

منزل الأشباح

عندما كنت طفلًا، كنت أستلقي على الأرض وأرصد قرص الشمس بواسطة الكرات الزجاجية الملونة. كانت حزمة الضوء، وهي تخترق الزجاج وتنفلق إلى ألوان الطيف، تسحرني. ومع أني لم أقتن حينها سوى كاميرا من ورق، إلا أن التلصص على الكون من خلال فتحة صغيرة فكرة تغري الإنس والجن على حد سواء.

لقد شعرت، وأنا أفترش الأرض خلف عربة الشاي تلك، بأن أصص الأمل لم تمت بعد وبأن باب الأحلام ما زال مواربًا. عدت في الصباح إلى ستوديو خليل، ووقفت بعض الدقائق أمام الرجل الأنيس الذي صار يناديني مازحًا بمصور الورق. ثم أعدت الكرّة في اليوم الذي يليه، وما يليه، حتى صار المرور به وتلميع حذائه المثنيّ، والنظر بشغف لما يعرضه من جديد خلف الزجاج عادة يومية. سألني ذات مرة عن محل سكني، فصارحته بالحقيقة ولم أتكلف الكذب: ـ أسكن في الشورجة.

ـ أين بالضبط؟

ـ خلف عربة الشاي على باب مطعم السيد.

ـ عربة الشاي؟!

ـ أجل، منزلي.

لا أدري لمَ شعرت حينها بأن عليه أن يعرف أكثر من محل سكناي! لكني رغم ذلك كبست على زر الصمت مفضلًا عدم البوح بما جرى. لم أكن أعلم بأن البوح كلما تعذر، تضاعف

الوجع. كرر السؤال في اليوم التالي، وكأنه لم يصدق قصة العربة، ثم راح يستفزني بكلامه عن المنازل ودفء الحكايات بين جدرانها. لقد صنع لي فخًا، فسقطت فيه ومضيت أروي قصتي. كنت بين سطر وسطر أضع سطرًا يقول بأني لم أولد على ناصية الطريق، بل في منزل بجدران وسقف. صحيح أنها جدران فقيرة مطلية بدهان العوز، وصحيح أن ربها مخلوق من قسوة، إلا أنها في النهاية تشكل ما يدعى بالمنزل. أطلق الرجل مع الدخان آهة وسرت على ملامح وجهه علامات التأثر، سيما حين وصلت إلى فصل مولانا النذل وقطيعه. ثم وبعدما أطفأ سيجارته، ضيّق عينيه ليقول إنه يعرف نزلًا رخيصًا ينام فيه العمال القادمون من المدن البعيدة والعتّالون والباعة المتجولون.

ـ لكني لا أملك نقودًا تكفي لدفع الأجر!

ـ لا عليك، سأدفع بدلًا عنك.

ـ شكرًا عم، أنا لست متسولًا.

نظر في عيني بفخر وقال:

ـ حسنًا، كما تحب يا بطل، على أية حال فالأجر قليل.

ـ كم؟

ـ فلسان لليلة الواحدة.

ـ هل يعقل هذا؟

ـ أجل، يعقل ونص.

كان يمكنني تصور شكل النزل، ورغم ذلك قبلت الفكرة مرددًا: ـ حسنًا، أين يقع؟

ـ قريب من هنا، مر لي آخر النهار وسوف أصحبك إليه.. الآن لدي عمل.

ـ حسنًا.

عدت إليه في آخر النهار وذهبنا إلى حيث أشار. كان نزلًا هرمًا يقع على مقربة من الباب الشرقي، مؤلفًا من طابقين، في كل طابق ست غرف متقابلة. تتوسط الفناء الداخلي المكشوف أريكة خشبية، وفي الزاوية بضعة أصص ميتة. دلفنا هناك ومضينا نحو حجرة بنافذة مشرعة يطل من خلفها رجل كهل، متهدل الوجه، يطلي حاجبيه الكثيفين بصبغة سوداء رخيصة. كان جالسًا وعينه في الفناء، بينما القطط تحيط به من كل جانب، وبعضها يرتقي إلى حضنه ويهبط بانسياب عجيب. جفلت لمشهد العجوز والقطط، وارتجف فمي. تنبه العم خليل إلى حالتي، فأمسك بيدي وعصرها، ثم تحدث مع صاحب النزل وأوصاه بي خيرًا قبل أن يغادر. حينذاك بقيت وحدي في مواجهة العجوز غريب الأطوار ذاك، الذي بدا مسطولًا ومخدرًا. نظر لي في النهاية وأشار بإصبعه نحو الأسفل دون توضيح، وبعدما أيقن بأن من يقف أمامه صبي ثقيل الفهم، تنحنح قائلًا: ـ الغرف مقبطة (8).. هل تنام في السرداب؟

آه، كم تمنيت لو أنه اكتفى بالإشارة ولم ينطق! هذا ليس لأني أتعفف عن النوم في السراديب، إطلاقًا، بل لأن صوته يشبه زئير أسد متقاعد رفعت لوزتاه وتساقطت أسنانه.

لكنْ، ورغم دخان الارتياب الذي ملأ صدري، قبلت بالعرض وتبعت العجوز نحو سرداب البضائع في الأسفل. سار أمامي ببطء شديد حاملًا بيده فانوسًا يضيء به السلّم الحجري المتصدع. وبعد ثلاث سنوات ضوئية وصلنا، لأتفاجأ بسرداب مظلم ورطب، تصطف فيه بضعة براميل خشبية. ناولني لحافًا ووسادة، وأشار بإصبعه نحو بساط صوفي مركون في الزاوية، ثم غادر وترك لي الفانوس على السلم. أخفضت ضياءه بعدما حملته ووضعته فوق البرميل المجاور، ثم ارتميت بجسدي على الفراش الذي لم يكن بأفضل حال من فراش كلب مقيم في مزبلة كونية. كان الضياء رغم خفوته كافيًا لتتبع خرائط العفن المنتشرة على الجدار. لم أحتمل ذلك المنظر المقرف فوق العادة، انقلبت على جنبي الأيسر واضعًا يدي

تحت خدي، متخذًا وضعًا جنينيًا اعتدت عليه منذ طفولتي. وبعد لحظات ممزوجة بالخوف والعفن غفوت. لكن سحابة دخان على هيئة شبح أيقظتني، فغادرت الفراش فزعًا. هرعت نحو الأعلى علّني أجد تفسيرًا لدى صاحب النزل. حمدًا لله، أنه ما زال مستيقظًا. اقتربت منه كثيرًا، كانت عيناه نصف مغمضتين، وفوق جفنيه المتهدلين تسري أوردة حمراء وزرقاء بارزة. أخبرته بوجود شبح في السرداب، فأغمض وطرد الهواء بيده كمن يقول: «اغرب عن وجهي». خاب فيه أملي وعدت أدراجي، ليعود الشبح متراقصًا فوقي من جديد. كنت متكورًا في الفراش أنظر إليه بلا حول ولا قوة. وفي الليلة التالية ظهر شبح آخر يداعب الهواء ويضحك، ثم رابع يغني، ثم خامس.. وهكذا تكررت زيارة أشباح الدخان العجيبة حتى ألفتها وتوقفت عن الصعود والاستنجاد بالعجوز المسطول.

لقد اكتشفت مع الأيام بأنها أشباح أليفة، لا عمل لها سوى السياحة في جوف السرداب. داعبتها ذات ليلة بيدي فانحسرت وغارت في أحد البراميل الخشبية. نهضت من الفراش وتبعتها. حاولت فتح غطاء البرميل لمعرفة ما تفعل، لكنه لم ينفتح. «لن تفلتي مني». ـ قلت في سري وأنا أرفع من ضياء الفانوس علّني أبصر ما يعينني على إنجاز المهمة. عثرت في النهاية على ذراع حديدية كانت مطروحة في الزاوية. حشرتها في طرف الغطاء ورفعتها بقوة لينفتح أخيرًا كاشفًا عن سائل تنبعث منه رائحة مسكرة! غطست فيه كفي ومررتها يمينًا وشمالًا بحثًا عن الأشباح التي يبدو أنها ذابت في السائل الغريب! أخرجت الكف المبللة بعدما يئست، ولعقت أصابعي. قاتلني الشيطان إن كنت قد ذقت سائلًا لذيذًا كهذا! فكرت بالعجوز ورمقت السلّم بغية الاطمئنان لعدم وجود الجواسيس، ثم اغترفت بيدي من البرميل وشربت. اغترفت مرة ثانية وثالثة وتاسعة.. حتى انتشيت. وفي الغد قصصت الحكاية على العم خليل، فضحك وحذرني من تكرار فعلتي وإلا غدوت أصغر مدمن نبيذ في بغداد.

ـ نبيذ؟! هل حقًا نبيذ؟؟

ـ أجل، نبيذ، إياك والاقتراب منه.

ـ لكني رأيت أشباحًا تغطس فيه.

ضحك العم خليل قائلًا:

ـ إياك أن تقترب منه مرة ثانية وإلا تحولت شبحًا.

ورغم أن ما قاله محض مزاح لا أكثر، إلا أن فكرة التحول إلى شبح قد أغرتني وجعلتني مواظبًا على الرشف من براميل النبيذ تلك.

أريد أن أكون شبحًا، الأشباح لا تحتاج إلى طعام، ولا منازل ذات سقوف آمنة، كما لا تحتاج أبًا يمنحهم الأسماء ويجلدهم بالخيزرانة بغية التأديب.

كنت في بعض الليالي أشاهد العجوز، صاحب النزل، يهبط متبوعًا بقطة أو قطتين ليغترف النبيذ ويصعد به إلى جلّاسه في الإدارة. كانوا ثلاثة عجائز يشبهونه بالغباء والخدر، يجالسونه لاحتساء النبيذ واجترار الخس والكذب. إلا أن الخوف يعتريني كلما يكشف الرجل الغطاء عن وجه البراميل، إذ لن يتهم سواي فيما لو استشعر نقصان النبيذ. طويلًا فكرت في حل مثالي للمشكلة، وطلبت من الله أن يمنحني الذكاء ليوم واحد كحد أقصى، دون جدوى. في النهاية وسوس لي الشيطان مشكورًا: «اسمع يا فتى، كلما انخفض مستوى البراميل، أنزلْ سروالك وتبول فيها». وهكذا نجوت.

لكن واحدة من مساوئ الشيطان أنه لا يهب الحلول المثالية، بل غالبًا ما يورطنا ويغيب، لنجد أنفسنا في النهاية حيارى في منتصف الطريق. وهذا ما جرى معي، فقد فاحت رائحة البول المخلوط بالنبيذ، وتحول العجوز المسطول فجأة إلى قصّاب نشيط. كان يحمل ساطورًا ويركض خلفي في الزقاق مرددًا: «سأفلق رأسك يا ابن الساقطة». لأغادر منزل الأشباح طريدًا في ليلة ظلماء موحشة.

إلا أنها لم تكن أشد وحشة مما تلاها.

(8) ممتلئة

الفصل الثالث عشر

آسف يا محترم

كانت غرفة باردة تفوح من جدرانها رائحة المطهرات، ومن سقفها يتدلى مصباح يعشي البصر. لم أكن في حال يعين على الفهم بعد؛ ألم في الخاصرة وجفاف في الحلق وفقدان للمعنى. منظر المرأة بروبها الأبيض عند رأسي بلبلني وجعلني أردد بصوت مبحوح: ـ أين أنا؟

ـ الحمد لله على سلامتك، أنت في المستشفى.

ـ ماذا جرى؟

ـ اهدأ، أنت بخير.

ما أتذكره أن شخصًا ما، لا أعرفه، كان قد هاجمني قبل عدة أيام عند العربة. كائن أشعث نتن تفوح منه رائحة الكحول، تفاجأت به واقفًا فوقي. كانت ساقه الثقيلة تجثو فوق رقبتي، وفمه يطلق همهمة حيوانية. حاولت الإفلات، لكن دون جدوى، فالقبضة محكمة والأنفاس تتباطأ وتنحدر. عند ذاك، وقبل الدخول في الوقت بدل الضائع، اهتديت إلى فكرة القرابين، فمددت يدي بصعوبة بالغة وجذبت صندوق التلميع، قدمته له قربانًا لفك أسري، فهداه الله وابتسم. بيد أنه سرعان ما تراجع وغضب ليصفق القربان في الأرض. ورغم أني لم أفهم سر غضبه، انتهزت لحظة تداخل المشاعر لديه وأفلتّ من تحته. هربت باتجاه زقاق مظلم ينتهي بمنزل مهجور. دلفت هناك، وكان رصيد الأمل بالنجاة مرتفعًا، إذ ليس من العدل أن يعاف هذا المشرد السكير مدينة بأكملها وينشغل بالبحث عن فأر يختبئ في خرابة مظلمة. دفعت الباب الخشبي شبه المهشم ودخلت، ثم سرت بحذر وعيناي

تلوكان الظلام. جانبت الحائط وقطعت الأنفاس. تناهى إلى سمعي آنذاك صوت أقدام تسحق الطريق، يتبعها لهاث يلج الباب. دخل المشرد بلا حذر وكأنه مطمئن لجبن فريسته. أعاد تلك الهمهمات الحيوانية غير المفهومة، وسار خطوات في جوف المنزل. طوّقت أذني بكف يدي إمعانًا في التركيز، فعرفت حينها بأن الساقط يقف على جهة اليمين. رفعت قدمي على مهل وخطوت نحو الباب، لكنه التف حولي وباغتني بطعنة سكين في خاصرتي، ثم أردفها بطعنة ثانية ولاذ بالفرار. أطلقت خلفه صرخة مدوية: «آه! يا ابن الكلب». وسقطت.

هناك، على أرض الخرابة، وسط الحجارة والمسامير وبقايا الزجاج والخشب، توسدت الأرض غارقًا بدمي، لتخور قواي من بعد ويثقل جفن الحياة رويدًا رويدًا. سمعت، وأنا بتلك الحالة، نباحًا على أعتاب الخرابة، ورحت أعاتب الرب على جعلي وليمة للكلاب. لكن سوء الظن كحُسنه؛ كلاهما حماقة حين لا يكونان في محلهما. فقد كانت الكلاب تنبح تبرّمًا وأسفًا، بدليل أنها اقتربت بلطف وتحلقت حولي. كان واحد منها يعوي بانكسار وكأنه يقول: «آه يا ولدي!» ثم شرع بلعق خدي وأذني. مضغت وشل الريق الأخير، وهمست له بصوت خفيض لا يكاد يُسمع: «آسف يا محترم». اعتذرت لأني وصفت آدميًا ساقطًا بابن الكلب، ثم أغمضت. لا أدري كم ساعة أغمضت! إذ طال نومي، ولو أن الأمر بيدي لجعلته عمرًا بأكمله، إذ لا قيمة لصحوة يعكّرها أولاد الحرام.

عندما أفقت في تلك الغرفة الباردة والموحشة، كان ريقي ناشفًا ولساني كالخشب. طالبتني الممرضة بالهدوء وشرحت لي باقتضاب أني مصاب في خاصرتي، ثم سقتني الماء، وعيناها تجرحاني بنظرات العطف والشفقة. غير أني، وحالما اكتمل رصيد الصحوة، شعرت بوخز شديد في خاصرتي وفرشت لها بساط الشكوى، فما كان منها إلا أن تركتني وذهبت إلى مناداة الطبيب. جاء الأخير بخطوات متثاقلة، تصنع ابتسامة فائضة عن الحاجة وأخذ يقرأ في اللوح المعلق بذيل السرير. اقترب مني وصوّب مصباحًا صغيرًا في عينَي، ثم أطفأه وقال: ـ لا بأس، لا بأس.

ـ لكني موجوع، دكتور.

ـ هذا أمر طبيعي جدًا، أنت خارج من عملية كبرى.

ـ عملية كبرى؟! ماذا تعني؟

ـ رفعنا لك الكلية. اهدأ، ستتحسن. لقد نزفت دمًا كثيرًا وغبت عن الوعي.. اشكر ربك أنك عدت.

تخشب لساني من جديد وتكسرت الحروف على متنه. تأتأت قليلًا وخمدت مرددًا في سري: «شكرًا يا رب لأنك منحتني سببًا إضافيًا لشتم ساعة النحس التي غادرتُ فيها رحم أمي».

أردف الطبيب وهو يخرج القلم من جيب معطفه الأبيض الطويل، ويعود للكتابة على اللوح: ـ لقد أسعفناك بدون أن نعرف اسمك حتى، أعطني اسمك الكامل، وعنوان بيتكم أو رقم الهاتف إن وجد.. أي شيء.

آلمني السؤال أكثر مما فعلته السكين، وحاصرتني حيرة الجواب! هل يكفيه أن يعرف بأني صبي مشرد يتخذ من عربة الرصيف منزلًا؟

ـ اسمك، خلّصني.

ـ كمال.

ـ اسم الأب؟

ـ توما.

حك بالقلم فروة رأسه ولعق شفته السفلى، وواصل التحقيق: ـ أين بيتكم؟

ـ في باب الشيخ، ولكن..

ـ لكن ماذا؟

ـ أبي ميت.

ـ آه! حسنًا، أعطني اسم أمك.

ـ ميتة.

ـ أخوك الكبير، عمك، خالك، وليّ أمرك.. عليّ إبلاغ أهلك.

ـ حسنًا، سجّل: خليل.

نظر الطبيب من فوق نظارته:

ـ خليل ماذا؟ أعطني الاسم الكامل.

فقلت:

ـ خليل المصور، في شارع الرشيد.

لعق شفته من جديد:

ـ ما صلة القرابة؟

أجبته متململًا:

ـ عمي، زوج عمتي، اسأل عنه هناك وستجده، أنا موجوع يا دكتور، والله موجوع، لا أستطيع الكلام.

ـ حسنًا، حسنًا، سنتصل به، حاول أن ترتاح الآن.

وجّه الممرضة لتضخ دواءً في كيس المحلول المغذّي المتصل بيدي، وغادر. وحين فتحت عينَي بعد نوم طويل، تفاجأت بالعم خليل جالسًا بالقرب مني على كرسي صغير بلا أذرع.

ـ الحمد على سلامتك بني.

ـ الله يسلمك عم.

كانت بين جفنيه دمعة عالقة، جعلتني أفكر في قصة هذا الرجل وحنوّه المفرط! بغداد ملأى بالمشردين وأطفال الشوارع.. لمَ أنا دون غيري؟!

قال إنه علم بنبأ هروبي من النزل، وإنه ذهب للبحث عني قرب مطعم السيد ولم يجدني، ولو تأخرت إدارة المشفى عن الاتصال به، لذهب إلى الشرطة وسجل بلاغ اختفاء. ثم أزال الدمعة بطرف إبهامه، وردد بما يتوق لسماعه كل مشرد في الكون: ـ لن تنام في الشارع بعد الآن.

رددها بصوت واثق، وهو يغمض عينيه ويهز برأسه لقطع الطريق أمام أي محاولة للاعتراض.. ستأتي معي، يعني ستأتي معي.

واصل العم خليل عيادتي في المشفى، وكان في كل مرة يأتي محملًا بالطعام والفاكهة، حتى تحسنت وتحصلت على الإذن بالمغادرة. خرجت في ذلك النهار مستندًا إلى ذراعه، مودعًا حياة الأرصفة والخوف والتشرد. كان يمكنني الإدلاء بما يجول في خاطري من رغبة لمعرفة سر حنوّه، لكني آثرت الصمت، فوجود كائنات رحيمة على وجه الأرض ما زال احتمالًا قائمًا. أوقف لنا سيارة أجرة، أقلّتنا إلى محلة باب الشيخ. هناك، في الشارع الرئيس، عند الباب الخشبي العتيق، قال للسائق: ـ أنزلنا هنا لو سمحت.

ـ على راسي.

كان منزلًا صغيرًا من تلك المنازل المتساندة على بعضها، تقف خلف بابه امرأة كريمة تردد بقلبها قبل لسانها: «هلا».

ـ هذا كمال الذي أخبرتكِ عنه.

قال وأمال برأسه نحوي:

ـ سلّم على خالتك، زوجتي.

قلت لها بصوت خجول:

ـ شلونِك خالِي؟

لكنها لم تطل الوقوف، بل قفزت لاحتضاني مرددة: ـ هلا يا عيون خالتك.

ثم أردفت وهي تتفرس ملامحي:

ـ ما أحلاه، يحكي مصلاوي!

أغلقت الباب وسارت خلفنا، انتظرت حتى أدخلني العم خليل إلى الصالة وأجلسني على الأريكة الخشبية المغلفة بالإسفنج والقماش، لتسنّدني ببضع وسادات وكأنها تخشى عليّ من السقوط. دلفت بعدئذ إلى المطبخ من أجل إعداد الطعام، ثم سمعتها تنادي وراء الزوج الذي غادر المنزل لأمر لم يفصح عنه: ـ لا تتأخر، خليل.

ـ أمرك خاتون.

أما أنا، فبقيت وحيدًا أحدق في تلك الوجوه المطلة من الحائط ذي الطلاء الأصفر الباهت. كانت صورًا طاعنة في السن إلا أن ما فيها بدا وكأنه قصة حياة معلقة على جدار، وحضور رمزي لمن غاب أو رحل. لقد داخلني شعور، وأنا أنظر في الصور، بأن أرواحًا تطوف حول

المكان وتستقر بين تلك البراويز المعلقة، فتساءلت مع نفسي: هل تعلِق الأرواح بصور أصحابها؟

أم أنها تأتي وقت الاشتياق لتذرف الدموع وترحل؟

حقًا، أين ترحل الأرواح؟ وفي أي شق تختبئ؟

لكن جلبة أحدثها العم خليل عند الباب كانت قد هدمت قلاع التفكير وأعادتني لما كنت عليه. دخل حاملًا كيس دواء وخبزًا وفاكهة وزجاجة فيها شراب لونه أحمر قاتم. قال وهو ينقل بصره بيني وبين صور الحائط: ـ تاريخ العائلة.. يقولون بأن الصور العائلية تاريخ معلق على الحائط، وهذا تاريخ عائلتي؛ الوالد والوالدة والأخوة.

ثم أردف، وقد تغيرت نبرة صوته: ـ جميعهم رحلوا.

قلت له بخمول بائن:

ـ البركة بعمرك يا عم.

تجشأ للخلاص من قشة الأسى العالقة في حنجرته.

ـ الله يبارك بيك، بني.

ثم رفع الزجاجة وابتسم.

ـ دعك من الصور الآن، لقد جلبت لك شربت زبيب.. أعظم شراب لتعويض الدم.

ودخلت الزوجة بصينية الطعام لتقول: ـ وهذي الدولمة جاهزة.

ـ دولمة وزبيب.. يستاهل كيمو.

ها أنا ذا أمنَح أخيرًا ما يطلقون عليه الدلال والرحمة!

لكن؛

هل كان عليّ فقدان كليتي ليشعر بي أحدهم؟!

ألم أصرخ بأني بلا مأوى؟!

وأني جائع؟!

وأني بردان؟!

لماذا يمارس العالم لعبة الصمم ريثما تقع الفاجعة؟!

آلمني جرح خاصرتي وتوقفت عن التفكير. ثم جاء المساء ليسنّدني الرجل ويسير بي في دهليز صغير ينتهي بحجرة مغلقة. يدير مقبض الباب وندخل. الجدران مشبعة برائحة البخور، وخزانة الثياب صغيرة ولامعة، أما السرير فمرتّب وتطل من فوقه صورة معلّمة بشريط أسود. كانت صورة صبي في العاشرة تقريبًا، لا أدري إلى أي حد يشبهني، لكن تصرفات الزوجين تشي بأنهما كلما نظرا لي تذكراه.

كسر العم خليل قارورة الصمت قائلًا: ـ حجرة فارس.

وأضاف:

ـ باردة في الصيف دافئة في الشتاء، أظنك سترتاح فيها.

ثم أعانني على الاستلقاء فوق السرير وهمّ بالخروج.

ـ هل هو ابنك؟

ـ أجل، ابني الوحيد، الذي لم يرزقني الله غيره.

ـ كيف مات؟

ـ غرق في دجلة.

تكسر صوته في حنجرته وسارع للرحيل.

ـ حسنًا، بني، حاول أن تنام الآن، تصبح على خير.

ـ وأنت من أهل الخير.

طويت جسدي واختبأت تحت الشرشف المعفّر برائحة الموت، وفي رأسي يدور سؤال؛ ما بال دجلة والصغار؟! هل تحب الاحتفاظ بهم إلى هذا الحد؟! أم هو الخوف عليهم من أن تلوث الأيام براءتهم؟! حاولت اجتياز عتبة التفكير علّني أتعلق بأذيال النوم ولو قليلًا، لكن دون جدوى، فأنا لم أتخلص بعد من طيف ريمون الذي ما فتئ يؤرقني، وهأنذا أجاور طيف غريق آخر! أليس هذا كثيرًا يا رب؟! احتضنت خاصرتي وبقيت مستيقظًا حتى قرقعة الباب ودخول العم خليل في الصباح.

قال وهو ينظر لي:

ـ ما بهما عيناك؟ ألم تنم جيدًا؟

ـ بلى، نمت.

أعانني على القيام وهو يردد:

ـ لقد جهزوا لك إفطارًا يشتهيه الملوك.

ثم أوصلني إلى الحمّام وظل منتظرًا خلف الباب.

كنت أشعر بدوار خفيف ونقاط سوداء تسبح تحت أجفاني. تأخرت قليلًا، فنادى: ـ كيمو، كيمو، تحتاج مساعدة؟

أجبت محاولًا التماسك:

ـ كلا!

انتهيت ووقفت أمام المرآة أتأمل بشرتي الذابلة والهالتين السوداوين حول عينَي. شطفت وجهي بالماء وغسلت فمي، وخرجت متكئًا على الحائط، فسارع للإمساك بي حين رآني بتلك الحال.

ـ اسم الله اسم الله، ما بك؟

ـ دوار.

ـ بسيطة، سيذهب عندما تأكل.

أمسك بزندي وأوصلني إلى الأريكة. جاءت الزوجة بصينية طعام فيها بيض مقلي وجبنة مضفورة ومربى تين وصمون ساخن. ثم أحضرت إبريق الشاي المصنوع من الخزف الأزرق، وعلبة السكر الشبيهة بفوانيس رمضان. تناولنا الإفطار معًا، وأعطاني العم الدواء قبل أن يخرج إلى عمله مشددًا على الزوجة بوجوب مداراتي.

تكرر الأمر وأمضيت بضعة أيام من النعيم، الذي لم يكن ينغصه آنذاك سوى حجرة الفقيد، إذ كلما استلقيت على السرير وأغمضت، شعرت بأنها تمتلئ بالماء حد الغرق. حتى أني ذات ليلة أفقت ملوّحًا بيدي طلبًا للنجدة وسقطت على الأرض. لذا قررت الرحيل.

بيني وبينكم، لم يكن القرار بحد ذاته صعبًا، فمن هجر منازل الصبا هانت عليه الأمكنة، لكن البوح بالأسباب معضلتي، إذ ليس من العدل إخبار الزوجين الكريمين بأن طيف ابنهما يحوم حولي وماء حجرته يغرقني. تريثت ليلة أخرى، ثم غزلت من الكذب الأبيض قصة

رويتها على المائدة. أخبرتهما بأن لي عمًا يعيش في قرية على أطراف بغداد، وأني اشتقت إليه رغم خلافه الكبير مع أبي، وأود الذهاب عنده. إلا أن نبرتي كانت فاضحة، وعند أول سؤال انفرط غزل الكذب وكشف أمري. لقد سألني صاحب المنزل عن عنوان عمي، فترددت وارتجف فمي، ليعقّب الرجل: ـ هل ضايقناك في شيء، بني؟

ـ بالعكس يا عم.

ـ إذن، لمَ تريد تركنا؟ فكر بجرحك على الأقل، ما زال رطبًا!

كررت الزوجة الكلام ذاته وألحّت عليّ بالبقاء أمام إصرار كبير مني على الرحيل. وبعدما عجزت عن إقناعي، قال الزوج: ـ حسنًا، لديّ حل.

ـ ما هو؟

ـ تعال معي وسوف تعرف.

الفصل الرابع عشر

رائحة الصور

هذا القن دافئ وكأنه يحتفظ بسر الحياة!

سرنا وكان الطريق محفوفًا بالترقب، إذ لم أكن أعلم بعد ما الغاية من الذهاب إلى الأستوديو، كما لم أكن أعلم بأن له طابقًا علويًا. دخل العم خليل أمامي مرددًا: «تعال، كيمو، تعال». ثم صعد سلمًا خشبيًا وهو يحثني على المواصلة. تبعته وتفاجأت بوجود شقة في الأعلى، شقة صغيرة تشتمل على غرفة نوم بسرير حديدي مفرد، وغرفة أخرى مغلقة، قال إنها لتحميض الأفلام وطباعة الصور، وحمّام، ومطبخ أضيق من علبة الكبريت. كان هنالك تل من الكتب قرب السرير، وثلاجة صغيرة في الزاوية، كما أن بابًا آخر للشقة كان ينفتح على سلّم خارجي.

ـ ها، ما رأيك؟ قال وهو يشير بيده في الفضاء.

ـ رأيي بماذا؟

ـ بالسكن هنا طبعًا، ما دمت لا تفضل العيش معنا.

نزلنا إلى جوف الأستوديو وجلس خلف المكتب.

ـ خير لك من الشارع على أية حال، بشرط ألا تفتح الباب لأي شخص سواي، قال وأضاف مازحًا: وألا تبول في محاليل الصور، كما فعلت في منزل الأشباح.

طأطأت، وأنا أستمع إلى العرض، كمن بلبلته الحيرة، فتعثّر ناظري بصورة محشورة تحت زجاج المنضدة. كانت لصبي يقف قرب عربة شاي وعلى صدره يعلق صندوق تلميع الأحذية. رفعت رأسي وحدقت بالعم خليل، فابتسم معلّقًا: ـ كانت كذبة بيضاء.

ثم أردف:

ـ دعنا من صورتك الآن، ماذا قلت؟

ماذا أقول؟ العرض سخيّ ولا يُرد، لكن رغبة بالرفض كانت قد جالت في خاطري حينها. فأنا باختصار لا أريد أن أستخدَم كتذكار لابن مات قبل أوانه، كما لا أريد أن أكون خادمًا من جديد. أريد العودة إلى الشارع ومزاولة مهنتي التي اعتدتها؛ ملمّع أحذية. فتلميع الأحذية وإن كان عملًا مذلًا يرفع فيه جميع أفراد الشعب الحذاء بوجهك، إلا أنه خال من المفاجآت، كما لا يقدر شخص في هذا الكون على التحكم بمصيرك. صندوق وفرشاة وأقدام تسيح بك حيث عتبات الرزق.. لمَ تجعل نفسك خادمًا إذن؟!

تنهد الرجل ويده تفرك عينيه. أنزلهما ونظر لي من خلف حاجبيه الكثيفين مرددًا: ـ يا غبي، لماذا تطيل التفكير؟ أنت هنا بأمان، هل تريد العودة إلى الشارع؟!

لم تسعفني الحجة على الكلام، وتركته يواصل.

ـ سيقتلونك هذه المرة ولن ألحق عليك.

قلت أخيرًا بصوت منخفض:

ـ سأحاول البحث عن نزل رخيص.

زعق:

ـ لن تجد.. لن تجد..

ثم زفر بملل وكأنه سلّم أمره لحماقتي. أشعل سيجارة ومضى ينفخ الدخان من سكوت. وما هي إلا لحظات، حتى التمعت عيناه كمن وجد حلًا.

ـ حسنًا، وإذا قلت لك بأني أحتاجك معي، هل تتركني؟

ـ تحتاجني أنا؟!

ـ أجل، أحتاجك أنت.

ـ سامحك الله يا عم، أنا لا أجيد سوى تلميع الأحذية.

ـ كلا، بل تجيد سواها، هل نسيت بأنك كنت مصورًا يومًا ما؟

ثم عقّب وهو يبتسم:

ـ صحيح أن كاميرتك من ورق، لكنك ستتعلم ههنا التصوير على أصوله، وتصبح ذات يوم مصورًا ذا شأن.. ها، ماذا قلت؟

في الواقع، أنا وإن كنت لا أرغب بأن أكون تذكار موتى، إلا أنها ليست مهنة مخلة بالشرف على أية حال. رجل يرى ابنه حين يراني، أين المشكلة؟ أما العمالة تحت يد الآخرين فلا تستوجب الذلة على الدوام. ليس كل الناس على شاكلة مولانا الخسيس. العم خليل شخص طيب بدون فلاتر، فلا مسبحة في يده ولا تمائم تسري على شفتيه، كما أنه لا يجيد اللف والدوران. حمدًا لله أني لم أرتكب حماقة الرفض، سيما وأن التشرد عمل شاق في هذه المدينة. جلست على الكرسي النحيل وكأني أستريح لجذب أنفاسي من رحلة مضنية، وقررت العدول عن فكرة الرحيل.

أتذكر بأني حدثت نفسي حينها، قبل النطق بالجواب النهائي: «أيها الأحمق لقد وعدك الرجل بتعلم التصوير، ماذا تريد أكثر من ذلك؟ امكث هنا ولا تجحد، اعمل لدى صاحب الأستوديو، اجلب له الشاي من المقهى، اكنس له الأرض، رش عتبة بابه بالماء وتقبل

سخريته بصدر رحب. أما وإن داهمك الشعور بالذل والمهانة وسُحقت كرامتك بعض الشيء، فلا بأس بالصبر والتغاضي، ومص حجر السعادة.. اقبل يا كمال، فلعل الله خلقك لتكون مصورًا، لا ملمّع أحذية ولا عتّالًا ولا حتى ابن كلب».

ـ حسنًا يا عم سأبقى، أجبته وبقيت.

كانت بغداد يومذاك صاخبة؛ تتزاحم فيها الأسواق والحانات ودور العرض وخشبات المسارح، ويقصدها السيّاح والمصطافون وطالبو العلم. وكان الدخول إلى ستوديوهات التصوير والجلوس أمام الكاميرا بأناقة ووقار لا يقل شأنًا عن دخول صالات السينما. كان الزبائن يقدّرون ذلك الإمضاء الصغير الذي يضعه المصور أسفل صورهم، كما يمنحون الصور العائلية اهتمامًا خاصًا. كم مرة امتلأت الصالة بعطر الحبيبات! وكم مرة أرسلني العم خليل بتلك الصور إلى سوق النجارين من أجل تأطيرها ببراويز تبرز جمالها. كان يحرص على تأطير الصور، ويقول بأن الفرق بين الصورة العارية والصورة المؤطرة كالفرق بين الرجل الأصلع والرجل المشعر. لم يكن يعلم بأن الأصلع سيغدو ذات يوم سيد الوسامة، وأن خبراء الخصوبة سيقرون له بالتفوق على أقرانه.

كنت أحرص على حمل تلك الصور بحذر لئلا تسقط وتنكسر، مما يوفر لي وقتًا للنظر إلى ملصقات الأفلام المرسومة على القماش والمعلقة على واجهات دور العرض. أما الطريق بين الأستوديو والمنزل، والذي أقطعه كل يوم وقت الظهيرة لجلب السفرطاس، فكان مليئًا بالعجائب إلى حد أني لا أتذكر يومًا عدت فيه دون تأخير. مقاه شعبية ذات منابر خصصت لحكواتية الغرام، حمّامات للرجال تنقلب إلى حمّامات نساء يومًا في الأسبوع، جوقات عازفين وضاربي طبول، مواكب دينية وتشابيه تحاكي قصة عاشوراء.. كنت أتوقف عندها حاملًا الطبقات النحاسية المملوءة بالرز والمرق، من أجل الفرجة والتسلية. صحيح أن كلمات التوبيخ كانت تنتظرني على باب الأستوديو، إلا أنها على أية حال ليست من ذلك النوع الذي يترك أثرًا في جدران الكرامة، فالعم خليل لا يجيد إهانة نملة على الطريق. كان يكتفي بـ: «لماذا تأخرت يا حمار؟» ثم يبتسم وتغور عيناه، فتطوى الصفحة.

مع الأيام تعلمت الإمساك بالكاميرا والكبس على البالون بشكل صحيح. ثم شيئًا فشيئًا صرت قادرًا على التصوير. لكن هذا لم يكن كافيًا، فالأحمق الذي يجازف في الجلوس أمام كاميرا يحملها مراهق، لم يولد بعد حينها. لا أحد يثق بقدراتي رغم بلوغي الخامسة عشرة. لهذه الأسباب رحت أستعين بمجانين وظرفاء شارع الرشيد ممن لا تعنيهم نتائج الصور بشيء. أفعل ذلك مستغلًا غياب العم لتأدية بعض الواجبات الاجتماعية، أو تزجية الوقت في المقاهي، وفي كل مرة أجابه بالرفض. ما زلت أتذكر أولى تلك الصور، كانت لمجنون يلقب نفسه بمصارع بغداد؛ رجل أدرد، يدّعي أنه تصارع في المنام مع عفريت أراد أن يحرق بغداد فغلبه، وعندما أفاق، تفاجأ بفكه خاليًا من الأسنان.

ـ أين ذهبت أسنانك يا هذا؟

ـ خسرتها لأجلكم يا سفلة.

هذه الحكاية يرويها ألف مرة في اليوم الواحد، ويختمها كل مرة بضحكة تشبه فحيح الثعابين. كان إذا ضحك رأينا أمعاءه الغليظة. مرّ في ذلك اليوم رافعًا يده ليحيي العم خليل، فرددت التحية.

دنا وصار على الباب:

ـ أين عمّك؟

أجبته:

ـ في المقهى.

دفع بوزه وأطلق عفطة طويلة في الهواء وقال: ـ بلّغه تحياتي.

ثم ضحك ضحكته الشهيرة تلك ومضى.

ناديت خلفه متوسلًا إياه الدخول إلى الصالة والجلوس أمام الكاميرا، فاشترط عليّ من أجل ذلك شراء السميط والشاي. وافقت على الفور واشتريت له ما أراد وانتظرته حتى انتهى ولعق أصابعه. جلس أخيرًا أمام الكاميرا مانحًا إياي شرف تصويره، وكان فاغرًا فمه، شاهرًا إصبعه الأوسط بوجه الحياة. عرجت إلى الأعلى، طبعت الصورة وأخفيتها عن العم خليل خشية سخطه. لكن المفاجئ في الأمر أنه حين عثر عليها، ربّت على كتفي قائلًا: ـ صورة عظيمة.

ـ هل تجاملني يا عم؟

ـ لا مجاملات في الفن، بُني.. من يجاملك يريد القضاء عليك.

طبع منها نسخة كبيرة، وعلقها خلف الزجاج. لم تنته المفاجآت بذلك، بل امتدت حتى اليوم التالي، إذ دخل في الثامنة صباحًا يحمل بيده كاميرا أخرى، غير تلك التي لا ينزلها من على صدره. كانت كاميرته من نوع كييف ومغلفة بالجلد البني، أما هذه فعارية وتشبه المكعب الأسود، وعدستها مزدوجة.

دفعها نحوي مرددًا:

ـ روليفليكس.

ـ أهلًا وسهلًا، وأنا كيمو.

ـ لا تتشاطر، خذها، التقط لي صورة.

تناولتها منه وكانت صغيرة ومميزة، لكني تحيرت في أمرها، إذ لا توجد فتحة للنظر كما كل الكاميرات.

ـ من فوق يا غبي.

ـ آه، شكرًا.

فتحتها من الأعلى ونظرت بشكل عمودي، ثم التقطت للعم خليل صورة بدا فيها، لأسباب أجهلها، حزيناً. أعدتها إليه ولساني يتمتم: «يا لها من كاميرا عجيبة!»

رفض أخذها:

ـ أبقها عندك.. من اليوم صارت لك.

ـ لي أنا؟!

ـ أجل لك أنت، خذها واذهب في جولة تصوير، لكن إياك أن تبتعد.

شهقت لفرحتي، ولو تأخرت بضع لحظات لنبت لي جناحان وحلقت عاليًا. قبّلته ثم حملت الكاميرا وخرجت بها إلى الشارع. صورت كل ما رأته عيني، دون أن يعترض عليّ أحد. وهذه واحدة من حسنات روليفليكس، فقد كنت أنظر إلى الأسفل وأصوّر دون أن ألفت انتباه الآخرين. ذهبت بعد ذلك إلى دجلة. وقفت على كتف جسر الشهداء وصوبت العدسة نحو النهر. كنت بانتظار تلويحة مبللة يجود بها من تحت الماء أخي ريمون، تلويحة توقف الشعور بالذنب ولو بضع ساعات. قفزت في الأثناء سمكة بيضاء كالفضة. صوّرتها ودوّنت على ظهرها: «ريمون توما / بغداد 1969». شاهدني العم خليل أفعل ذلك، فاحتضن رأسي ولم تصدر منه نأمة. لكني سمعت قلبه يردد الـ آه بين نبضة ونبضة.

ـ هيا، دعك منها الآن، لدينا عمل.

ـ حاضر.

لم أكن أعمل بالمجان، فعلاوة على المسكن الدافئ وتعلم التصوير، هنالك أجر يومي يسد حاجتي من الطعام. كان أجرًا بسيطًا يكفي لتناول طبق كبّة لدى مطعم رخيص، أو بيضة مخلوطة بالطماطم يقليها في الزيت بائع يدفع عربة. في بعض الأحيان يجبرني العم خليل

على مشاركته الغداء، سيما حين تكون طبقات السفرطاس مدعومة بنصف دجاجة تجيد تحميرها الزوجة الكريمة. وفي أحيان أخرى أتسلل برفقة صبيّ المطبعة، صالح، نحو مطعم الأعمى. رجل بصير أحال منزله في محلة جديد حسن باشا إلى مطعم يقدم الباقلاء بالدهن، بثمن زهيد.

كان صالح، الصبي الذي يقاربني في العمر واللوعة، يعمل في مطبعة السلام. لم يكن طبّاعًا، بل عاملًا يزيّت المكائن وينظف المبنى ويقدّم الشاي لأستاذه، وعندما تسدل ستارة الليل، يفترش الأرض وينام. كان واحدًا من أولئك المشردين الذين منّ عليهم القدر بسقف وعمل. تعرفت عليه عندما جاء ذات يوم إلى العم خليل ليخبره بأن أستاذه قد أرسله لاستلام الصورة. دعاه العم إلى الجلوس ريثما يجهزها، فدخل الصبي ذو القامة القصيرة، وعين الفضول تحدق في الصور على الحائط. كانت هيئته مثيرة للضحك، وأنفه مكوّرًا كإست الضفادع، لكني شعرت بانجذاب غريب نحوه. لقد خالجني شك بأن الله قد خلق مني نسخة ثانية، ليس في الشكل، فقامتي متوسطة وأنفي سويّ، كما أني أمتلك لون عينين، تصفهما جانيت، لرفع المعنويات، بلون السماء، بل كان نسختي في حب الفضول والانبهار في الصور. تنامى ذلك الشعور حين اكتشفت بأنه يمارس عادة قص الصور من الجرائد ولصقها بالصمغ على ورق الدفاتر. تعاضدت فيما بعد صداقتنا وصرنا نتشارك الطعام في فترات الاستراحة. كان عارفًا بالمطاعم الفقيرة التي تقدم الطعام اللذيذ بسعر التراب، وتربطه بأصحابها علاقة ود، حتى أن الكثير منهم كان يناديه بالاسم؛ صالح الطبّاع.

بالنسبة لي، لم أدرج الطعام ذات يوم على قائمة اهتماماتي؛ يكفيني ألا يمزق الجوع معدتي، وألا يحرمني القدرة على مواصلة الحياة في حدها الأدنى. كنت أشعر بالرضا كلما وقفت خلف صندوق الضوء العجيب، وتمكنت من إيقاف الزمن ولو للحظة واحدة. فما الصور إلا لحظات يتخثر فيها الزمن وفواصل نعلّم بها صفحات الحياة. أما تل الكتب الجاثم قرب السرير، فسيثبت مع الأيام ما كان يكرره العم خليل على مسامعي: «القراءة حصانة ضد القلق». لقد حفظت تلك العبارة من فمه، ورحت أرددها كلما شرعت في قراءة

كتاب. لكني لم أكن أعلم حينها بأن بعض القلق لا تكفيه كل مكتبات العالم.. سيما ذلك المنوط بفقد الأحبة!

الفصل الخامس عشر

طائر النحس

ذات يوم غاب العم خليل ولم يأت إلى الأستوديو. تأخر، وهذا من شأنه أن يحدث بين حين وآخر. لكن الغراب كان قد نعق في الأثناء، ليشرّع الباب أمام جيش من القلق يحاصرني.

بين أضلاع المشربيات التي تعتلي العمارة فوقنا كان غراب يعشش منذ وقت طويل. غراب ملعون، كلما نعق، فاحت رائحة النحس المتبوعة بالمصائب. نعق ذاك اليوم ليدخلني في حمى الاضطراب والقلق. كنت واقفًا عند الباب أواصل قرض أظافري وأفكر بما ستؤوله حياتي من بعد العم خليل. خطرت لي حينها أفكار غريبة، كان أكثرها غرابة وأشدها بشاعة العودة إلى الشارع من جديد وخسارة كليتي الثانية. وما إن أقلقني هذا الخاطر حتى أغلقت الأستوديو وذهبت لتفقده في المنزل. إلا أن أحدًا لم يفتح لي، وهذا لا يثير الاستغراب بحد ذاته، فقد تكون الزوجة في السوق أو عند الجيران، لكن أين أجد زوجها المفقود؟! عدت مثقلًا بالحيرة، وجلست خلف المكتب ألوك شفتي. وفجأة رن جرس الهاتف.

ـ ألو، كمال!

آه، إنه العم خليل أخيرًا.

ـ عم خليل؟! هذا أنت؟!

ـ ألو.. كمال.. ألو..

الصوت بعيد ومتقطع.

ـ نعم، يا عم، أسمعك، قل لي أين أنت؟

كررت عليه السؤال سبعين مرة، فأخبرني بصعوبة أنه الآن في الناصرية، يحل ضيفًا على واحد من أصدقائه المصورين هناك، وسيخرجان غدًا قاصدين الأهوار من أجل التصوير.

ـ لن أتأخر، سأعود بعد غد.

ـ الأستوديو بأمانتك، كيمو.

ـ ألو.. ألو.. تسمعني؟

كررت عليه محاولًا رفع صوتي إلى أقصاه: ـ أسمعك، عم، أسمعك.

ـ أقول لك، الأستوديو بأمانتك. ألو.. ألو..

ـ أسمعك، حاضر، حاضر، لا تقلق.

ـ لا تنسَ الأبواب في الليل، اغلقها.

ـ طيب، طيب، لا تقلق.

ـ يللا، خذ بالك من نفسك، چاو.

ـ چاو.

أزيحت عاصفة القلق أخيرًا. وبعد ساعة صفاء، اعتذرت فيها للغراب بتمرة، قررت انتهاز غياب العم خليل، والقيام بحملة لتحسين وجه الأستوديو. اشتريت فرشاة وعلبة طلاء أبيض، وانتظرت حتى جف نهر السوق عن الجريان وبدأت بعض الدكاكين بالإغلاق. أغلقت الباب الزجاجي حينئذ وباشرت بالعمل؛ أنزلت الصور ومزقت ورق الجرائد من على الجدران، ثم قشطت آثار الصمغ منها ودهنتها بالطلاء. دلفت بعد ذلك إلى صالة التصوير،

لممت الكراكيب في الزاوية ورميتها، ونظفت الجدران من الأتربة. مسحت البلاطات بلاطة بلاطة بواسطة خرقة مبللة، ثم صعدت إلى غرفة التحميض والطباعة في الأعلى، كنستها وشددت خيطًا مقطوعًا كان مخصصًا لنشر الصور السالبة. ومن هناك مررت بالمطبخ، جذبت رغيف خبز من السلّة المغطاة بخرقة قماش، وهبطت إلى الأستوديو من جديد. جلست ألوك الخبز وأنظر إلى الجدران التي بدت لامعة ونظيفة. وبعد الانتهاء فتحت الدرج الأخير وأخرجت جريدة بائتة، طويتها وسرت بها نحو الزجاج، لمّعته من الداخل ثم من الخارج حتى بدا مشرقًا وصافيًا كشمس الربيع. مرّ أحدهم، ولا أدري من يكون، ألقى التحية وأكمل طريقه: ـ سلام عليكم، كيمو.

هل بت معروفًا إلى هذا الحد؟!

على أية حال، أجبته على طريقة العم خليل: ـ هلو ياب.

ثم سمعت صفارة حارس الليل تخترق الأزقة، فأغلقت الأستوديو وصعدت إلى الشقة من الباب الخارجي للبناء بعدما أقفلته هو الآخر بالمزلاج من الداخل.

عاد العم خليل بعد يومين وفي جعبته الكثير من الصور، والهدايا التي حمّلها إياه الفلاحون من هناك؛ علب من التمر المنقوع بالدبس والسمسم، مكعبات من الخرّيط (9) اللذيذ، جبن مضفور، سلّة بيض وخبز سميك ولذيذ أراه لأول مرة في حياتي، قال بأن اسمه خبز طابگ (10). وضع الزبلان على الأرض وأمرني بإيصالها إلى المنزل. أوصلتها دون تأخير وعدت للجلوس قبالته مثل طفل عاد أبوه من سفر طويل. كان ينظر في الجدران المطلية وكف الرضا تصفّق. ثم وجزاءً للتعب، قرر اصطحابي في جولة تصوير ما زالت تفاصيلها تنط في ذاكرتي.

في ذلك النهار بدت لي بغداد فتاة جامحة بفستان قصير، يحيطها الربيع من كل جانب وينثر الفراشات فوق ضفائرها. سرنا بالكاميرات نحو دجلة ووقفنا على الجسر نرمي فتات الخبز في الهواء. اجتمعت طيور النورس حولنا وراح العم خليل يصطاد بالعدسة خفق

أجنحتها، أما أنا فأداوم على تقليد ما يفعل. انحدر بنا مع النهر ليحيك ملامح المدينة من على الشاطئ. كان بين الحين والآخر يستدير نحوي ثم يرسم بيديه في الهواء ما يشبه الإطار ليحدد به الكادر الذي عليّ تصويره. صورت بعض المنائر والقباب والكنائس وكنت منبهرًا بالجدران والأبنية العتيقة.

سألني مباغتًا، وكنا نسير بالقرب من المدرسة المستنصرية: ـ هل تعرف ما هو المصور، كيمو؟

أجبته بلا تردد:

ـ كائن حي يحمل كاميرا.

ضحك لضحالتي، وقال:

ـ المصور شاهد عيان على حياة المدينة وخازن أمين لذكريات أهلها.

هززت رأسي موافقًا، فعلّق:

ـ هل تفهم ما أقول؟

ـ كلا.

ـ لماذا تهز رأسك إذن؟

ـ لأني واثق بأنك لا تقول كلامًا خاطئًا.

قهقه معقبًا:

ـ ملعون!

وأكملنا المسير.

لم أرحم الكاميرا من بعد، ولم أمنحها الوقت الكافي للراحة وجذب الأنفاس. كنت أملأ ساعة الراحة اليومية التي خصصت لي، بالطواف في الطرقات والأسواق القريبة، أراقب صخب المدينة وأصور كل ما يقع تحت عيني. وعندما أعود، أنتظر حتى الليل لطباعة بعض من تلك الصور. ذات مرة كنت في مطعم الأعمى برفقة صالح، وكانت الكاميرا تتدلى فوق صدري. شعرت بأن رفيقي يلوك الطعام، وعيناه ملتصقتان فيها، فانتظرت حتى فرغ، وجعلته يقلبها وينظر من خلال العدسة. التمعت عيناه بالفرح، وبدلًا من العودة إلى أعمالنا، سرنا في الشوارع والأزقة مزهوّين بأن معنا كاميرا. التقطنا صورًا هنا وهناك، وابتعدنا كثيرًا، حتى أوشك النهار على الأفول. انتبهنا فجأة للشمس التي فقدت وهج خيوطها وباتت قرصًا مجردًا يلوّح للمدينة بكف الوداع. لقد نسينا بأننا صبيان لدى سادة ينتظرون منا الخدمة. لطمنا وجوهنا، كعلامة عراقية على الفزع، وعدنا نسابق الريح. تفاجأت بالأستوديو مغلقًا، بينما أكمل صالح طريقه نحو المطبعة.

سألت صاحب المقهى الذي أخذ يتجهز للإغلاق: ـ هل رأيت العم خليل؟

ـ كان هنا قبل ساعة.

يا للورطة؛ نسختي من المفاتيح في درج المكتب!

ـ هل ترك لي شيئًا معك؟

ـ كلا.

انتظرت قليلًا ثم ذهبت إلى المنزل، غير أني عدت مكللًا بالفشل، إذ من جديد لا أحد يفتح. حينها كان النهار قد تلاشى تمامًا وهبط الظلام على شارع الرشيد، ولم يبق لي سوى الانتظار. جلست متكئًا على باب الأستوديو أردد في سري: «أين ذهبت يا عم؟ أين ذهبت يا

عم؟» حتى ثقل جفناي وغفوت. لكني انتبهت على صوت نقر الزجاج، وشرطي يلوّح بهراوة من خشب!

ـ صح النوم، قال هازئًا.

فزعت لمنظر شاربيه المسترسلين فوق حنكه.

ـ أأأأ..

ـ أنت أخرس؟!

ثقب سؤاله قلبي.

ـ للللا

جذبني من ياقتي:

ـ انهض، ابن القحبة. ما اسمك؟

ـ ككك مممال..

ـ ما هذه؟ كاميرا؟ من أين سرقتها، قوّاد؟

ـ أأأأ.

ـ أأأ؟! امشِ معي، سأجعلك تغرّد مثل البلبل.

حُملت في سيارة الشرطة ورميت في زنزانة وسط فصيل من المشردين والنشالة والمدمنين على استنشاق الصمغ. بت ليلتين هناك، ضُربت فيهما وسُحقت كرامتي وحاول

أحدهم التحرش بي، وفي النهاية تعالت جلبة أحدثها فتح الباب لتحين لحظة إنقاذي. شرطي ينادي من هناك: ـ كمال؟

ـ نننعم.

ـ هيا انهض.

رافقته حتى مكتب مأمور السجن، وكان العم خليل جالسًا هناك وعين الرجاء تترقب. احتضنني قائلًا: «الحمد لله على سلامتك، بني». ثم وضع إمضاءه في أسفل المحضر بعدما دهن شارب المأمور بورقة نقدية. استلمت الكاميرا وسرت خلفه بصمت المذنبين، وحالما وصلنا الأستوديو، أمطرني بكلمات التوبيخ، التي كان لا يجيدها. أو يجيدها، لكنه ليس من أرباب العمل الذين يفضلون هرس كرامة صبيانهم بالصفع والشتائم.

كان يردد بنبرة وديّة:

ـ يا حمار، ألم أقل لك لا تبتعد؟

ثم يسأل:

ـ أنت بالنسبة لهم نكرة.. هل تعلم هذا؟

ـ أأأجل.

استأذنته وصعدت إلى الأعلى، مضغت الحجر لدرء التأتأة واستعادة نفسي، ثم عدت رافعًا راية الندم.

ـ أقسم لك يا عم بأني لن أعيدها ولن أبتعد، قلت.

ـ حسنًا حسنًا، أجاب وما زال صوته مشوبًا بالغضب.

ثم حاولت ترطيب الأجواء بليّ عنق الحديث: ـ صحيح، أين كنت يا عم؟ لم أجدك في المنزل!

ـ كنت في المستشفى.

ـ هل أنت مريض؟

ـ كلا، بل خالتك هي المريضة، أصيبت بجلطة قلبية.

ـ آه، وهل ماتت؟

ـ اسم الله عليها، حسّن ألفاظك، حمار.

ـ حاضر حاضر.. أقصد كيف أصبحت؟

ـ بخير.. المهم، اجلب الشاي، واصعد استحم، رائحتك مقرفة.

ـ حاضر.

وهكذا مرّ اليوم على خير وغُفر الذنب. أما صالح، فقد عوقب بالضرب من قبل أحد الطبّاعين العجائز، وقطع أجره لأسبوع بأكمله. لكن العم خليل لم ينس الحكاية، إذ وبعد يومين فحسب، فاجأني قائلًا: ـ كيمو، حان الوقت لتكون لك هوية.

قالها وهو ينفخ دخان السجائر، ويسند حنكه بيده.

كانت ردة فعلي سريعة هذه المرة؛ اعترضت بلا تردد. ليس لأني أفضّل البقاء نكرة، بل لأن استصدار أوراق رسمية من دوائر النفوس يستلزم الحضور.

ـ لن أعود إلى الموصل، حتى لو ذبحوني.

ـ اطمئن، لن يضطر أحد لذبحك.

ـ كيف أحصل عليها إذن؟

ـ لا عليك، أنا أحلّها.. اذهب الآن واجلب لي الشاي.

ـ حاضر.

يصفو ذهنه كلما تناول الشاي مع السجائر، أخرج دفتر الهواتف واتصل بشخص، قال إنه يمتلك شبكة علاقات أوسع من المحيط الهندي. شرح له المسألة، فكان رد الأخير بأن الأمر لا يعد مستحيلًا مادامت هنالك هدايا زرقاء. يقصد الدنانير بالطبع، فالمال لدى هذا الصنف من البشر يجعل القانون طيّعًا كتكة السروال. اتفقا دون أخذ ورد، والتفت لي العم خليل مرددًا: «صفف شعرك والحقني». التقط لي صورًا شمسية عند الباب، أودعها في مظروف بني مع قصاصة ورق تحتوي على معلوماتي الشخصية. دس معها بضعة دنانير كمقدم للعمولة، ثم حملها صوب الرجل، الذي عرفت في النهاية بأنه يعمل محاميًا ويمتلك مكتبًا قرب سوق النهر.

بيني وبينكم، لم يكن الأمر ضروريًا إلى حد دفع المال، فمن أجل قصاصة تثبت بأني موجود، سيقطع العم خليل، لا شك، أجري لشهرين أو ثلاثة. ما الداعي لذلك؟ صحيح أني لن أموت جوعًا، فالخبز في بغداد أرخص من ماء المطر، لكنها على أية حال خطوة فائضة عن الحاجة. فكرت باللحاق به ومنعه عن إتمام المهمة، إلا أنه كان قد ابتعد واختفى. اتصل المحامي بعد أيام ليرفع سعر الرشوة. قال بأن دائرة النفوس هناك تشدد على حضور الشخص المعني، وأن الموظف الذي تواصل معه، اشترط ضعف المبلغ. فأغاظني العم خليل وهو يوافق بلا تردد. غير أنه فاجأني بدفع المصاريف كلها من كيسه دون أن يثلم من أجري فلسًا واحدًا. وبعد شهر ونصف الشهر تقريبًا أخبرنا المحامي بأن الهوية وصلته عن طريق البريد اليوم، وصار بإمكاننا استلامها.

ما زلت أتذكر العم خليل حين دخل الأستوديو وبيده مظروف أبيض. جلس خلف المكتب وأعاد ظهره إلى الخلف بفخر وسعادة، ثم شرع يفض المظروف على مهل، وعينه في عيني. أخرج الهوية التي كلّفته مبلغًا ليس قليلًا.

ـ الله الله.. كمال توما! المواطن كمال توما دلّوا! هيا اجلب لنا قمر الدين ودعنا نحتفل.

ـ ما المناسبة؟

ـ مناسبة امتلاكك ما يثبت مواطنتك، يا حمار.

ـ تقصد بأني صرت الآن حمارًا بأوراق رسمية؟

ـ أجل.

ـ وهل ينقص البلد الحمير؟

ـ اليوم اكتمل العدد.. يبدو أنك اشتقت إلى الزنازين!

ـ طبعًا لا، ولكن يا عم خذني على قدر عقلي؛ مواطن أمسى يحمل هوية تقول إنه مواطن، ما وجه السعادة في ذلك؟!

ـ كيمو، لا تماطل.

ـ حسنًا، على أمرك.

خضعت أخيرًا وجلبت كأسي قمر الدين بغية الاحتفال، لكن طائر النحس عاد لينعق من جديد ويختم الحفل بالكدر. لقد تلقى العم خليل ساعتذاك خبرًا تكفل بإطفاء ملامح البهجة في وجهه، ليس لباقي النهار فحسب، بل لما يليه من أيام عمره!

لا أدري من المتصل، ولا أعرف ما الخبر! وضع سماعة الهاتف، وقطرات الدمع تتدحرج فوق خديه.

ـ أغلق الأستوديو والحقني.

ـ عم، ماذا حدث؟!

اكتفى بالصمت وغادر.

أغلقت، بعدما أعدت الكؤوس الفارغة إلى محل العصائر، وتبعته حيث المنزل. فاجأني أن محلة باب الشيخ كانت كلها مجتمعة على بابه. كان الرجال يحيطون به ويتعاقبون على تحيته وتقبيله، بينما صوت النادبات يتعالى من خلف الجدران ليعيدني صوب الموصل، حيث يوم الزوارق. لم أبرأ بعد من تلك الحادثة، ولم يندمل، رغم السنين، جرح الاتهام بمقتل أخي. كان لريمون أن يضع حدًا لهذا الشعور بالندم؛ أن يأتي في المنام ليشهد على أنه توسّلني الصحبة إلى النهر، وعندما انزلق في الماء، لم أكن مسترخيًا على برودة الجرف، بل كرةً بين أقدام. وقفت مذهولًا أراقب مراسم الجنازة، وما هي إلا ساعات وأخرج الرجل من جوف الدار نعش زوجته. حمله صوب المقبرة، ليغدوَ بذلك ليس أرملًا بائسًا فحسب، بل ورقة ذابلة تصارع السقوط من شجرة الحياة.

(9) حلوى تصنع من بذور نبات البردي في مناطق الأهوار.

(10) خبز يصنع من دقيق الرز ويفرش على أقراص ساخنة من الطين المفخور.

الفصل السادس عشر

رسالة

في نهار ممطر من نهارات شهر ديسمبر 1972 كنت وحيدًا في الأستوديو، أراقب المارّة من خلف الزجاج.

غاب العم خليل يومها، ولم أتصل به لمعرفة أسباب الغياب. إذ كنت قد جرّبت السؤال فيما مضى ولم ينفع. سيقول لي كالعادة: «لا مزاج لي اليوم». فقد مرّت من فوقه مدحلة الحزن وتركت حياته خالية من المعنى. سنتان على فراق زوجته، لم تكونا كافيتين لمنحه صك النسيان. لقد تبدل حال الرجل وأمسى شاردًا، يقضي الساعات بصمت مثخن بالأسى. ربما أثار استغرابي بادئ الأمر، فليس معقولًا هذا الحزن الطويل! لكني أيقنت فيما بعد بأنه عاشق، وأن ليس من شأن السنين إخماد جمرة الأسى في قلوب العاشقين.

تصاعد عنف المطر وكاد الشارع أن يفيض، وفي الأثناء، جاء صالح وبرفقته قس، يحمل مظلة وحقيبة يد جلدية صغيرة. قال بلهجته السريعة: «كمال، هذا القس يسأل عنك». ثم عاد يتقافز تحت المطر. نهضت من مقعدي، وعيناي تستقبلان الضيف الذي انشغل بإغلاق المظلة ورجّها في الهواء للإطاحة بما علق على كتفها من بلل. دخل وقال بعد التحية: ـ أنت كمال توما؟

ـ نعم أبونا، أنا كمال توما.

ـ كمال توما دلّو؟

ـ نعم نعم، أنا هو، تفضل أبونا استرح.

ـ شكرًا لك، ليس لدي وقت، فقط أريد أن أوصل لك أمانة.

قلت بدهشة:

ـ أمانة لي أنا؟!

ـ أجل لك.

فتح الحقيبة الصغيرة وأخرج منها رسالة، على ظرفها الأبيض طوابع وأختام.

ـ هذه رسالة تخصّك، وصلتنا منذ مدة على عنوان الكنيسة.. لقد سألنا عنك كثيرًا يا ابني.

ثم ناولني الرسالة وغادر.

العراق

بغداد

الكرادة ـ خربندة

كاتدرائية مار يوسف الكلدانية

تصل إلى يد: كمال توما دلّو

فضضت المظروف ورحت أقرأ:

عزيزي كمال،

هذه رسالتي السادسة والسبعون.

لقد راسلت جميع كنائس العراق بحثًا عنك، ولم يصلني الرد حتى الآن. آمل هذه المرة أن يساعدني الرب يسوع المسيح في العثور عليك يا أخي. كما آمل أن تكون على قيد الحياة.

إن كنت تسأل عني فأنا بخير. هاجرت من العراق بعد شهور من غيابك، بعدما نفّذ أبي وعيده وزوّجني. فعلها وقبض الثمن من ذلك العجوز السكير الذي حملني إلى القرية عروسًا أسيرة على ظهر عربة. في اليوم الذي دخلت فيه بيته شعرت بأن حياتي قد انتهت وأن أمي تناديني. لم أنتظر طويلًا، عدة أسابيع من الإهانة والضرب، لبّيت النداء وأشعلت النار بنفسي. لكن لسوء حظي لحق بي أهل القرية وأنقذوني. أطفأوني بالماء والتراب والدحرجة على الصخور.

ظلت آثار الحرق، والكدمات والجروح تؤلمني. كما ظل الزوج السكير يضربني. كان يحبسني في البيت ويمنعني من الخروج كي أكون مطيعة. صليت إلى مريم العذراء أن ترسل لي من ينقذني. لم يأت أحد، والقرية خالية من الملائكة وليس فيها سوى عدة بيوت للمزارعين الفقراء. لكني استطعت الفرار في النهاية. لجأت إلى تكية يرتادها أصحاب طريقة. كانوا أشخاصًا طيبين مثل أمنا.

بالطبع، أنت لا تتذكر أمنا.. من أين لك أن تتذكرها؟! كان قلبها أطيب من راحة البال.

ضمّد أهل التكية جراحي واعتنوا بي حتى برئت. ثم أوصلوني إلى أطراف أربيل، ومن هناك تعلّقت بأذيال مهرّب أوصلني إلى اليونان مقابل خاتم من الذهب، كان كل ما تبقى من مهري الذي سلبه أبي.

منذ سبع سنوات تقريبًا وأنا أعيش في هذه البلاد الآمنة. أسكن في حجرة تابعة لدير يقع في ضاحية من ضواحي أثينا الغربية، وقد نذرت نفسي لخدمة المؤمنين. تسكن معي في الدير راهبة، أصلها من بغديدا. أشعر بأنها هدية مريم العذراء لي، فقد

ساعدتني كثيرًا، وعلّمتني القراءة والكتابة، وما زالت تساعدني في صياغة الرسائل. لا تضحك على خطّي.

لا أعلم إن كنت ستقرأ هذه الرسالة أم لا، لكني وعدت أمنا العذراء ألا أتوقف عن الكتابة لك، ونذرت لها النذور إن وصلتني منك رسالة واحدة. ومن هنا حتى ذلك الوقت أرجو منك أن تعتني بنفسك يا أخي. كل جيدًا وتلحّف جيدًا ولا تنسَ وضع أكياس الملح تحت وسادتك.

قلب مريم الطاهرة يحرسك ويحميك.

جانيت

5/9/1972

اليونان ـ أثينا

وضعت الرسالة على المكتب ريثما أجفف بلل عينَي وأزيل عنهما غبش الرؤية. كان الدمع قد فاض وأمطر فوق السطور ليزيح ثوب الكلمات ويجردها من زرقة الحبر. قرأتها ثلاث مرات كمن يريد التثبت من صحة ما يقرأ. لكني وحالما انتهيت من القراءة الثالثة، شعرت بخيط رفيع من الإيمان. بل لا أخفي عليكم بأني تقدمت خطوة نحو الرب ورسمت الصليب لأول مرة على صدري. لا أدري إن كنت قد رسمته بطريقة سليمة ترضي القساوسة أم لا، غير أني فعلتها على أية حال. حملت رسالة جانيت بعدئذ ودلفت إلى صالة التصوير، أغلقت الباب من الداخل وشرعت أقبّل الحروف حرفًا حرفًا. لم أكن راغبًا بمشاركة الآخرين مشاعري، ولا بسماعهم للصراخ الذي غلى في جوفي واندلق على هيئة شتائم تشكو غطرسة الآباء، إذ لا نفع للشكوى في مجتمع يدمن الصمم.

يراودني شعور بأن بعض الآباء قد حباهم الله بآذان متحركة كالهيدفون؛ يضعونها متى ما شاءوا ويرفعونها متى ما شاءوا. فتراهم ينصتون لدبيب نملة عاهرة تناغيهم من تحت

التراب، لكن سرعان ما يصيبهم الصمم حين تشتكي الزوجات والأبناء وأسرى المنازل.

ثم إني أتحاشى الصراخ أمام الآخرين، خشية الاتهام بالجنون، فالجنون تهمة يرمى بها من لا يكشف الغطاء عن سر صريخه، وأنا لا أريد الإفصاح عن سر صريخي. سيقولون عني ولدًا عاقًا وابن حرام حين أفعل ذلك، ومن يدري لعل واحدًا منهم يتبرع للقبض عليّ وإعادتي إلى جحيم أبي! دعوني أصرخ خلف الأبواب وكفى.

لكنْ، في الواقع، لم يكن صراخي، والرسالة في يدي، حزنًا خالصًا لما جرى على جانيت، بل كان حزنًا ممزوجًا بخيط فرح رفيع. كنت فرحًا لما آلت إليه حياتها في النهاية، فهي الآن في أثينا، تسكن في حجرة آمنة، وتخدم ربًا تؤمن به وتحبه، كما أن لديها نديمة تشاركها نفث الحسرات ونبش دفاتر ما غدا ماضيًا بحلوه ومرّه.. ماذا يريد المرء أكثر من بيت ونديم؟!

ارتديت سترتي المعلقة عند الزاوية وخرجت صوب مكتبة التراث لشراء ورقة وظرف رسائل. حميتهما من المطر بذؤابة السترة وعدت بهما إلى الأستوديو، ثم جلست خلف المكتب أحيك من الأشواق سجادة لهفة وعناق. لقد كتبت لجانيت في ذلك اليوم الممطر رسالة مرصوصة الحروف، ستكون لبنة أولى في سلسلة مراسلات يملّ ساعي البريد من طولها.

كنت أحرص على الكتابة في الليل، وفي النهار أطلع العم خليل على ما كتبت بغية إبداء رأيه. كما أن لي غاية أخرى؛ إخراجه من هوّة الحزن التي وقع فيها. بيد أن الأمر لم يكن نافعًا تمامًا، فقد أثقل الفراق حياته وجعل انتشاله ضربًا من المستحيل. في بعض الأحيان أراه يدلف إلى مطبعة السلام ليقضي بعض الوقت هناك. كانت تربطه علاقة وثيقة بصاحب المطبعة، الأريحيّ المتهم بتعاطي الشعر والسياسة. ذات يوم بعث في طلبه، أرسل له عاملًا آخر غير صالح، فقد كبر الأخير وأجاد صف الألواح ليرث مكان الطبّاع العجوز. قال العامل ببدلته الزرقاء الملطخة بالحبر بأن الأستاذ يود لقاءه لأمر ضروري.

ـ حسنًا اذهب الآن، رد عليه العم خليل.

ـ ماذا أقول له؟

ـ قل له، أنا قادم، اذهب.

استجاب الفتى، لكن العم خليل لم يف بوعده، إذ ظل في مكانه مجللًا بالكدر، يرتّل الحسرات. أمرني بمراجعة مصلحة البريد وإخبارهم بشأن حرارة الهاتف، فذكّرته بأني فعلت ذلك بالأمس ووعدوني بإرسال عامل الصيانة يوم الأربعاء. هز رأسه وأخذ يعبث بالكاميرا ذات الرداء البني والتي لا أتذكر يومًا رأيته دونها. فاجأني وهو يمسح عدستها بقماشة رقيقة: ـ إذا متّ، ادفنها معي.

ثم أطبق زر غطائها وخرج صوب المطبعة.

أطلقت خلفه آهة متبوعة برجاء: ـ آه يا عم! لو أنك تعود كما كنت.

وواصلت عملي.

كانت تستريح على يدي صورة لشاب، شعره كثيف، يرتدي قميصًا بياقة أطول من برج بابل. حففت أطرافها بواسطة المقص، وحشوت بها مظروفًا أبيض صغيرًا عليه ختم الأستوديو. ثم جلست وفي صدري يعتمل الملل. فأنا، في الواقع، لم أكن بأفضل حال من العم خليل، إذ ما زالت السنين لا تأذن بالشطب على طيف أخي الملوّح من تحت الماء، وما زلت عاجزًا عن تفخيخ الذكريات. لم يكن لي ما يسلّيني سوى التصوير وتل الكتب الرابض قرب رأسي. كنت أقرأ بشكل يومي، ولا أتذكر بأني غفوت ذات ليلة دون كتاب يربض مقلوبًا فوق صدري. تضاعفت مع الوقت أعداد الكتب حتى ضاق بها المكان وأمسى المرور في الشقة دون تعثر بكتاب يحتاج إلى ضربة حظ. ولأني اعتدت القراءة بصمت، صار الصمت سلوكًا بعدما كان مهربًا أضطره لدرء السخرية من طريقتي في الكلام آنذاك. راودني شعور، وأنا جالس خلف المكتب ألوك شفتي، بأني سائر لا محالة نحو حفرة الكدر،

تلك الحفرة المظلمة التي سقط فيها العم خليل وظل عالقًا هناك، فأشعلت الموسيقى ورفعت صوت المذياع. ثم صعدت إلى الشقة واخترت كتابًا أقتل به أوقات الفراغ. لكني عندما نزلت، رأيت على باب الأستوديو ما سيبث الحياة في جثة الوقت ويجلل أيامي القادمة بالمعنى.

الفصل السابع عشر

ملاك على الباب

ـ مساء الخير!

قالتها من على الباب فتاة كالملاك، ممشوقة القوام بعينين عسليتين وفم ملموم كحبة عنب.

ـ مساء الورد!

أجبتها، فدخلت.

كانت تحتضن بضعة كتب ومحفظة أوراق، وتعلق على كتفها حقيبة نسائية صفراء اللون، وقد بدا وجهها مألوفًا لي. بلعت ريقي وتصفحت، بسرعة البرق، دفاتر الذاكرة: «أين رأيتها من قبل؟ أين رأيتها يا كمال؟ أين رأيتها؟» لكن سحر الفتاة بعثر الصفحات وفوّت الإجابة.

ـ تفضلي آنسة، أنا تحت أمرك، قلت بعدما عز الجواب.

ابتسمت وتوهج خجلًا خداها، ثم قالت بنبرة رائقة: ـ أريد صورة.

ـ على عيني.

أدخلتها إلى الصالة ومنحتها وقتًا ريثما تنتهي من تجهيز نفسها والنظر في المرآة: ـ عندما تكونين جاهزة، اكبسي على هذا الزر، رجاءً.

ـ حسنًا.

وبعد سبع دقائق وعشرين ثانية رن الجرس.

دخلت وكان عطرها يملأ الصالة وينعش كآبة الهواء. وقفت خلف الكاميرا وقرّبت العدسة، ثم شرعت أطيل النظر إليها. سقطت عيناي على زر قميصها الحريري الأبيض الذي يبدو أنها قد نسته مفتوحًا. كانت تتدلى فوق صدرها قلادة ناعمة في طرفها فراشة تشرب من النهر المنحدر بين نهديها.

سألتها بعدما ضبطت العدسة:

ـ جاهزة، آنسة؟

أومأت

ـ جاهزة.

رفعت إبهامي:

ـ عينك هنا لو سمحتِ.. واحد، اثنان، ثلاثة.

ثم كبست على البالون الصغير في يدي، وعقبت: ـ انتهى.

تشاغلت بعدئذ بتبديل لوح التصوير، ويداي ترتعشان.

لمَ ترتعش يداك أيها الأحمق؟!

ولمَ صدرك ساخن هكذا؟!

هل احترق قلبك عشقًا بهذه السرعة؟!

قلبٌ هذا أم عود كبريت؟!

اللعنة عليك.

خلعت هواجسي وغادرت الصالة. تبعتني الفتاة، فأخرجتُ من الدرج دفتر الوصولات لتدوين اسمها، ثم سألتها وعيناي على الكتاب السميك في يدها، والمعلّم بنقش كلية الهندسة: ـ الاسم؟

غرزت أصابع يدها في خصلة شعر تهدلت على جبينها.

ـ نادية.

آه، ما أجمل اسمها!

ثم أردفت:

ـ نادية فوزي.

أومأت برأسي ورحت أكتب بصوت قصدت أن يكون مسموعًا: ـ المهندسة نادية فوزي.

انفلتت منها ابتسامة، فتداركت: ـ متى أستلم الصورة؟

أجبت وأنا أقطع الوصل:

ـ تفضلي، وفي الأسبوع المقبل تستلمين الصورة.

ـ حسنًا، شكرًا لك.

ـ عفوًا، لا شكر على واجب.

بيني وبينكم، لم يأخذ مني تجهيز الصورة وقتًا طويلًا، لكني قضيت الأسبوع بأكمله أمعن النظر فيها. ولمزيد من الأمانة لا بد لي من الاعتراف هنا بأني طبعت نسخة ثانية

واحتفظت بها تحت وسادتي، فوجوه الجميلات مصابيح تبدد ظلام الوحدة.

عادت الفتاة في الموعد لتجدني وقد زججت صورتها وأطرتها بإطار خشبي ناعم كأصابعها. فاجأها ما فعلت، وكان يمكن للمرء أن يشاهد التماع الدهشة في عينيها. قمطت الصورة بورق التغليف ولصقت أطرافها بالشريط، ويداي ترتعشان. أما هي فلم تعقب، تناولتها مني وحشرتها في الحقيبة قبل أن ترحل مودعة. كانت قليلة الكلام وسريعة الخجل، لكنها، عند الباب، التفتت لتمنحني نظرة ستغرقني في السعادة لما بقي من ساعات النهار.

تعمدت إخفاء الأمر عن العم خليل، فلا مزاج لديه يشجع على الاستماع إلى حماقاتي. إلا أنه حالما شاهد حالتي، اكتشف بأن إحداهن سلبت مهجتي! هذا ليس لأن من جرّب العشق أمسى خبيرًا في شؤونه فحسب، بل لشدة غرقي وافتضاح أمري.

ناداني مرتين ولم أنتبه:

ـ هَي، كيمو.

وبعدما انتبهت، لاح على شفتيه شبح ابتسامة ذابلة ليقول: ـ وقعت يا أبله؟!

ثم أشعل سيجارة وأردف بنبرة باتت حزينة وخافتة: ـ الحب بحر بلا قرار، إياك أن تبحر بعيدًا ما دمت لا تجيد التجديف.. هل تفهم؟!

ـ نعم نعم، أفهم.

حدّق بي وكأنه يقول: «أقطع يدي إن كنت تفهم». ربما لعلمه بأن العقل في أول الحب كالقلب يغدو مشوّشًا ومضطربًا. كان، رغم أساه، يخشى عليّ من الغرق. هذا واضح، لكن الأمر ليس بيدي يا عم، فقد غرقت وانتهيت.

عجيبٌ بحر الحب هذا؛ ما إن يسقط فيه المرء حتى يبات مصيره متأرجحًا بين أمرين لا ثالث لهما: إما الغرق أو الغرق!

مرّت الأيام وطفقت أبحث عن طريق يوصلني إلى عنوان نادية. سألت العم خليل عن عنوان كلية الهندسة، فشد كتفيه ولم يجب للوهلة الأولى، لم يرد لي مواصلة الغرق، لكنه رضخ في النهاية. قال بأن مبنى الكلية يقع في باب المعظم وأن عليّ ركوب الحافلة رقم 4 إن رمت الوصول إلى هناك، دون أن ينسى حقني بإبرة التشاؤم: ـ سوف تندم.

في صبيحة الغد ركبت الحافلة الحمراء ذات الطابقين قاصدًا كلية الهندسة. لم يفاجئني أني مُنعت من دخول المبنى، إذ لست طالبًا ولا محاضرًا ولا حتى ضيفًا يعرف، كحد أدنى، الاسم الثلاثي لمضيفه. لم أكن أعرف سوى أنها نادية فوزي. رجوت موظف الاستعلامات أن يمنحني عشر دقائق ريثما أسأل عنها في الداخل، ولم يفعل. كان فظًا عبوسًا كحاجب على باب طاغية! شتمت أسلافه في سري وجلست عند الباب كالكلب أنتظر. وعند الرابعة عصرًا خرجت نادية برفقة صديقة تقاربها في الطول وتحمل محفظة الورق بذات الطريقة.

هل رأتني؟

أجل، رأتني.

وحق الله رأتني.

غاية الأمر أنها تتصنع تجاهلي.

لا يهم، لن يكون العاشق عاشقًا ما لم يتسلّح بدرع الصبر.

لحقتها عند موقف الحافلات، وشاهدتها تركب لتجلس قرب النافذة في المقعد الرابع على جهة اليمين، وبجنبها صديقتها. جلست خلفهن وصوّبت ناظري نحو خدها الأيسر. سارت بنا الحافلة، وما زالت نادية تواصل تجاهلي، فوق هذا أخذت تتهامس مع صديقتها وتبتسم

بين الحين والآخر وكأنها تريد نقش تلك الابتسامة في رأسي. أنا أحفظها جيدًا يا بنت الحلال، فقط التفتي. انتصفت الرحلة، وأخذن يتأهبن للنزول عند مشارف ساحة النصر. وبعدما توقفت الحافلة تمامًا وراح بعض الركاب يترجلون واحدًا بعد الآخر، وحيث كنت في الطابور، خلف فتاتي مباشرة، اقتربت منها كثيرًا وهمست في أذنها: ـ مرحبا، نادية.

لم تجب، فقلت ثانية:

ـ مرحبا، نادية.

ردّت باقتضاب:

ـ أهلًا.

ـ هل تتذكريني؟

ـ لا.

ـ أنا المصور، المصور كمال.. اسمعيني.

ودعت صاحبتها على باب الحافلة وسارت في طريقها، فداهمني شعور بالضآلة والاحتقار، لكني واصلت: ـ نادية، نادية، اسمعيني، الأمر مهم، دعيني أخبرك.

ـ مسألة حياة أو موت.

ـ إذا مُتّ فستكونين السبب في موتي.

هذه الأخيرة قلتها استعطافًا، لكن دون جدوى، فقلب نادية بدا في تلك الساعة أشد صلابة من الرخام المستورد.

تركتها وعدت أقطف ثمار خيبتي، إلا أن صخور اليأس لم تسقط بعد على هامتي، فرحت أكرر ما فعلت. كررتها في اليوم التالي، وبعد التالي، وبعد بعد التالي.. ألا ترون انتعاش أيامي وسريان الدم فيها؟ كرّرتها إلى حد أن جباة الحافلات صاروا يعرفون قصتي ويتعاطفون معي، بل أن بعضهم أخذ يقطع لي تذكرة ركوب مجانية. وهكذا حتى فُك حديد عنادها ذات يوم واستدارت لتقول بنبرة لطيفة: ـ تموت من ماذا؟

ـ أموت من الحب.

حاولت التماسك وعدم إبداء ما يمنحني الفرصة لقول المزيد، غير أنها لم تستطع؛ ابتسمت وطفت على خديها حمرة الخجل. ذلك ما رأيته بأم عيني، ولولا الخشية من اتهامي بالمبالغة لقلت لكم بأني سمعت خفق قلبها. انتهزت الفرصة وطلبت منها رقم الهاتف، متحججًا بأن الكلام في الطريق لا ينفع. وبعد رشقة من الرجاء والتوسّل، استجابت: ـ حسنًا، عندك ورقة وقلم؟

ـ لا أحتاج إلى الورقة والقلم، أكتبه على قلبي.

احمّر خدّاها من جديد، ومنحتني الرقم معقبة: ـ لا تتصل قبل العاشرة.

ثم ودعتني بإيماءة وذهبت.

أستطيع القول بأني عدت في ذلك النهار جذلانَ أفرقع الهواء بأصابع الفرح. في الطريق شعرت بالجوع ودلفت إلى مطعم يطهو الرز بالسمن البلدي. كان يقدم مع الوجبة قدح لبن رائب، الله وحده يعلم لذاذته! جلست خلف الطاولة، والبهجة تملأ صدري وتفيض من عينَي لتغرق الأرض. وضع النادل أمامي رغيف خبز ساخن وطبق مخللات، وسألني عما أشتهي. طلبت منه، وقد شرعت بالتهام الخبز، رزًا ومرق باميا. كان يحدق بي باديًا استغرابه من سرعة التهامي للرغيف. الغبي، لا يعلم بأن الحب يفتح للشهية ألف باب، وأن السمنة أول عرض جانبي يصيب العشاق!

المهم أنه أحضر الطلب على وجه السرعة، وهذا ما أريده. كنت جائعًا، ولو أن الله أنزل لي خروفًا مشويًا في تلك الساعة، لنسفته دون اهتمام يذكر لمستوى الكولسترول في الدم. اغترفت ملعقة من مرق الباميا ومرّغت بها وجه الرز، رفعتها نحو فمي وعيناي مغمضتان كمن يقبّل حبيبته ساعة النشوة، ثم رحت ألوك الطعام بشهية مفرطة. كنست ما في الطبق، ومددت يدي نحو زجاجة اللبن وأفرغتها في جوفي. دفعت بعد ذلك ثمن الغداء، وشربت الشاي عند الباب وانطلقت صوب الأستوديو. وجدت العم خليل جالسًا خلف المكتب شابكًا يديه خلف رأسه ومصغيًا لبكاء العود المنهمر من المذياع. كان مدمنًا على سماع آلة العود، ويعلق واحدة على الجدار تحمل توقيع محمد فاضل (11).

قال هازئًا، حين رآني:

ـ أهلًا بالعاشق الولهان.. ماذا فعلت؟

ـ أعطتني رقم الهاتف.

ـ أخبار سيئة!

ـ لماذا؟

ـ لأن هذا يعني بأن المسكينة تورطت.

طار قلبي لما سمعت، ووددت التحقق: ـ هذا قولك؟

أجاب:

ـ أجل، هذه الفتاة، كان الله في عونها، تحبك.

ـ كيف عرفت يا عم؟

ـ حين تمنحك الفتاة رقم هاتفها فإنها تقول لك بطريقة ما سمّعني صوتك يا غبي.

ـ آه! فهمت.

ـ حمدًا لله أنك فهمت. لكن قل هل هي جميلة.

ـ جميلة فقط؟ إنها فاتنة، فاتنة، انتظر سأريك صورتها.

صعدت إلى الشقة وعدت له بالصورة، فهتف حانقًا: ـ هذه ابنة فوزي المطبعجي يا أحمق!

(11) صانع أعواد وآلات وترية مشهور (1910 ـ 2002)

الفصل الثامن عشر

خطة للهرب

تذكرت الآن أين رأيتها من قبل، كانت تأتي يافعة رفقة أبيها إلى مطبعة السلام، فهي البنت الصغرى لصاحب المطبعة، الأستاذ فوزي المطبعجي. لكن هذا ليس سببًا كافيًا لنعتي بالأحمق يا عم، أنا أحبها فحسب. ثم أن نيتي أكثر صفاءً من قطرات الندى، فلم كل هذا الغضب؟! على أية حال، لن أظل قابعًا في حفرة الكدر، وها هو ليلي قد تبدل مع صوت نادية وراح يمضي حلوًا كالسكر. كنت، وحالما تشير الساعة إلى العاشرة مساءً، أمد إصبعي نحو قرص الهاتف وأتصل. كان قلبي يخفق مع صوت دوران القرص: «خْرْشت.. خْرْشششششت».. ويظل يخفق حتى ترفع السماعة وينهمر صنبور الكلام. حديث طويل نتجاذب أطرافه بلهفة واشتياق، وبوح جارف يطال كل ما يختبئ في ثنايا الوجدان. كان لإطفاء النور دور في دكّ أسوار الخجل والبوح بما لا يمكن البوح به إلا تحت ستار العتمة. لا غرابة في ذلك، فالعتمة صُبح الخجلى.

ذات صباح هبطت إلى الأستوديو، فوجدت العم خليل جالسًا وبيده مفك ناعم يحاول إصلاح المذياع. ألقيت عليه التحية وجلست بأدب التلاميذ.

ـ في فمك كلام! قال وعيناه مشغولتان بما في يديه.

ـ نعم، عندي موضوع، أحب مفاتحتك به، يا عم.

أغاظني أنه لم يقل: «هات ما عندك» كما ظننت. ظل صامتًا حتى إعادة غطاء المذياع، الذي بدا ميؤوسًا من حالته، والشروع بشد براغيه. قال وهو يدير المفك باتجاه عقارب الساعة: ـ إذا كان الأمر متعلقًا بابنة الأستاذ فوزي، فلا تتوقع مني الإصغاء.

ـ لمَ يا عم، لن آكلها، صدّقني.

ـ ستضعني في موقف محرج مع الرجل.

ـ اطمئن، لن أدخلك في الموضوع ما لم أرتب الأمور مع الفتاة.

زفر بصوت مرتفع وقال:

ـ حسنًا، اجلب لنا الشاي أولًا.

ذهبت إلى المقهى، جلبت الشاي وعدت على وجه السرعة. فاجأني أن المذياع يعمل والبحث جارٍ عن بي بي سي. فالعم خليل لا يثق بأخبار سوى أخبار محطة بي بي سي، والتي كانت تعرف آنذاك بالقسم العربي في هيئة الإذاعة البريطانية. يقول إنها الإذاعة الوحيدة التي تستحق أن يعيرها العالم أذنيه. كان يفضلها على مونتي كارلو، الإذاعة الفرنسية الناشئة حديثًا، وغيرها من الإذاعات العربية والمحلية. حتى الساعة لا أدري أنى له بتلك الثقة العمياء! غير أني لم أكن في وضع يسمح لي بمناقشة قضايا دولية كبيرة وشائكة.

«طنننن.. السيدات والسادة، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، الثامنة صباحًا بتوقيت غرينتش، هنا لندن»..

حمدًا لله، عثر عليها أخيرًا. رفع مستوى الصوت وراح يرتشف الشاي وأذنه عند مذيع نشرة الأخبار ذي الصوت الرخيم. وحالما انتهت النشرة، أغلق المذياع ليعيرني انتباهه: ـ إي، سيد كيمو، تفضل.

تنحنحت ودلقت عليه ما يجول في خاطري دفعة واحدة. أخبرته بأني لا أمارس اللعب، بل أود الاقتران بنادية، ولا أستطيع الانتظار حتى الغد. فما كان منه إلا أن أغمض عينيه ولم ينطق، ليفتح المذياع ويتشاغل به من جديد. كان من السهل معرفة أنه غير راض عن الأمر

برمته، وأنه لا يرغب الخوض في حديث فائض. تركته وخرجت عند الباب أراقب المارة. وبعد دقائق شعرت بأنفاسه تصفع قفاي. وضع يده على كتفي وراح يقول بهدوء أعرفه: ـ يا أحمق، هل تعرف كم يملك أبوها؟

ـ لا يهمني، فأنا أريد ابنته وليس أملاكه.

ـ كيف لا يهمك؟ وأنت عريان.

ـ ماذا ينقصني؟

ـ لا ينقصك شيء سوى كل شيء.

ـ يا عم أرجوك..

ـ أرجوك أنت. بني ضع عقلك في رأسك.. هل نسيت بأنك تسكن في غرفة تابعة للأستوديو؟! افترض أن معجزة وقعت وجعلت الرجل يوافق عليك، أين تعيشان؟ هذه طالبة في كلية الهندسة، يعني مهندسة يا حمار.

ـ لماذا تتحدث وكأن كل مهندسات الكون قد اخترن أزواجًا يحفظون جدول الضرب!

ـ لا فائدة ترتجى! رأسك يابس وستورطنا.

كنت أعلم بأن المهمة مستحيلة لواحد مشرد مثلي، كما أعلم بأني مرفوض سلفًا رغم انفتاح الأب وأريحيته المشهور بها، لكن قلبي يرفض الخضوع لمقاسات الواقع. كان يهددني بين الحين والآخر بأنه سيتوقف عن ضخ الدم إن حرمته من سماع أنفاس نادية في السرير.

سألت العم خليل بصوت مغلف بالحيرة:

ـ حسنًا، دعك من رأسي الآن، وقل لي ماذا أفعل.. أنا أريدها ولن أستغني عنها؟

ـ لو تسمع كلامي، لقلت لك اترك الفتاة وشأنها.

ـ أقول لك بأني أموت لو تركتها؟ لماذا لا تصدقني؟

نفخ هواءً ساخنًا وعقّب: ـ إذن، انتظر، ليس لك سوى الانتظار.

ـ إلى متى؟

ـ لا أدري، لكن عليك أن تنتظر.

وانتظرت.

تخرجت نادية من الجامعة وبدأ الخاطبون يتقاطرون على بابها. تقدم لخطبتها عدة شبان من أولئك المسموح لهم بالتقدم لخطبتها، فكان الرفض جوابها. آلمني أنها كانت تخفي علاقتنا وتتحاشى الحديث عنها كما يفعل مرضى الجذام.

وذات يوم كنا متواعدين عند الرابعة عصرًا في حديقة الزوراء، فاشتريت ربع كيلوغرام من اللب الأبيض، وذهبت مبكرًا بساعتين. جلست هناك أقزقز اللب وفي رأسي عتب طويل، لكنه تبخر مع أول طقة كعب عند باب الحديقة. كانت ترتدي كعبًا عاليًا وسترة أنيقة، اقتربت مدارية ارتباكها بإزاحة خصلة الشعر عن جبهتها. جلست ولم تنظر بعدُ في عينَي. بالنسبة لي، لم أكن راغبًا في شيء سوى لثم شفتيها.

ألقت التحية:

ـ مساء الخير!

ابتسمت ورددت:

ـ صباح الخير!

كنا قد ناقشنا أمر التحية من قبل، وأخبرتها بأن صباح الخير هي التحية المناسبة للمرأة في كل الأوقات، إذ من الغباء أن ترى الشمس بازغة ولا تحيي بتحية الصباح. وقتها اعترضت: ـ إذا أردت أن توحد التحية، فالأفضل اختيار مساء الخير.

ـ لماذا؟

ـ لأن العشاق يصفون حبيباتهم بالقمر لا بالشمس.. مساء الخير هي الأصح.

ـ دعكِ منهم، هؤلاء عشاق أميون لا يفهمون في الأجرام السماوية. القمر حجارة تافهة تأخذ نورها من الشمس.

رضخت أخيرًا:

ـ حسنًا، حيّني بما تشاء، لكنك ستبقى قمري.

غير أنها كانت حزينة هذه المرة، عيناها هاربتان وفي فمها آهة مكبلة. شعرت بذلك، ومن أجل كسر الوجوم أطلقت من خلف أسناني صفيرًا مشاكسًا، ثم رحت أزحف لردم المسافة بيننا. ابتعدت مهددة إياي بالرحيل ما لم أكف عن المشاكسة، ثم وضعت حقيبة الكتف بيننا كسور يحمي من تسلل اللصوص. لكنها سرعان ما تنازلت عن تهديدها وهدمت السور لتجعل الطريق سالكة أمام أصابعي.

وقتها، كنا جالسين فوق مصطبة إسمنتية مطلية بالبوية الزهرية الفاتحة، ومن حولنا الكثير من ورد الجوري الأحمر. قطفت لها واحدة وعدت لشبك أصابعها من جديد قائلًا: ـ نادية، لدي اقتراح.

ـ ما هو؟

ـ دعينا نهرب.

ـ نعم؟! أين نهرب؟! لا أفهم.

ـ نهرب إلى فرنسا، أنا وأنتِ فقط.

ـ وماذا نفعل في فرنسا؟

ـ نزرع الورد، نبني حديقة كبيرة لورد الجوري ونعيش منها. ستكون تجارة رابحة. الفرنسيون لا يعرفون الجوري. هذه وردة عراقية خالصة، سيحبونها، صدّقيني.

ـ يا لها من فكرة عبقرية، نهرب إلى فرنسا لنبيع فيها الورد العراقي! هل أنت مجنون؟! ثم من قال لك بأن الجوري ورد عراقي خالص؟!

ـ آه، هذا يعني أنك موافقة على الهرب؟

ضحكت أخيرًا وتهاوى حائط الكدر.

ـ حمد لله، ظننتك في جنازة!

ـ الأخبار سيئة يا كمال.

ـ ماذا هنالك؟

ـ أهلي.. رفضي للزواج بدأ يثير شكوكهم.

ـ إذن عليكِ أن تخبريهم عنا، وسآتي لخطبتك فورًا.

ـ الأمر ليس بهذه السهولة.

ـ لماذا؟ لأني بكِلية واحدة؟ أم لأني فقير وابن كلب؟

ـ أوه يا كمال، أوه كيف تحوّر الكلام؟!

ـ حسنًا، اشرحي لي ما المشكلة إذن؟

ـ لا أدري لا أدري.. أخاف من رفضهم.

خالجني الشك بأن هنالك جزءًا مبتورًا من الحكاية، وأنها لا تريد البوح بما يجرح مشاعري. لعلي مرفوض لاختلاف الدين. لعل أباها الذي يبدو للناس أريحيًا مكبل بسلاسل الطائفية، وأنه سيذهب إلى النار لو منحني صك القبول. فبعض الآباء يعتقدون بأن تزويج بناتهم من خارج دينهم يعني ذهابهم إلى النار على متن طائرة نفاثة من طراز بوينغ 737. لكن ماذا عليّ أن أفعل، لو صدق ظني؟ أقتل أبي لأنه ولدني مسيحيًا؟ أم أحرق مبنى الحكومة لأنها شرّعت وضع خانة للديانة في هوية الأحوال المدنية؟ أم أتبرّع بتبديل ديني؟ بالنسبة لي؛ الحب أولى من الدين، غير أني لا أعرف كيف أفعل ذلك، هل يكفي أن أختن نفسي للظفر بحبيبتي؟ من الضامن؟

قلت بجزع:

ـ ما الحل برأيك، نادية؟ ضعيني على الطريق، ولن أتوقف.

ـ لا أدري، اهدأ فحسب، اهدأ ودعنا نفكر.

ـ نفكر؟! أنا لا أعلم ماذا كنتِ تفعلين كل هذا الوقت؟ قولي لي ماذا كنتِ تفعلين، ها؟

تشاجرنا وراحت أصابع أيدينا تفك أسر بعضها وتبتعد. ثم نهضت باكية ورحلت بلا وداع. أما أنا فعدت صوب شارع الرشيد واجمًا كمن غرقت سفنه في بحور الإفلاس. رأيت العم خليل واقفًا على باب الأستوديو يشرب الشاي، وبطرف إصبعه سيجارة مشتعلة. باشرني حين اقتربت: ـ ما بك؟

ـ لا شيء.

ـ افترقتما؟

ـ كلا، لم نفترق، لكنها لا تريد إخبار أهلها.

ـ لماذا؟

ـ لا أدري. ربما لأني مسيحي.

ربّت على كتفي مرددًا:

ـ لا عليك، ما دامت تحبك فإنها لن تتخلى عنك، حتى لو كنت مجوسيًا.

ثم أردف بما يشبه الشعر:

ـ إذا وقع الحب في قلب امرأة، نسيت اسم ربها وغدا الدين في رأسها شطر قصيدة.

حتى اللحظة لا أدري ممن كان العم خليل يستقي نظرياته عن المرأة، لكن المفاجئ في الأمر أنها غالبًا ما تتحقق! وهذا ما حصل، إذ لم تمض سوى أيام لتعاود نادية الاتصال بي. قالت بصوت خافت إنها أفشت سر رفضها للخاطبين أمام أمها، فهددتها الأخيرة بالمنع من مغادرة المنزل ما لم تكف عن مقابلتي. خضعت للتهديد وعزّ اللقاء، بل لم يعد التواصل عبر الهاتف يسيرًا كالسابق، مما جعل مكالماتنا الليلية سريعة وخاطفة ومتفرقة.

في تلك الأيام انتابني شعور بأني أخوض حربًا خاسرة. كنت أقضي الوقت في التفكير بما ينجيني من غمامة الفقد التي عادت تتشكل فوق رأسي من جديد. ظهر القصور في عملي، واكتشف العم خليل ذات مرة بأن سلة القمامة في غرفة التحميض مليئة بالورق التالف. زادها أن صورًا ناجزة كان قد رفعها ليجد بأن ثلاثًا منها سيئة الطباعة. فما كان منه إلا أن ساطني بنظرة ساخطة قبل أن يمزقها ويرميها في الأرض. لم أره غاضبًا من قبل هكذا! لقد ظل طوال ساعات النهار يشيح بوجهه عني، وعندما خرج صوب المنزل، قال عند الباب: ـ انتبه إلى عملك.. انتبه إلى عملك.

ثم أضاف قبل أن يغادر:

ـ هذا باب رزق وليس مكانًا للتسلية.

سقط قرص الشمس من بعده وأخذت السماء تتلون شيئًا فشيئًا بالأحمر الناري. أغلقت الأستوديو وصعدت إلى الشقة. كانت شهيتي للطعام معدمة. خمّرت الشاي، وجلست أفتش في أزقة رأسي عن حلول بدت كلها مستحيلة. سرح بي الخيال بعيدًا وقررت فضّ واحد من تلك المستحيلات، إذ ليس من الإنصاف ألا يمارس المرء التحدي حتى في عالم الخيال. رسمت خطة للهرب، هربًا حقيقًا هذه المرة خاليًا من حماقات المزاح، ثم رحت ألوك المسألة:
ـ سنهرب داخل المدينة.

ـ في أي مكان ستختبآن؟ بغداد مدينة مسطحة لا جبال فيها ولا كهوف تأوي الخائفين.

ـ في نزل رخيص مثلًا، أو فندق آيل للسقوط لا تطلب فيه هويات النزلاء.

ـ هب أنكما وجدتما مثل هذا المأوى، هل تظلان مختبئين فيه كالجرذان؟

ـ كلا، أنا سأخرج إلى العمل، ونادية تنتظرني خلف الباب كما تفعل كل ربات البيوت في العالم.

ـ سيلاحقونك.

ـ لا أحد يعرف الطريق إلى الأستوديو.

ـ لماذا؟! هل انتقل ستوديو خليل إلى هلسنكي؟!

ـ مممممم..

ـ كف عن المأمأة وقل شيئًا مفيدًا، سيصلون إليك ويقتلونك، أنت في بغداد يا غبي.

أفلتّ حسرة ساخنة واستلقيت على السرير تاركًا عينَي تتنقلان بين الهاتف وسماعة الحائط. هاجمني مارد الخيال من جديد وفكرت في الذهاب إلى منزل نادية. هكذا ببساطة؛ أصحو مبكرًا وأذهب لأطرق الباب طرقًا حازمًا كما يفعل محصّلو فواتير الماء، أقف أمام الأب بقامة منتصبة لأقول بلا تحية حتى: «هَي أنت، عليك أن تعلم جيدًا بأن ما تفعله ليس دينًا، بل خراء. الدين، أيها الأحمق، هو ألا ترتكب ما يخرجك عن إنسانيتك، فإن أخبروك بعكس ذلك، ارفع لهم إصبعك الوسطى وامضِ في شأنك». أقولها ببسالة عالية ونبرة واثقة كخطى الملوك، ثم أمسك بيد فتاتي ونهرب. كل هذا، إن تبيّن بأني مرفوض لديني، فنادية لم تكن صريحة بما يكفي حول سبب الرفض، كما أني ما زلت أشعر بأن هنالك جزءًا مفقودًا في الحكاية عليّ معرفته.

على أية حال، لم يبق الكثير، لحظات فحسب وأشرح لها ما يجول في خاطري علّها تضع حدًا لطوفان الحيرة، تمتمت بهذا وعيناي تراقبان الهاتف. لكن الأخير ظل صامتًا ولم يصلني رنينه.

الفصل التاسع عشر

لا تنتظر!

ها هو ذا لساني يعود إلى سالف طبعه، وها هما جفناي يجدّفان بلا رادع. حاولت الصراخ، فبدوت كالأخرس، واكتفيت بلكم الجدار. لقد بعثرني كلام العم خليل وأرداني في لجّة من اليأس والغضب. بعد شهرين قضيتهما في انتظار مكالمة نادية، وبعد عشرات المحاولات الفاشلة في الوصول إليها ولو عبر الهاتف، وقف أمامي ليقول بإيجاز الواثقين: ـ لن تتصل.

ويردف بعد نفس طويل من الدخان المشبع بالنيكوتين: ـ لا تنتظر، حاول أن تنسى.

ظننته يمارس التنجيم، إلا أن نبرة اليقين الممزوجة بالشفقة، كانت تقول إنه ينام على وسادة الحقيقة. استزده من خلال إيماءات الدهشة، فقال بأن نادية قد تزوجت من ابن عمتها، ناطق، رجل الأعمال المقيم بين لندن وبغداد، وأنهما سافرا الأسبوع الفائت.

لقد شعرت، وأنا أستمع أخيرًا لذلك الجزء الذي ظل مفقودًا في الحكاية، بأني أحمق كبير. أما العم خليل، فظل يكرر الخبر بنبرة قاسية وكأنه يمارس علاج الصدمة. كان، رغم التماع الشفقة تحت جفنيه، يجلدني بسياط الحقيقة كي أفيق. كما أني سمعت في حسراته صدى اللوم: «ألم أقل لك بأن البحر عميق؟!» وفي النهاية دار من خلف المكتب وربّت على كتفي قبل أن يغادر الأستوديو.

كانت الشمس تشارف على المغيب، وأبواب الدكاكين تسدل واحدًا تلو الآخر. أغلقت وصعدت إلى الشقة. وقفت هناك أصرخ في جوفي وألكم الجدار لاعنًا لوثة النحس التي لا تفكني. شعرت بأن الجدران تزحف لتنطبق على رأسي، حتى أن دفق الدم كاد يصمّ أذني. لقد تم اغتصابي، هذه الفتاة طعنت كرامتي. نزلت بلا غاية إلى الأستوديو، أنرت المصباح

وجلست خلف المكتب حانقًا أردد في سري: «لقد انتهى كل شيء يا عزيزي، أنا الآن في لندن، أنام في حضن ناطق. سيحبّلني وننجب ثلاثة أبناء سعداء.. وداعًا أيها الأحمق». وآنئذ سقط ناظري على علبة السجائر الراقدة فوق المنضدة، والتي كان العم خليل قد نساها كالعادة، فداعبتها بأصابع يدي التي ما فتئت ترتجف، ثم استللت منها واحدة وأشعلتها. سعلت مرتين أو ثلاثًا، لا أتذكر بالضبط، لكن العملية جرت فيما يلي بانسياب تام، ومر الدخان بسلام نحو رئتي.

لا أدري كيف انتهت السيجارة الأولى، فأشعلت بجمرها الآفل الثانية، ثم الثالثة، والرابعة، وهكذا حتى فرغت العلبة. عرجت إلى الشقة من جديد، آويت إلى الفراش منكسرًا وعيناي تكتنزان الدمع، ثم مارست العادة السرية وغفوت. كانت غفوة منغصة بالجاثوم، الذي هو الآخر، لفرط النحس، يواظب على زيارتي في ذيل كل فجيعة. مذ كنت صغيرًا عرفته، كان يأتي ليزعج مناماتي، وكانت جانيت تضع تحت وسادتي أكياس الملح الصغيرة لطرده. كانت تجددها كل ليلة وهي تردد: ـ اشكر الله لأن الملح رخيص.

ثم لا تنسى أن تسألني في الصباح: ـ هل نمت بشكل جيد؟

لأجيبها:

ـ نعم، شكرًا للملح.

ذات مرة حلمت بريمون واقفًا قرب السرير يَنده برفق: «كيمو.. كيمو.. أنا هنا». وعندما أفقت، لم يتلاش ولم يتبدد طيفه كما يحدث عند نهاية الأحلام والرؤى، بل ظل مواصلًا يلهج باسمي، لكن أذرع الجاثوم تمنعني من الاستجابة.. آه كم كنت راغبًا بضمه!

استيقظت باكرًا وغادرت قبل قدوم العم خليل. لم تكن لي حينها وجهة مقصودة. سرت حتى وجدتني ألج تجمع العتّالين. جلست قرب صبي في الرابعة عشرة تقريبًا، يدخن السجائر بشهية وتلذذ.

حيّاني من عنده:

ـ صبّحك الله بالخير، أستاذ.

رددت عليه التحية:

ـ أهلًا، الله بالخير.

وفي سري شتمته:

ـ عن أي خير تتحدث يا نكرة؟!

لكن منظر الدخان المتراقص في الهواء قتلني، فبادرته: ـ عندك سيجارة؟

ابتسم ببراءة الفقراء ومد يده في جيبه لإخراج العلبة: ـ حظك حلو، آخر واحدة، تفضل.

قدّم لي سيجارته الأخيرة وتشاركنا نفث الدخان. وبعدما انتهينا، أخرجت محفظة النقود ومنحته كل ما فيها. حاول الرفض بترديد ما يحرص العتّالون الصغار على قوله: «أنا لست متسولًا». غير أني لم أتراجع، بل أجبرته على أخذ النقود بدعوى أنها ثمن السيجارة والصحبة الرائقة. عصرت زنده ومضيت. كان الجوع والغضب يصهران معدتي. سرت حتى آخر السوق وكأن شريط الأيام يدور بالمقلوب. ما زالت عربة الشاي واقفة على باب مطعم السيد، وما زال صاحبها يعتمر الكوفية الحمراء ويعمل بجد رغم تقوّس عوده وارتجاف يديه! لقد كبر الرجل وابيضّ ذقنه. سلمت عليه، فرد التحية وصبّ الشاي قائلًا: ـ والله زمان يا كيمو! لماذا لم نعد نراك، بني؟!

ـ مشغول بالعمل.

ـ الله يعينك، هي الحياة هكذا، تعب في تعب.

ـ الحياة عاهرة يا عم؛ تجلد المساكين أمثالك وتنام عارية مع السفلة وأولاد الحرام.

ـ استغفر ربك، هذه مشيئة الله.

ـ بل مشيئة ناطق.

مددت يدي في جيبي متظاهرًا بإخراج النقود.

ـ ماذا تفعل، بني؟! على حسابي.

شكرته وهممت بالرحيل، فقاطعني: ـ لم تقل لي، من هذا ناطق؟

أجبته:

ـ واحد منهم.

وقفلت راجعًا صوب الأستوديو.

على بعد خطوات من هناك، شعرت بأن ساقَي تلتويان ومشيي غير متزن، فاستندت إلى الحائط وثنيت ركبتَي وبركت. وما هي إلا دقائق وجاء العم خليل. سنّدني على كتفه، فك الباب ودلفنا، ثم أجلسني على الأريكة وجلب لي قدح ماء. استوى على كرسيه من بعدُ ومد يده نحو المذياع، وهو ينظر لي بصمت أعرفه. دار بين المحطات بغية اللحاق بنشرة الصباح. لم يعثر على ضالته، أطفأه ليقول بلا مقدمات: ـ إلى جهنم، هي من خسرت.

ـ لللماذا؟ لأنها لم تقترن بالأمير فيليب مثلًا؟ دعك مني يا عم، أنا منحوس ولا دواء يشفي علتي.

ساطني بنظرة غاضبة وصفع الهواء برأسه يمينًا وشمالًا.

ـ حسنًا، كما تريد، أنت منحوس، ماذا بعد؟ هل نقيم مأتمًا لأنك تلقيت أول خازوق في حياتك؟ أم نشعل حربًا لأن فتاة فضلت ابن عمتها عليك؟ كفاك يأسًا بُني، وتقبل الأمر بروح رياضية. ثم إني حذّرتك منذ البداية لكنك تفضل الطرش.

ـ أول خازوق؟! دمدمت ونفخت ضحكة هازئة.

ـ ماذا تقول، ارفع صوتك.

ـ لا شيء، يا عم، لا شيء.

ـ حسنًا، اصعد الآن، اغسل وجهك وعد إلى عملك.

أومأت برأسي، وصعدت إلى الحمّام، شطفت وجهي بماء بارد وخرجت. وعندما عدت تفاجأت بالعم خليل قد غادر. وبعد ساعة تقريبًا، اتصل بي من شارع السعدون ليخبرني بأنه لن يعود إلى الأستوديو باقي النهار، سيذهب إلى المنزل. اشتريت علبة سجائر ولم أتوقف عن التدخين حتى حضور أول زبون. كانت امرأة بدينة في أواسط العمر، تتلفع بعباءة تبرز منها خصلة شعر مصبوغة بالحناء، وتملك سنًا مطلية بالذهب. قالت إنها تريد صورة، فأدخلتها إلى الصالة وخرجت ريثما تتهيأ. وبعد ربع ساعة تقريبًا عدت إليها، فهالني ما رأيت. كانت المرأة شبه عارية، يغطي لحمها فستان أحمر لامع بلا أكمام، يلتصق بجسدها ويبرز للعيان ترهلات البطن والخاصرتين. وكان وجهها قد دُهن، لا أدري متى، بكمية من مساحيق التجميل جعلتها تبدو مثل مومس في ملهى ليلي رخيص. فركت عينَي محاولًا طرد غبش الدهشة عنهما، فضحكت المرأة بغنج وبانت سنها الذهبية.

جلست أمام الكاميرا قائلة:

ـ أريدها أحلى من صورة عفيفة إسكندر (12).

وكما يفعل المنافقون؛ هزئت في سري وتظاهرت بالقبول، ثم تقدمت لضبط جلوسها. رفعت حنكها وأملت كتفيها قليلًا نحو اليسار. لكنها، وبحركة مفاجأة، مدت يدها نحو نصفي الأسفل وراحت تدلّك سرّ الشهوة برفق شديد. داهمني الانتصاب وتعرّق جبيني، فأطلقت المرأة ضحكة رقيعة وعقّبت: «خجلان النونو!»

عضضت شفتي السفلى حتى كدت أقطعها حنقًا. الساقطة، تصفني بالنونو، وهذه إهانة لا ينبغي، لشخص بالغ السكوت عليها في أي حال من الأحوال. سألقنها درسًا أسترد به كرامتي. لكن عليّ أولًا إنجاز عملي. أفلتّ من أسر الشهوة الرخيصة، وتسحبت خطوات إلى الوراء. وقفت خلف الكاميرا والتقطت الصورة، ثم عمدت إلى باب الصالة، أوصدته بالمفتاح قبل الهجوم على المرأة التي بدت متحفزة. أمسكتها من رأسها ولثمتها لثمًا كاد يُسقط شفتيها في جوفي. كانت رائحة السجائر تخلط أنفاسها. أزحت الفستان عن صدرها بصعوبة بالغة واندلق ثدياها الكبيران. فركتهما، لتشرع بإصدار تأوهات كاذبة. عصرتهما بقوة فصرخت وألقمتني واحدًا منهما. رضعته كما يفعل صغار الخنازير، لكن نار غضبي لم تخمد. كنت راغبًا في الانتقام وتسجيل أول انتصار على صفحات سجلي المثخن بالهزائم.

ولكي أكون واضحًا معكم، فإن هذه المرأة البدينة ذات السن الذهبية والمؤخرة المترجرجة، والتي خلعت في النهاية ثيابها وأمست تحتي عارية تمامًا، لم تنل من كرامتي بما يستحق الانتقام. لقد كان وصفها لي بالنونو محض مزحة عابرة؛ لا تعبر حدود الأدب، ولا تندرج في لوائح الإهانة. إن ما أهانني حقًا ومسح بكرامتي الأرض هو ذلك الوغد القادم من لندن، ابن الحرام الذي قطع آلاف الأميال من أجل هزيمتي. كل ما في الأمر أن المسكينة وقعت ضحية لانتقام رمزي. ولجتها بحيوانية مفرطة رغم الصمت الذي حاولت الاحتفاظ به لئلًا تسخر من تأتأتي. كنت بغلًا أخرسَ، أقرّ بذلك. لكنها بدت، رغم الألم الذي جعلها تتأوه بصدق هذه المرة وتصرخ عاليًا، نشوانة سعيدة. بل، وحالما انتهينا وارتدت ثيابها، غمزتني قائلة: «فحل!»

يا الله! أخيرًا جاء من يمنحني لقبًا محترمًا؛ فحل!

عدت إلى الجلوس منتصرًا خلف المكتب، وكما الكبار أشعلت سيجارة. وبعد بضعة أيام عادت المرأة، فمنحتها الصورة وأدخلتها إلى الصالة لتسجيل هدف ثان في مرمى القدر. لكني سرعان ما تنبهت بأن الأمر سيظل يتكرر فيما لو أطلقت العنان لنفسي، وأن الأستوديو سيغدو بفضلي ملعبًا فارهًا للرذيلة، فما كان مني إلا أن التقمت حجري ومضيت متخففًا من عبء الغضب. حمدًا لله أن العاهرة لم تعد تأتي هي كذلك، فقد تعرفت على مفوض شرطة موسرًا، يكسب في اليوم الواحد أضعاف ما يكسبه ملك النمسا. أما العم خليل فإنه، وإن لم يكن عاجزًا عن معرفة ما يدور من وراء ظهره، بدا منشغلًا بأمر ما.. أمر لم يتسن لي اكتشافه إلا بعد فوات الأوان.

(12) مطربة عراقية 1921 ـ 2012

الفصل العشرون

صورة أخيرة

يد تتكئ على كتف كرسي من خشب الصاج، ورأس مثقل بالهم يستند فوقها.

في تلك الأعوام كان اللون الكاكي يسفّ كالرمل على وجه المدينة، وشعارات الحرب تهدد سكون الأزقة وتلوث جدران الحواري. طبول وبيارق وقبضة عسكرية تلكم كل ما هو مدني ومسالم. حتى تلك الجسور التي تمتد بصبر فوق دجلة، باتت تؤرقها عجلات العسكر وصور القادة.

كان العم خليل وقتذاك منشغلًا بنسخ أرشيفه الكبير وتصديره نحو مطبعة السلام، في تصرف غريب لم يكشف عن دواعيه رغم سؤالي المتكرر. ما يثير الاستغراب ويرسم علامات الدهشة، أن صالح، هو الآخر كان يأبى الإفشاء عما يدور في أروقة المطبعة متحججًا بعدم المعرفة. علمًا بأنه كان بيت أسرار صاحبها، والعامل المدلل عنده. لقد دفع الرجل لأجل عدم ذهابه إلى الحرب مبلغًا كبيرًا من المال. رشوة دسمة دسها في جيب أحد ضبّاط الميرة جعلت من صالح جنديًا في بغداد، في إحدى مطابع وزارة الدفاع، يذهب في السابعة صباحًا ويعود في الثالثة ظهرًا وكأنه موظف في الجامعة. ليس هذا فحسب، بل تكفل بزواجه وكراء منزل صغير.

ما زلت أتذكر عرس صالح، المناسبة التي التقطت فيها أول صورة زفاف في حياتي. كانت تلك الصورة هديتي لهما بعدما طبعتها بعناية وأحطتها ببرواز مميز. لقد أنقذني التصوير كما يفعل دائمًا، إذ لست بارعًا في اختيار الهدايا، كما لا أجيد حضور الأعراس والمناسبات السعيدة، أشعر بالحرج ويتلعثم لساني. أما عندما أنجبا طفلهما البكر، فلم أضع، كما يفعل الناس، تحت وسادته ورقة نقدية، ولم أحمله وأردد التمائم مستعيذًا بالله من الشيطان

ورفاقه.. ما دخل الشيطان بعجينة لم تفتح عينيها بعد؟! لقد اكتفيت بالنظر باسمًا في عيني المولود وتمرير يدي فوق قماطه الأبيض. وبعدما شربت كأس عصير بالمناسبة، دفعت نحو صالح مظروفًا يحتضن بطاقة أبوة. كانت صورة أب يمسك بيد ولده ويسيران في طريق طويلة. وعلى الظهر كتبت بقلم الحبر: عزيزي صالح،

ما دامت الحياة قد أهدتك ولدًا، فاقبل مني هاتين النصيحتين: الأولى: مهما حصل، لا تقل له يا فاشل.

الثانية: لا تنسَ النصيحة الأولى.

قرأها وابتسم دون تعليق، وفي صبيحة الغد، ذهب إلى دائرة النفوس واستخرج لصغيره بيان ولادة.. أسماه نجاح.

بحثت كثيرًا عما يشبع فضولي حول رحلة الصور نحو مطبعة السلام، مئات من الصور الرائقة التي لا يصدق من يراها الآن بأن أصحابها قد سكنوا ذات يوم هذه المدينة المكدرة بأخبار الحرب، لكن دون جدوى.

دخل العم خليل إلى الأستوديو ذات صباح، وقد أطبق المزاج الملول على قسمات وجهه وأطراف شفتيه إلى حد أنه نسي إلقاء التحية. جلس مطلقًا العنان لدخان السجائر يتراقص أمام جبينه ويخفي التماع عينيه. نطق أخيرًا: ـ جهّزت الصور؟

ـ أجل، جاهزة.

ـ أين هي؟

ـ تجدها عندك في الدرج الأخير.

أخرجها، وشرع بالتقليب.

ـ كم هذه؟

ـ عشرون.

ـ والباقي؟

ـ أحتاج إلى الوقت، الصور كثيرة.

ـ أسبوع يكفي؟

ـ يكفي.

ـ حسنًا.

دس الحزمة في جيب سترته وغادر صوب المطبعة. أما أنا، فعاودت عملي؛ أبدلت مصباحًا كان قد انتحر في صالة التصوير، وعرجت إلى الأعلى لجلب صور الزبائن. كانت ثلاث صور أنجزت طباعتها في الليل؛ واحدة لجندي يهبط شارباه أسفل حنكه، وأخرى لامرأة بلا كُحل ترتدي حجابًا وثيابًا سوداء، وثالثة لرجل مسن. أنزلتهن من الحبل وحشوت كل واحدة في مظروف، ثم خرجت لطلب قدح من الشاي. مرّ في الأثناء بائع السميط، فأوقفته، اشتريت منه واحدة، تناولتها مع الشاي، وأردفتها بسيجارة. بعدها جاء رجل متعب، على جبينه خرائط من الحزن. كان يحمل صورة بالأسود والأبيض لضابط بنجمتين. طلب مني تلوينها وإضافة سطر تحتها: «الشهيد الملازم أول وسام ثامر النجار. تاريخ الاستشهاد 13/11/1981». تناولت الصورة من يده وقطعت له موعدًا بعد يومين، وحالما ذهب، باشرت بمنح الموت لون حياة زائف.

كنت أعمل وفي صدري تجول كلمات الشكر لذلك المشرد السكير، الذي لولا طعنته، لأمسيت حطبًا لحرب ضروس.. حرب قاسية لا ندري لمَ بدأت ومتى ستنتهي!

مضى بعض النهار وعاد العم خليل من المطبعة. جلس جانبًا، على أريكة الزبائن، وطلب الشاي كالعادة.

ـ على عيني، أجبته وخرجت.

لو صام العم خليل عن شرب الشاي شهرًا واحدًا لفاض لديه من المال ما يكفي لتشييد فندق بتسعة طوابق.

نادى خلفي:

ـ كعكة، بطريقك.

رفعت صوتي:

ـ حاضر.

عدت له بالكعك والشاي، فباغتني: ـ هل تشعر بالسعادة؟

جلت النظر في عينيه، ثم وعلى طريقته القديمة في التعامل مع مواقف كهذه، رحت أهشم حائط الوجوم بمعول المزاح: ـ كيف لا أشعر بها وأنت معي؟

ـ أجبني بلا مراوغة، كيمو.

ـ حسنًا، السعادة مفهوم نسبي، يختلف من شخص إلى آخر، بعضهم يكفيه ركوب دراجة هوائية ليكون سعيدًا، وبعضهم يحتاج إلى معجزة للفرح..

قال وهو يغطس الكعك في الشاي:

ـ آه! وهل ركبت الدراجة الهوائية في حياتك؟

ـ أجل، ركبتها مرة وكاد الأمر يفضي إلى حرب أهلية.

بانت على وجهه تباشير ابتسامة، فقررت ألا أفوت فرصة تحسين مزاجه، ورحت أقص عليه ما جرى في ذلك اليوم البعيد. كنت إذ ذاك جالسًا في باحة المنزل أقضم ثمرة طماطم وأحدّث جانيت عن حلمي في اقتناء كاميرا، وفجأة جاء ريمون وبيده خمسة فلوس. قال إنه يريد، وبأمر من أمه، أن أشتري له الدوندرمة (13). غسلت فمي بالصنبور، الذي لم يكن محكمًا ويصنع في الأرض ساقية نحيلة، ثم خرجنا إلى الطريق ولحقنا بالبائع. كان يجول بعربته الأزقة مناديًا بما يثير شهية الصغار: «دووووندرمة.. باااارد وطيب». وكان يمط الحروف ليمنح النداء لحنًا مميزًا من شأنه البيات في شعاب الذاكرة. أوقفناه واشتريت واحدة لأخي، لكننا لم نعد صوب المنزل، إذ تحايلت عليه وأقنعته باستخدام باقي المبلغ في ركوب دراجة هوائية.

كان في ظهر المحلة ورشة لتصليح وتأجير الدراجات، يمتلكها شخص عبوس من أولئك الذين يظنون بأن الخلائق مدينة لهم بالفضل. وافق ريمون على اقتراحي بود، ودفعت لصاحب الورشة ثلاثة فلوس مقابل ساعة. ناولنا دراجة هوائية بعدما ضبط الهواء في إطارها الخلفي، وقال محذرًا: ـ إياكما أن تتأخرا.

ـ حسنًا.

أمسكت بالمقود وسيّرتها مشيًا ريثما نغيب عين الرجل، ثم امتطيتها فسقطت وأدميت ركبتي. تلتها عدة سقطات حتى نجحت في النهاية. كنت خائفًا أمسك بالمقود بيدين مرتجفتين، أما ريمون الذي أردفته خلفي فيتشبث بخاصرتي. استقرت الدراجة على الإسفلت أخيرًا واكتسحني ذلك الشعور بالسعادة، سعادة أن تقود دراجة للمرة الأولى في حياتك. مضينا إلى مركز المدينة، وانعطفنا صوب شارع العدالة وكانت سينما الحمراء تعلق عند المدخل ملصقًا لفيلم إيطالي. صورة كبيرة مرسومة بالألوان لرجل راكع أمام امرأة نصف عارية، وفي الأسفل مكتوب بحروف كبيرة: «الأمس، اليوم، غدًا». نزلنا من على ظهر الدراجة وتسمّرنا ننظر بذهول كالحمقى، وفي الأثناء جاء موظف أصلع يرتدي نظارة طبية

جعلت بؤبؤ عينيه بحجم بعوضة. كان يحمل بيده صفيحة معدنية، وضعها قرب لوحة الإعلانات، ثم اعتلاها وتنحنح ليتلو على المتجمهرين بعض أحداث الفيلم تشويقًا لرؤيته: «الأمس، اليوم، غدًا.. بطولة صوفيا لورين، مارسيللو ماسترويواني. من الفيلم: زوج عاطل عن العمل وزوجة تبيع السجائر في السوق السوداء. يتم الإمساك بالزوجة ويحكم عليها بغرامة مالية. تتضاعف الغرامة وتهدد بالسجن. لكن القاضي لا يسجن المرأة ما دامت حاملًا أو مرضعًا، مما يضطر بطلة فيلمنا المصون إلى الحبَل سبع مرات متتالية، فينهك الزوج تمامًا».

قاطعه واحد من الجمهور:

ـ آه يا مسكين! وماذا حصل؟

ـ عندما صار الزوج منهكًا وعاطلًا وقعت الزوجة بين خيارين؛ إما الإنجاب من صديقه، أو دخول السجن.. فماذا قررت؟

ـ إيه، وماذا قررت؟

ـ ادخلوا الصالة كي تعرفوا.

ثم حمل الموظف صفيحته المعدنية ودخل تاركًا خلفه سيلًا من التوقعات وبلبلة لا نهاية لها. قال أحدهم إن البطلة ستصون زوجها، وقال آخر إنها ستخونه ما دامت معتادة على السوق السوداء، لكن شخصًا ثالثًا مربوعًا بملامح قاسية وحاجبين كثيفين أدار دفة النقاش مردداً: ـ ستدخل الزوجة النار إن فعلت ذلك، الخيانة حرام.

فردّ عليه آخر:

ـ ما أدراك يا أخي؟! ربما يغفر لها الله.. الله أرحم الراحمين.

ثم تقدم شخص ناعم ليقول بهدوء مفرط: ـ على مهلكم، على مهلكم، الزوج هو من سيدخل النار في رأيي، لأنه السبب في دفع الزوجة المسكينة نحو الرذيلة.. الزوج هو ابن الكلب، صدقوني.

ليجيبه المربوع ذو الحاجبين الكثيفين: ـ بل يدخل النار لأنه راكع أمام عاهرة. ألا تشاهد الصورة؟ هل أنت أعمى؟

وحينئذ هتف شخص من هناك بأن مصير البطل بيد المخرج وليس بيد الله، ليجابه بزوبعة من الاستغفار والاعتراضات: ـ استغفر ربك يا رجل.

ـ ماذا تقول يا كافر؟!

ـ اخرس يا عدو الله.

ارتفعت الأصوات واحتد النقاش، فأمسكت بريمون والدراجة وانزحنا إلى الخلف. تحول الأمر بعد ذلك إلى تشابك بالأيدي كاد يفضي إلى احتراب داخلي. لكن شخصًا ثملًا تفوح من ثيابه رائحة الخمر هو من أخمد الفتنة، إذ أخرج من جيبه زجاجة عرَق وصفع بها وجه الأرض صارخًا: «هوووووي» فتوقف الجمهور عن ضرب بعضهم والتفتوا نحو مصدر الصوت. اعتلى الرجل على كتف صاحبه وألقى خطبة موجزة بلسان أثقلته الثمالة: ـ اسمعوني يا ناس، أنا لم أشاهد الفيلم بعد، لكني أود القول بأن الأمر بسيط ولا يستحق العراك، هم في إيطاليا ونحن في العراق، إذا دخل مارسيللو الجنة فبالخير والبركة، أما إذا دخل النار من أجل صدر صوفيا لورين فأنا على دين مارسيللو.

ضحك الناس حينها وتصالحوا وقبّل بعضهم بعضًا، ثم دق جرس السينما ودخلوا جميعًا لمشاهدة الفيلم. أما أنا فرجعت بأخي إلى المحلة وأعدت الدراجة إلى صاحبها، ليقرص أذني عقابًا على التأخير بضع دقائق.

شكرًا لله أني رأيت العم خليل يضحك أخيرًا، لكنه سرعان ما صمت وعاد الذبول يكسو وجهه قائلًا: ـ حين تغادرنا السعادة، فإن كل ما نعيشه بعدها لا يعد مغريًا.

هاجمتني رغبة شديدة في تصويره. كانت يده مستريحة على كتف كرسي نحيل، وقد أسند حنكه فوقها. أما عيناه فترنوان نحو العدسة بنظرة فيها الكثير من اللوعة والأسى. كبست على زر الكاميرا ولم أكن أعلم بأنها ستكون صورته الأخيرة!

قلت له:

ـ صورة عظيمة.

فقال بيأس وهو يشعل سيجارة:

ـ ضعها على قبري.

رددت مشفقًا:

ـ عمرك طويل يا عم.

فقال:

ـ طويل أو قصير.. لكل قصة نهاية، المهم أنك لا تنسى إعطاء باقي الصور إلى الأستاذ فوزي.. لعل اسمي يخلّد في متحف السلام.

ثم علّق كاميرته وخرج ليغوص في الأزقة ولم يعد!

(13) مثلجات محلية يتم إعدادها بخفق الحليب في وعاء معدني كبير غاطس في الملح.

الفصل الحادي والعشرون

متحف السلام

في الباب الشرقي، حيث الأرصفة المفروشة بالبضائع وزحام الأرجل بين نداءات الباعة وخفة النشّالين، سقط العم خليل صريعًا دون إنذار مسبق. كان خبر موته بالنسبة لي بمثابة وقوع صخرة على هامة فأر مذعور. وصلت المشفى فزِعًا ووقفت على باب ثلاجة الموتى باكيًا ولساني يطلق عويلًا يعزّ على الآخرين فهمه، أما رأسي فكان ينوء بوجع غريب. اقترب مني آنذاك موظف، على جبينه أثر واضح للسجود، حوقل مرتين أو ثلاثًا مذكّرًا بأنّا لله وأنّا إليه راجعون، ثم قال بصوت مطمئن يناسب الإدلاء بالوعظ والنصيحة: ـ الله يرحمه، ادع له بدل أن تبكي، البكاء لا ينفع الموتى.

ـ لكنه ينفع الثكالى، وددت القول لو استطعت.

مسّد على زندي وطلب مني مرافقته. تبعته إلى غرفة تشبه المخزن. سلّمني محمولات العم خليل وطالبني بالإمضاء في سجل رسمي. كاميرا وثلاثة دنانير وحذاء مثني من الخلف، يا لها من تركة خفيفة! حملتها وغادرت الغرفة، ليمضي الموظف بالجثمان إلى المشرحة. وفي صبيحة الغد أعانني صالح على إتمام الدفن.

من قسوة الموت أنه لا يكتفي بسلبنا من نحب، بل يجبرنا على دسّهم في التراب وكأنهم أسمال فائضة عن الحاجة!

ها أنا ذا أدس العم خليل رفقة كاميرته في التراب، وها هو ذا ينسل بهدوء نحو مثواه الأخير مشرّعًا خلفه باب الوحدة من جديد. قضيت المساء وحيدًا في الأستوديو أقلّب في إرثه الصوري الكبير والذي كان عليّ طباعة نسخة منه حسب الوصية. مئات من الصور

بالأسود والأبيض وثقت بعين فنان ماهر، شعرت وأنا أقلب فيها بأن بغداد بأسرها تنام بين يدَي. العمائر، المنائر، الجسور، القباب، المدارس، الأسواق، الشوارع، الأزقة، المشربيّات والوجوه الحائزة على ثلث تلقائية الكون. لا أدري أنى لهؤلاء الكسبة والحرفيين والعتّالين والسابلة والأفندية ورواد المقاهي، بكل هذه التلقائية أمام العدسة! كما لا أدري أي سحر وضعه الله في عباءات النسوة المارات في أسواق القماش ولدى محال العطارة! ألهذا الحد كنتَ بارعًا في التقاط الصور يا عم؟! أم هي بغداد التي ما خلق الله الكاميرات إلا لأجلها؟!

علّقت على باب الأستوديو لافتة نعي سوداء، وأقمت له في جامع العاقولي مجلس عزاء، حضره رفاقه وزملاؤه في المهنة وأصحاب المحال المجاورة للأستوديو وجيرانه في محلة باب الشيخ. كان من بين الحاضرين الأستاذ فوزي المطبعجي، الرجل الذي رغم أريحيته، لم أكن أطيقه، إذ يذكرني بنادية وساعة الخذلان. لقد بدا الأخير متماسكًا، همس في أذني كلمات العزاء ثم قال مسترسلًا: ـ بني كمال، لستَ وحدك، إذا احتجت شيئًا فلا تسأل غيري، أنا مثل عمك ههنا.

أجبته:

ـ شكرًا، أستاذ، الله يحفظك.

فعقّب:

ـ لا شكر على واجب، أنت وصية المرحوم.

وأردف قبل أن يغادر:

ـ بعدما ينتهي العزاء، مرّ لي في المطبعة، لك عندي أمانة.

لكنه استشعر، كما يبدو، غصة الحزن في صوتي، فأضاف وهو يضغط بكفه على كفي: ـ لا تحزن على عمك، فقد استوفى حقه من الحياة.

لحقته عند الباب:

ـ كيف يستوفي المرء حقه من الحياة؟

ـ حين يغادرها في المكان الذي يحبه.

عدت واتخذت موقعي لدى عتبة الجامع؛ أستقبل معزيًا وأودع آخر. التأثر ظاهر للعيان والوجوه يعتليها حزن شفيف، فالفقيد، قبل أن يغدو فقيدًا، كان كائنًا مسالمًا منزوع العداوات وصديقًا قريبًا من الجميع. غير أن ما أثار انتباهي حقًا الشاب الواقف على مقربة مني لاستقبال المعزين؛ كان يبكي بحرقة وكأنه فرد من العائلة! أنا في الواقع، لم أره من قبل، كما لا أعلم بأن للعم خليل أقاربَ يبكونه. أخبرني ذات مرة عن ابن عمه الذي يعيش في مدينة خارج بغداد، وقد قال وقتها بأنهما ليسا على وفاق، وأن بينهما ما صنع الحداد.. فمن يكون هذا؟!

دنوت منه، بعدما فرغ المجلس، فبادرني بصوت خفيض ناقع في الأسى: ـ الله يرحمه، كان يحبك كثيرًا يا كمال.

قلت باندهاش:

ـ هل تعرفني؟

ردّ الشاب:

ـ كيف لا أعرفك؟! كان المرحوم، عمّي، لا يمل من الحديث عنك عبر الهاتف.

ثم راح يعرفني على نفسه:

ـ أنا شكيب بن الحاج غفوري. المرحوم يكون عمي، ابن عم أبي.

أخرج منديلًا، مخط فيه وواصل:

ـ أوصاني أبي قبل انتقاله إلى ربه بالتواصل مع عمي خليل، وها هما قد رحلا. كم تمنى أبي أن يشم رائحته قبل أن يموت.. الفاتحة إلى روحهما!

ورفع يديه لقراءة الفاتحة.

لقد خالجني شعور بأني أجالس نصابًا كبيرًا، لكني لا أملك دليلًا يفقأ عين الشك. «يا ترى، من أين جاء ابن الساقطة هذا وماذا يختبئ وراءه؟» تساءلت في طريق العودة إلى الشقة. كان الليل قد هبط فوق المدينة وأفنى ساعات العزاء. الحياة لمن بقي، والوقت كفيل بالنسيان.. يا لأنانية الوجود! مررت بالحانة وابتعت ربع زجاجة من العرَق، ثم توقفت لشراء الجبنة والزيتون، الأكلة المفضلة لدى العم خليل رحمه الله. كثيرة هي الليالي التي كان يتأخر فيها للعمل، والتي نتشارك فيها طعام العشاء. كان في كل مرة يسألني وكأنه الضيف وأنا صاحب الدار: ـ متى تأتي الجبنة والزيتون، سيد كيمو؟

فأجيبه مشاكسًا:

ـ اسأل جيبك يا عم.

يضحك ويناولني النقود مردفًا شتيمة ألذّ عندي من العسل: ـ ملعون!

كان يحرص، قبل البدء بتناول حبات الزيتون ومص زيتها، على قضم حواف الخبز المحروقة بلهب المدفأة.

يا الله، كم كانت الأيام، رغم بساطتها، هانئة! لكن بعض الهناء كالضوء لا نعرفه ما لم تعشِ الظلمة الأعين ويلبّد العمى صفو الرؤية. لقد انتهى كل شيء، وما هي إلا أيام ويسلبني الشاب الغريب حق البقاء بين جدران تشبّعت بأنفاس العم خليل.. أراهن بحياتي على أنه سيفعل.

دلفت إلى الشقة وكانت باردة تلاعب الريح ستائرها. حشرت قلمًا في عروة النافذة وأحكمت إغلاقها، ثم أوقدت المدفأة وسخّنت الخبز. وقفت عند الطاولة الصغيرة أفرغ الزيتون في طبق، والجبنة في آخر بعد تقطيعها إلى مكعبات صغيرة، وجلست أتعشى. كان مجرى الطعام ضيقًا ومليئًا بالغصّات. أزحت الأطباق جانبًا وأدنيت زجاجة العرَق، كاسرتها بالماء كما يفعل أبي، وشربت كأسي الأولى بلا مزّة وطنية مثل الجاجيك أو الباقلاء بالبطنج أو الحمص المطبوخ كأضعف الإيمان. كان المذاق حادًا وسيئًا، أقرّ بذلك، لكني، ولرغبةٍ في المواصلة، عصبت الذنب في رأسي: ـ العرَق لذيذ يا هذا، أنت من لا يميز طريق اللذة.

ـ حسنًا، دعني أرى.

سكبت كأسًا ثانية وتناولت زيتونة، ثم أردفتها بكأس ثالثة تكفّلت بتبديل الرأي وانقلابه. لم يغد العرَق لذيذًا فحسب، بل شرّع النافذة وأدخل منها طيف زائر. زائر ثقيل وقف على رأسي مطوقًا خصره بيديه، وفي فمه عقب سيجارة مشتعل. لكزني بقدمه: ـ لماذا تشرب العرَق يا ساقط!

ـ لأن الولد على سر أبيه.

بصق عليّ وشتم أمي كعادته واختفى، فواصلت الشرب حتى فرغت الزجاجة وانطفأ مصباح الوعي. لا أتذكر ما حصل بعد وشالة الكأس الأخيرة، إذ استيقظت عند العاشرة صباحًا لأجدني غارقًا في القيء والبول. كششت نثار الأطباق المهشمة ونظفت الأرض من مخلفات السكر، وتناولت حبتَي أسبرين. ثم وبعد ساعات جاء اللعين وفي فمه ما راهنت على سماعه: ـ آسف لأني أقول هذا يا عزيزي؛ عليك إخلاء الأستوديو وتسليمي المفاتيح.

ـ ألا ترى الوقت مبكرًا؟

ـ الحق معك، لكني مضطر لبيع الأستوديو وتسديد ما في ذمة عمي رحمه الله من ديون.

ـ ديون؟ لا أعرف بأن المرحوم مدين لأحد!

ـ هذا لأنك لست من العائلة.

أبرز لي هويته كمن يقول: «شكك ليس في محله.. خذ تأكد بنفسك». وكان مصرًّا على البيع. رجوته أن يمهلني أسبوعًا واحدًا ريثما أجد لي فندقًا رخيصًا يأويني. كنت بحاجة لكسب الوقت من أجل التحقق ليس إلا، فصنع هوية مضروبة لا يحتاج إلى شهادة في الفيزياء على أية حال.

زفر هواء الملل وقال:

ـ حسبي الله! حسنًا، أسبوع واحد لا غير.

لا أدري لمَ يكرر هذا النصّاب ذكر الله؟ مع أنك لو سألت حمارًا معصوب العينين عن رأيه فيه لقال: نصّاب وابن كلب.

ـ يكثّر خيرك.

لكن ماذا أفعل؟ كيف أثبت زيف الدعوى؟ وبماذا أجيب لو سألني ضابط الشرطة عن صلة القرابة بالمتوفى؟ جلست حائرًا أفكر، وعندما تعذر الجواب انغمست في العمل. أخرجت ألواح النيغاتيف التي أوصى بطباعتها العم خليل، ودلفت إلى الغرفة الحمراء، ملأت الأواني الصغيرة بالمحاليل ومضيت أكشف عما تخبئه الألواح واحدة تلو الأخرى. استمر الحال ثلاثة أيام، تزاحمت فيها الصور على خيوط الغسيل العابرة بين الجدران. انتظرت حتى جفت، ثم حملتها صوب مطبعة السلام للقاء الأستاذ فوزي المطبعجي. شعرت حينها بأن الوقت مناسب للشكوى، وأن المسألة مهما كبرت لن يتوانى عن حلها، غير أنه باغتني: «لم تسأل عن الأمانة إذن!» ثم سلّمني مظروفًا يحتضن وثيقة تجيز لي ركل شكيب على مؤخرته دون استئذان.. كانت وصية مختومة من كاتب العدل تقول إني، ومن الآن، أصبحت المالك الشرعي للأستوديو!

ـ رحمك الله يا عم خليل، تمتمت وفي فمي ابتسامة حزينة.

هزّ الأستاذ فوزي رأسه كعلامة على معرفته بالأمر، ثم قال وهو يمد يده نحو العلبة الزرقاء فوق المنضدة ويخرج منها سيجارتين: ـ سنخلّد اسمه.

قدّم لي واحدة وأشعلها.

ـ خليل أفنى حياته في تدوين ذاكرة الناس والمدينة، وحان لهذه المدينة أن تكرّمه.

ـ وما نفع التكريم بعد الموت؟!

ـ نفعه ألا تجف الذكرى كما جف خيط العمر وتيبس.

في الواقع، كان اختلاط مشاعري بين الفرح بامتلاك الأستوديو وبين الحزن على صاحبها، قد فوّت فرصة السؤال عن نوع التكريم. لكن الرجل بادر قائلًا: ـ سأخصص لأعماله جدارًا كاملًا في المتحف.

ـ آه، تقصد متحف السلام؟

ـ أجل، هو ذلك، لا بد وأنك سمعت به من المرحوم.

ـ ذكره مرة بلا تفاصيل.

ـ هذا صحيح، لأننا اتفقنا على السرية ريثما نتحصل على الموافقات الرسمية.

فكرت في مكان المتحف، فسألته:

ـ أين؟

أجاب بنبرة لا يعوزها الفخر:

ـ هنا، سوف أحوّل المطبعة إلى متحف؟

ثم قال بين الكلام:

ـ يريدون قتل المدينة، وعلينا حمايتها.

ـ عذرًا، ماذا تعني؟

ـ أعني بأن ماكينة عملاقة تعمل الآن على محق الذاكرة، والمدن تموت حين تُمحق ذاكرتها.. ما رأيك؟

شعرت برائحة السياسة تفوح من كلامه، وندمت لأني سألته عن مكان المتحف، فأنا لا أطيق السياسة، بل لا أدري كيف لشخص عاقل أن يدس رأسه في كيس الوحل هذا؟!

ـ آه، نعم نعم! أجبت بلا إطالة، ثم استأذنته عائدًا إلى الأستوديو الذي غدا، بعد رحيل العم خليل، موحشًا كالمقابر.

كانت عجلة الأيام تدور بكسل، والليل لا ينقضي ما لم تنغصه الأطياف والكوابيس. كل الصور أمست بلون الموت، حتى تلك التي لا تحمل أكتافها الأشرطة السوداء. ليس وحده الأستوديو من نغصّه الفقد، بل شارع الرشيد بأسره أمسى بالحرب وأخبارها باهتًا وكئيبًا. ولولا أن تحصل الأستاذ فوزي المطبعجي على الموافقات الرسمية أخيرًا، وأعلن عن افتتاح متحف السلام، لمات الشارع وجف ضرع المدينة.

حدث الأمر في السادس من تشرين الأول عام 1984م. في ذلك اليوم اصطف طابور طويل على باب البناية التي ارتدت ثوبًا جديدًا كالعرائس. كانت أعلام البلاد ترفرف بزهو فوق الأسطوانات، وعلى الجدار، أعلى المدخل، تنط حروف بارزة من الآجر: متحف السلام. ستشاهد، وأنت داخل مع الداخلين، صورًا كهلة لبغداد العشرينيّات معلقة على جنبتَي الرواق، وستلحظ بأنها تصغر في السن كلما توغلت في بطن المبنى. تماثيل نصفية من

الجبس شُتلت هنا وهناك، وأخرى على هيئة رقع رقمية نقشت فوقها بإتقان عجيب تفاصيل المدينة وتضاريس الوجوه. كانت الأروقة مزدحمة بالزائرين، والأستاذ فوزي، ببدلته البيضاء، ينثر كلمات الترحيب. أنغام العود والجوزة والسنطور تمطر من مكبرات صوت معلقة في زوايا السقف، وفتيان مهذبون يقدّمون العصير والحلوى. أما صالح، فيحرص على التقاط الصور بواسطة كاميرا من تلك التي تعمل بتقنية الفيلم.

لم أر شارع الرشيد، منذ أعوام، بهذا الفرح، ولم أعش يومًا نُسي فيه حديث الحرب كذاك اليوم. حتى المخبرون السرّيون، الذين جاءوا لحشر أنوفهم بين دهاليز الكلام وتدوين كل حرف في تقاريرهم السرية، كانوا سعداء إلى حد افتضاح أمرهم وانكشاف ما حشر في خواصرهم من أسلحة خفيفة. لقد كتبت الصحف الكثير عن متحف السلام ونعتته بالصرح الفني، وأمسى اسم صاحبه يتردد على الألسن، بينما ظل الزائرون يرتادونه على مدى عام ونصف العام تقريبًا. لكن ثعلبًا تم توزيره آنذاك، كان قد تنبّه إلى خطورة الأمر، فأوصى بإغلاق المتحف ومقاضاة فوزي المطبعجي بتهمة التخابر.

ما زلت أتذكر اليوم جيدًا؛ موظفان حكوميان يضعان الشمع الأحمر على الباب، برفقة عناصر من الشرطة، والناس يراقبون بخوف وفزع، حتى أن قرار الإغلاق لم يفعل بي وقتها ما فعلته صفرة الخوف على وجوه سكان شارع الرشيد، وهمهماتهم التي باتت لا تفهم. مضى الشلل إذ ذاك يصيب الشارع، ودخان الحزن يتصاعد لفقد المتحف، ويتكاثف مع خبر إعدام صاحبه والحكم بالسجن على موظفيه. أما الصحف التي مجّدت المشروع ذات يوم، فقد انقلبت عليه واصفة إياه بالمشروع الإمبريالي الهادف إلى تقويض همّة الشعب في حربه العادلة. كان من بين ما نشر، مقال طويل كتبه أحد الصحفيين المقربين من السلطة، قال فيه إن المدنيّة المفرطة لمعروضات متحف السلام إنما تظهر المجتمع خانعًا لطيفًا محبًا للحياة، وهذا لا يليق بصورة العراقي!

في الواقع، لم يكن المقال مفاجئًا، فالعراقي لدى هؤلاء المرتزقة مقاتل بالفطرة يصنع التاريخ بسيفه فحسب. كانت الديباجة الرسمية للصحف والأخبار تقول بأننا شعب خُلق

ليموت، وأن كل فرد يحمل هوية الأحوال المدنية العراقية هو مشروع شهيد. النصر أو الشهادة، لا خيار ثالث لديك يا ابن القحبة. حتى الأغاني كانت مضرجة بدماء المعركة. ليس مهمًا لديهم إن عدت من الجبهة حيًا تتنفس، أو جثة متفحمة، أو مخلوقًا منقوص الأطراف، كما ليس مهمًا إن ترملت حبيبتك أو توسدت أمك ليل المقابر، المهم أنك مقاتل صنديد تنتمي لشعب عظيم؛ شعب جبّار يمشي إلى الحرب وهو يغني.. يا لبؤسنا!

ما آلمني في تلك الأيام البائسة، أني لم أكن قادرًا على زيارة صالح في السجن، فزيارة هكذا نوع من السجناء كانت بمثابة عيادة لمرضى الجذام؛ لن تخرج معافى من التهم. حتى عائلته، لم أستطع، لفرط الخوف، الوصول إليها سوى مرة واحدة. كانت غيمة من الأسى تخيّم فوق بيته الصغير، كما هي الحال في شارع الرشيد، الذي خبا ألقه وانطفأ بإسدال الستارة على متحف السلام. لقد ظلت الأبواب مؤصدة ريثما انتهت الحرب وعاد الجنود من الجبهات. حينها أزيل الشمع الأحمر وشُرّع باب المتحف من جديد، لكن ليس لاستقبال الزائرين، بل لاحتضان شلّة أوغاد سيجعلون منه طبلًا لحروب لاحقة.

الفصل الثاني والعشرون

وكر الأوغاد

حروبنا كالسجائر؛ تشتعل من أعقاب بعضها!

خمدت حرب واشتعلت أخرى بلا فواصل، ولا أحد يدري كيف ولماذا!

ما زلت أجهل سر توقنا للحرب وحرصنا على اقتناء السلاح وحفظه تحت الأسرّة وفي خزائن الثياب. لسنا منحدرين من سلالة الفايكنغ، كما لا نسب يربطنا بهولاكو ولا حتى الساموراي.. نحن شعب مسالم، آلهتنا من طين يذوب رقة للمطر، وجدنا العظيم يبكي كالطفل لفقد صديق ثم يهيم مجنونًا في الفلوات بحثًا عن عشبة للخلود. كان ديننا المحبة وصلاتنا الحراثة، نقدس النخلة ونربي الحمام فوق الأسطح، كما نروّض الثيران ونمنحها الأجنحة.. فمن أين جاءنا حب الحروب والشوق لسماع طبولها؟!

لقد هُتك ستر متحف السلام وتناوب عليه أوغاد كثيرون. تحول، بادئ الأمر، إلى ملتقى للردّاحين ممن يجيدون مديح المعركة وتجميل قبحها. ولأن هؤلاء السفلة مسنّدون على حائط السلطة، مُنحوا بدل الأقلام مخالب. كانوا لا ينظمون الردح فحسب، بل يثقبون صحائف الحماسة تمجيدًا بالحرب وصاحبها، وما عليك أيها القارئ سوى الإصغاء من سكوت. لم يكن حينها الكلام متاحًا، فمخالب الأوغاد جارحة، ومع القصائد تُغزل تقارير الهلاك. لهذه الأسباب كان الصمت يحكم قبضته على سكان شارع الرشيد، وطائر الخوف يعشش في صدورهم ويبني عمائر الخنوع. المقاهي، هي الأخرى أمست أعشاشًا للشك والريبة بعدما امتلأت بالمخبرين السريين والمراقبين من ثقب الجريدة. حتى باعة الرصيف، غدونا لا نطيل الوقوف أمام بضائعهم، وإن فعلنا ذلك، اجتنبنا حديث السياسة كحد أدنى. لقد فقدنا الثقة ببعضنا، وهذا أسوأ ما تفعله الحرب.

في تلك الأيام، مرضت مهنة التصوير وامتلأت الأسواق بكاميرات الفيلم الرخيصة. بعض المصورين، ممن يملك المال، حوّل الأستوديو إلى مختبر للطباعة، وبعضهم إلى محل لبيع الكاميرات، بينما اكتفى القليل بانتظار رزقه من صور التخرّج وصور الأصدقاء، أولئك الذين يحبذون الوقوف أمام العدسة ويد أحدهم على كتف الآخر. أما أنا، فانشطر الوقت لديّ إلى شطرين؛ الصباح في الأستوديو، وما بعده أقضيه متجوّلًا بكاميرا فورية تحت نصب الحرية وفي حديقة الزوراء. لم أكن لوحدي، بل برفقة صالح، الذي غادر السجن أخيرًا وجاء قاصدًا صاحبه القديم. كان عوده يومها ذابلًا وبشرته باهتة إلى حد أني ظننته مريضًا بالسل، غير أنه، وهذا ما جعلني مطمئنًا عليه، بدا محتفظًا بالمرح وكثرة المزاح. ضحكنا طويلًا وهو يروي لي حكاية رفيق الزنزانة الذي يحلم بالطيران لمسافات قصيرة حيث يخشى أن تكون السماء هي الأخرى ملأى بالخراء، وتذكرنا أيام الصبا والتشرد. أدخلته الصالة بعدما شربنا ألف قدح من الشاي، والتقطت له صورة ستذكره بحاله إثر سنوات قضاها، بلا ذنب، خلف القضبان. ولأنه بات عاطلًا عن العمل، ولأنه يهوى التصوير، أعرته إحدى الكاميرات، ومضينا نلقط رزقنا معًا، متحاشين حتى النظر إلى ملتقى الردّاحين.. متحف السلام سابقًا.

بعد عامين تقريبًا، انتقل الملتقى إلى بناية جديدة في حي المنصور، لكن المتحف لم يطهر، بل تعاقب عليه أوغاد آخرون، وغد يسلّم لوغد.. هكذا تؤول أحوال المتاحف حين تكون سائبة بلا حفيظ! تأسست جمعية خيرية تحت عنوان «جمعية أصدقاء الوطن». كانت غايتها جمع التبرعات من التجار والكسبة لتشييد قصور للدكتاتور. وحالما تحققت الغاية وارتفعت القصور، لملموا حاجاتهم وغادروا. عقبتهم جمعية لتحفيظ القرآن، جعلتنا نشاهد جحافل المؤمنين الصغار يرتادون الشارع بثيابهم البيضاء الناصعة وقلنسواتهم المحاكة من خيوط القطن الناعمة. كما صار معتادًا سماع التلاوات القرآنية بدل الموسيقى، ليس لساعة أو ساعتين، وهذا أمر يمكن احتماله، بل من الصباح حتى المساء. لقد تديّنت المدينة وارتدت ثوب الفضيلة، وبات سماع الموسيقى من المحرمات، أما الحصول على كأس من العرَق، فأبعد من لعق المرء لأنفه.

لكن رمال الزيف لا تشيّد منازل الدوام، إذ سرعان ما خبا وهج الفضيلة وغادر صبية الإيمان، ليغتصب المبنى قوّاد شرس. تاجر مدعوم بالمال والسلطة، جعل من متحف السلام عشًا للمزورين ومغسلة لتبييض الأموال.. وهكذا حتى سقطت جمهورية الخوف، وفرّ جميع الأوغاد، ليعود المتحف لاستقبال الزائرين. لكن من قال بأن الأوغاد ينتهون؟!

ذات صباح من صباحات أيلول 2006 كنت في الطريق إلى الأستوديو، أنظر من النافذة إلى غمامة الدخان التي خلفها انفجار قرب ساحة الطيران. إحدى يدَي تمسك بالمقود، بينما تمرّ الثانية حول رأسي للاطمئنان بأنه ما يزال في مكانه. كانت تلك عادة أمارسها كلما دوّى انفجار هنا أو هناك. لطمت المقود، وأزحت بصري عن النافذة، ثم رحت أهبط من الجسر وأتدحرج ببطء حتى وصلت حاجزًا أمنيًا. كان حاجزًا ثابتًا محروسًا بجنديين يعلقان على صدريهما بنادق مجهزة للإطلاق. لوّح لي أحدهما بكفه وطالبني بإشهار هويتي، ثم لكمني بسؤال روتيني: ـ إلى أين ذاهب؟

ـ إلى شارع الرشيد.

ـ شارع الرشيد مغلق، الدنيا محترقة.

ارتبكت قليلًا:

ـ ماذا تقول؟

ربّت على سقف السيارة مردّدًا: ـ توقف هناك.

ـ لماذا؟

ـ للتفتيش، طبعًا.

أدرت المقود باتجاه اليمين وسرت بروية حتى توقفت.

ـ أطفئ السيارة وترجّل بسرعة.

ـ حاضر.

نفذت الأوامر وابتعدت إلى الوراء، أراقب ما يجري.

تقدم جندي آخر، حاسر الرأس بسروال كاكي وسترة سوداء منزوعة الأكمام، كان يمسك بيده حبلًا مربوطًا برقبة كلب مدرب من نوع K9. فتح الأبواب وأرخى الحبل لكلبه المتحفز، ليشرع الأخير بالشمشمة بحثًا عن قنابل يدوية، أو أحزمة ناسفة، أو أي أداة من أدوات الموت العصرية، والتي من شأنها الفتك به وبنا في الحال!

يحزنني حال الـ K9 في بغداد وأشعر بأنها كلاب سيئة الحظ، جيء بها لتموت في الحواجز الأمنية ونقاط التفتيش، بينما ينعم أبناء جنسها بالأسرّة السعيدة على الضفة الأخرى من العالم!

حقًا، لمَ هذا الفحش في الاختلاف بين الضفاف يا ترى؟! أما حان لكلاب الضفتين تقاسم المرح؟!

«بُف.. بُف».. ـ نبح كلب الحاجز وكأنه وجد ضالته، وحاول الوثوب فوق الكرسي. كان يشير برأسه نحو ذلك الصندوق الصغير الذي تنام فيه بعض الأوراق الخاصة بالسيارة. شكمه الجندي وراح يعالج الصندوق ويخرج أحشاءه؛ إجازة قيادة منتهية الصلاحية وقسائم بيع قديمة وشاحن صغير للهاتف وقنينة كولونيا ريفدور شبه فارغة. لم يقتنع، وقال بعدما ارتجفت حواف فمه: ـ قل لي، ماذا تحمل؟

ـ لا شيء، والله لا شيء.

ـ سنرى.

شرع أبواب السيارة وأعاد التفتيش، ولم ينبح الكلب، فمازحته: ـ ألم أقل لك لا شيء؟ الكلب مشتبه يا عزيزي.

رد بلا شهيّة:

ـ ما شاء الله، دمك خفيف، حجّي!

وأردف:

ـ هيا اذهب من هنا قبل أن أحبسك.

لا أدري لمَ كل هذه الغطرسة؟! واجبك خدمة الشعب يا عزيزي، لا التبوّل على كرامته. ثم لمَ الإصرار على مناداتي بالـ «حجّي»؟ هل التقينا في الكعبة ذات يوم؟!

لكن، ما بالي كثير الاعتراض هكذا؟! أنا مواطن داجن، عليه أن يسير قرب الحائط وألا يقدم سوى أطباق السمع والطاعة.

ـ حاضر، أدرت المحرك ومضيت طائعًا.

كانت أوصال الطرقات مقطعة، ومقتربات شارع الرشيد متخمة بالزحام. أودعت السيارة في كراج يبعد مسافة ميل تقريبًا وسرت راجلًا إلى هناك. تفاجأت بقطيع من المسلحين يسدون منافذ الشارع، كانوا يرتدون ثيابًا سوداء ويطوّقون رقابهم بوشاح أحمر. أوقفني أحدهم ومرّ بيديه حول جسدي وبين ساقَي. لا أدري أنى له التخويل بالتفتيش، لكن من يعترض؟! فتش الحقيبة ليطمئن بأنها حقيبة كاميرا لا أكثر، قبل أن يسمح لي بالمرور. دلفت بحذر وكان المزيد منهم يصطف على ضفتي الشارع. سمعت جاري، بائع الكعك المنافق يخاطب أحدهم: ـ حيّ الله الرجال، قلوبنا معكم.

والأخير يرد عليه بأدب مصطنع: ـ الله يحييك، أخي.

فتحت الأستوديو ووقفت عند الباب أراقب ما يجري. وما هي إلا ساعة ونصف الساعة تقريبًا، حتى مرّت في الشارع عاصفة من المسلحين يطوّقون شخصًا يلوّح بكفين متعانقين. لم أستطع، لكثرة المتدافعين، رؤيته بوضوح، كما أن الجلبة والسلاح أفزعاني وأجبرت على القهقرة إلى الداخل. وفي الأثناء اقتحم صالح الأستوديو وهو يلهث.

كان يردد بارتباك: ـ شاحن، شاحن، أعطني شاحن.

سألته:

ـ من هؤلاء؟

ـ فرسان بغداد.

ـ من؟

ـ فرسان بغداد، ألا تعرفهم؟

ـ لا أعرفهم، من يكونون؟

ـ أشخاص مسلحون بثياب موحدة، فمن يكونون برأيك؟ ميليشيا يا أخي، ميليشيا.

ـ أفهم بأنهم ميليشيا، لكن الميليشيات كثيرة هذه الأيام، فمتى ظهر هؤلاء؟

ـ تستطيع القول إنهم ظهروا حديثًا.. لحماية بغداد.

ـ ما الجديد؟ كل من يود اغتصاب بغداد، يدّعي حمايتها!

انشغل صالح بلقم الشاحن بطارية الكاميرا من أجل إيصاله بالكهرباء، وحالما فرغ استأنفت الكلام بغية المعرفة: ـ حقًا، ما اسم زعيمهم؟

ـ طاهر الحنش.

ـ من؟

ـ الزعيم طاهر الحنش.

ـ لم أسمع به من قبل!

ـ ستسمع به كثيرًا.

ـ لماذا؟ هل اكتشف مرهمًا جديدًا للبواسير؟

ـ كلا، بل لأنه زعيمنا المنتظر.

ـ يا مرحبا! ولمَ كل هذا السلاح برأيك؟

ـ لا تخف، إنه لفرض الهيبة لا أكثر.

خالجني الشك في كلام صالح وأنه يسخر فحسب، فمنظر المسلحين وطريقة انتشارهم لا يقولان بأن ما يجري فرض للهيبة، بل حفلة اغتصاب جماعي لشارع الرشيد.

ـ يبدو أنها ميليشيا كبيرة!

ـ بل هي الأكبر، لكنك متابع سيئ يا كمال!

ـ للأخبار؟

ـ كلا، لمقاطع النيك الجماعي!

ألم أقل لكم إنه يسخر؟! تبادلنا ضحكة مكتومة، وخرجنا لدى الباب نتابع الحدث بوضوح. كان الموكب قد توقف أمام متحف السلام، وراحت الوجوه ترنو إلى تلك البناية التي، رغم

تعب السنين، ما زالت شاخصة. ضاقت دائرة القطيع واشرأبت الأعناق صوب الزعيم بغية الاستماع إلى حديثه. أنا وصالح، لم نكن في مكان يسمح لنا بمعرفة ما يقول هذا الرجل المطاع أكثر من الخالق. عرفنا بأن حديثه قد انتهى أخيرًا عندما اتسعت الدائرة وارتفعت أهزوجة كادت، لفرط حماستها، أن تطيح بالعمائر العتيقة. دلف الزعيم وبعض مرافقيه إلى المتحف، ليخرج بعد دقائق قليلة ملوحًا بكفه فيرتفع الضجيج من جديد. رأيت إذ ذاك نادية تطل من الشرفة العلوية، تراقب المشهد ويدها على فمها كمن فُجع للتوّ بخبر صاعق. لم أحتمل، دخلت إلى الأستوديو وآثرت النظر من خلف الزجاج، بينما ظل صالح يرمي بالكلام: «هرب الجبان».

كانت نادية، قد تطلقت من زوجها النذل منذ زمن بعيد، إلا أن العودة حينها لم تكن خيارًا متاحًا. انتظرت حتى سقوط النظام، ورجعت لاستعادة إرثها؛ المتحف الذي أعدِم والدها دونه. استأجرت في البدء شركة صيانة من أجل إصلاح ما عاب في جسد البناية، ثم أخرجت من القبو بقايا الأرشيف والمعروضات التي رماها الأوغاد السابقون فيه. رمّمت التماثيل المكسورة وأزالت الغبار وخيوط العنكبوت عن وجوه اللوحات، لتعيد في النهاية افتتاح المتحف بما توفر. نعتها الجميع آنذاك بالمرأة الشجاعة، إلّاي، إذ كلما وقفت ذليلة على بابي، صددتها. لست الطرف المتغطرس في المسألة، صدقوني، بل هو الشعور بالذنب ما يجعل المرء ذليلًا في العادة.. الإنسان ذليل ذنبه. أما فشل محاولاتها في التبرير، فذاك لسبب بسيط؛ لأن الخذلان ذنب لا يبرر.

لكنْ؛ ما غاية طاهر الحنش من هذه الزيارة الخاطفة إلى متحف السلام؟! سؤال لم أعثر على جوابه، ولم أستطع حتى الإشهار عنه، فطائر الخوف كان قد عاد وعشش في صدور الناس من جديد، ليعود به السؤال عن أفعال الزعماء عملًا محرمًا.

دخل صالح بعدما انقضت العاصفة، وجلسنا نتشارك الشاي والسجائر وحديثًا حرص على تقطيعه باللوم والعتب: «حرام عليك يا أخي.. كفاك عنادًا.. المرأة نادمة.. متى كان قلبك قاسيًا إلى هذا الحد؟» حاصرني بالأسئلة ذاتها، وراوغته بالصمت ذاته، فأنقذتني البطارية،

إذ اكتمل شحنها ليعيدها في جوف الكاميرا ويهمّ بالرحيل. قال بأن عليه العودة إلى المنزل قبل الظهيرة، لئلا يدوّي انفجار جديد وتغلق الطرقات، غير أنه توقف هنيئة ليريني شيئًا ما. كبس على زر التشغيل وأظهر على الشاشة صورة لشخص يرتدي بدلة ورباط عنق: ـ هاك، انظر.

ـ من هذا؟

ـ نيّاكنا الجديد، أقصد زعيمنا الجديد، طاهر الحنش.

وجه مستطيل بذقن مشذّب وعينين تثيران الفزع. نقرت على زر التكبير وأخذت أطيل النظر في ما بدا لي مألوفًا، ثم هتفت ذاهلًا: ـ آه يا ابن الحرام!

لقد أخفى اللعين آثار المعارك على خده، وستر حاجبه المنزوع بوشم متقن.

ـ هل تعرفه؟

ـ ومن غيري يعرفه؟

ـ هذا طاهر الحنش.

هززت رأسي وتمتمت من بين الدخان: ـ بل طزّون.

ـ من؟ سمّعنا، ماذا تقول يا أخي.

مضيت أردد: «البلطجي.. القاتل.. السارق».. ومضى صالح يواصل النظر بدهشة.

قال في النهاية:

ـ كمال، لمَ تهمس؟ إما أن تفهمني ماذا تقول، أو أذهب.

ـ لا شيء، يا عزيزي، لا شيء، فقط أفكر في متحف السلام.

ـ ما به؟

ـ سيغتصبه الأوغاد من جديد.

الفصل الثالث والعشرون

برج المراقبة

في صيف العام 1995 كنت قد قررت البحث عن مسكن خارج شارع الرشيد. كانت الخردة وقتذاك تزحف كالجراد على الأرصفة، وكان صوت بائعي البالة وأطفال الصمغ وسكارى الليل يجعل النوم في الأستوديو ضربًا من المستحيل. لهذه الأسباب آثرت الصبر على فراق ليل الأستوديو، والعيش في حي سكني يبعد عن قلب المدينة. أخبرت صالح بالأمر، فتبرّع باصطحابي لدى سمسار منازل، قال إن بينهما صلة قرابة بعيدة. كان سمسارًا مكوّر البنية، ويوحي شكله بالكسل، غير أنه بان لبقًا ويحفظ حواري بغداد وأزقتها عن ظهر قلب. أجلسنا وطلب لنا الشاي الرديء، فحتى الشاي تبدل حاله في تلك الأعوام وصار مذاقه سيئًا. عرضت عليه طلبي، فقال وهو يشير بإصبعه نحو خارطة معلقة على الجدار خلفه: ـ عندي هنا، غرفتان وصالة وملحقات.

ـ هذا كبير عليّ، هل لديك شيء أصغر؟

ـ لكن إيجاره رخيص، وبدون مقدم.

التفت نحو صالح:

ـ ماذا تقول أنت؟

ـ مناسب.

أغمضت عينَي وسككت أسناني كطريقة مشهورة في التفكير.

ـ حسنًا، دعنا نعاينه.

ـ على بركة الله، تفضلا معي.

يقع المنزل في أطراف محلة شعبية فقيرة، ويملكه صاحب بقالة ثرثار. التقيناه في دكانته العامرة بالمعلبات المغشوشة، رحّب بنا وقدّم لنا زجاجات الكولا الباردة، ثم أجلس ابنه الصغير بدلًا منه واصطحبنا للمعاينة. قال في الطريق بأنه يعيش ههنا منذ عشرين عامًا وأن المحلة هادئة وأهلها طيبون، وثرثرة زائدة لا تستحق الإنصات، فأنا محض شخص أعزب يروم استكراء مسكن خارج زعيق المدينة. ما شأني إن كان أهل المحلة طيبين أم أشرارًا؟ أريد مبيتًا هادئًا فحسب. ثم إني عديم الخبرة في مسألة الجيرة ولا أنوي عقد صداقات فائضة عن الحاجة.

قطع الرجل سلسال التفكير قائلًا:

ـ وصلنا، هذا هو.

كان يشير بيده نحو منزل صغير منفرد آخر الزقاق.

ثم راح يردد وهو يدس يده أعلى الباب ليفكّ المزلاج العلوي: ـ بسم الله.. بسم الله..

برك بعدئذ على ركبتيه عند المزلاج السفلي، رفعه وسار أمامنا عبر الفناء الخارجي: ـ تفضلوا.. بسم الله.. بسم الله..

لقد استخدم الرجل كليشيهات الذكر الجاهزة بشكل مفرط، وكأننا نلج مسجدًا أو مقامًا دينيًا!

على أية حال، ما يهمني أن المنزل مناسب فعلًا؛ غرفة نوم متوسطة الحجم وصالة واسعة نوعًا ما وحمام ومطبخ. زادها أن نافذة كبيرة كانت تطل على حديقة خلفية صغيرة فيها شجيرات نارنج وفسيلة نخل.

ـ ممتاز، همست لصالح، فغمزني خشية أن يسمعني صاحب المنزل ويزيد من ثمن الإيجار.

سألته عن الغرفة الثانية فأشار نحو الأعلى. كانت غرفة سطوح مهجورة يعيث فيها التراب، وتطل على الزقاق من خلال نافذة مستطيلة مفردة. قال وهو ينزل السلّم أمامنا بأنها تصلح لأن تكون مكتبًا أو مخزنًا للكراكيب أو حتى برجًا للحمام. وهكذا اتفقت معه على كراء المنزل إلى أجل غير محدود، لكني قلت له قبل المغادرة: ـ أنا لست مطيرجي كي أجعلها برجًا للحمام يا سيد.

رد بعدما كشر عن أسنان أنهكتها السجائر:

ـ أمزح معك يا رجل، هداك الله؟!

ثم أردف بكل سذاجة:

ـ الحياة حلوة ولا تستحق الكدر.

أوشكت أن أقول له:

ـ نعم، الحياة حلوة لمن لا يشعر، وتصير أحلى كلما كبسنا على زر البلادة.

لكني صمت كالعادة.

بيني وبينكم؛ لم أكن قادرًا على هضم صاحب البقالة السخيف هذا، ولولا غمز صالح المتواصل لتراجعت عن التعامل معه. شعرت بأنه ثرثار فوق العادة، ويضحك خارج محال الضحك. ودعته بإيماءة باهتة وعدت رفقة من معي، وفي الغد نقلت أغراضي وسكنت المنزل.

كانت ليلتي الأولى ساخنة، زادها سخونة انطفاء الكهرباء، مما اضطرني للنوم فوق السطح. شابكت يدي تحت رأسي وشرعت أمارس لعبة قديمة طالما لعبناها، أنا وجانيت. كنا نشكل

من النجوم وجوهًا للملائكة ونظل ننظر إليها حتى نغفو.

كم تبدو السماء قريبة في عيون الأطفال!

صنعت آنئذٍ ملاكًا بذقن طويل وعباءة، ثم شرعت بالنظر إليه ريثما أغفو، لكن صهيلًا أفزع الملاك وأفسد خطتي.

صهيل في الليل؟! يا لها من محلة غريبة! نظرت من خلف السياج فرأيت حصانًا هزيلًا في بيت جاري، كان مربوطًا إلى شجرة سدر، وقد بدا عليه الانزعاج وكأن دبورًا لدغه في إسته! حيّرني أمره، في الواقع، لكني رأيت صاحبه يخرج من جوف الدار ليضع له شيئًا في سطل الماء، فيهدأ! وفي الصباح شد على ظهره عربة حديدية مطلية بالأخضر الغامق، وانطلق مناديًا: «نفط.. نفط.. نفط»..

لم تكن تلك المرة الوحيدة، بل هو روتين المساء والصباح اليومي، الذي كان يمارسه جاري؛ العربنجي ذو الطلعة المخيفة. كان شابًا في الثلاثينيات من عمره، متوسط القامة برأس أصلع وفك مستطيل، وعلى رقبته وخده غرز وآثار معارك. لا أدري في أي معركة تحصل على كل تلك النياشين، كما لا أدري أين فقد أحد حاجبيه. كان يملك حاجبًا وحيدًا، والشر يندلق من عينه العارية. التقينا في الزقاق ذات مرة وألقيت عليه التحية، ليردّها من طرف أنفه: «هلا». لم أشعر مذ ذاك بالراحة صوبه، أما الصهيل الليلي ورائحة الروث التي تفوح كلما هبّ نسيم خفيف، فقد اشتكيتهما إلى مالك المنزل علّه يجد لي حلًا. لكن الأخير اقتصر على نصيحتي بالتحمل وألا أدخل في مشكلة قد تخسرني حياتي.

ـ اسمعني، أستاذ، أنت إنسان محترم، لا تدخل في مشاكل مع طزّون.

سألت بدهشة:

ـ من؟

ـ طزّون العربنجي.

ـ ما وضعه بالضبط؟ هل هو خطير إلى هذا الحد؟

ـ شخص لا يخاف الله، خرج من السجن العامَ الفائت، لص وقاتل.

يا للمحنة، من أين جاءني هذا أيضًا؟!

إنه لقدر سيئ أن يكون جارك بلطجيًا!

على أية حال، لم يكن أمامي سوى العمل بالنصيحة والكف عن الشكوى. فالصبر على الضوضاء خير لي من فقد حياتي. وهكذا أمسيت أحشي أذنَي بالقطن كلما نمت فوق السطح. وذات ليلة، قبل أن أغفو، تعالى صراخ كان كافيًا لاختراق جدار القطن. أخرجت النتف كي أستطيع تحديد جهة الصوت الذي، كما توقعت، كان قادمًا من منزل طزّون. رميت الشرشف عن جسدي ودخلت الغرفة الصغيرة للتلصص من خلال النافذة. رأيته يضرب زوجته وابنتيه في الفناء الخارجي الشبيه بإسطبل.. حفلة تعذيب صغيرة يمارسها أب ثمل كما يبدو.. أين رأيت مثلها من قبل؟!

ـ كفى يا ساقط، قلت في سري وأنا أراقب ما يجري.

وبعد دقائق قرر الساقط إيقاف الضرب، بسبب طرق على الباب. اثنان من رفاقه العربنجية قد جاؤوا لمشاركته السهر، أدخلهم وتحلقوا حول مائدة الخمر وكأن مجزرة عائلية لم تحدث قبل لحظات. المثير للقرف حقًا هو ذلك التلوث السمعي الذائع من جهاز المسجل بقربه.. كان عربنجيًا طروبًا لموسيقى لا تناسب سوى مقامه الرث.

تكررت الأمسيات المفعمة بالرثاثة، وأمسى التلصص من غرفة السطوح فصلًا يوميًا للتسلية. ومن أجل صورة واضحة لما يجري في خرابة بائع النفط السكير ذاك، صرت أحمل الكاميرا وأنظر من خلال العدسة. كانوا بين ليلة وليلة يجتمعون ليدخنوا السجائر

ويحتسوا العرق والنغم التافه، ثم وما أن تشتد بهم الثمالة والطرب، وبدلًا من الرقص كما يقتضي الحال، يشرعون بتبادل شتائم بذيئة من تلك التي تمس العرض وتمرغ في الوحل شرف الأمهات. لكن تلك السهرات التي لم أخبر صالح عنها، كانت رغم رخصها، تسليني وتنسيني وحدتي. بل واستمرت تفعل بي ذلك حتى التاسع من أبريل 2003، اليوم الذي لم أكن فيه راغبًا بمغادرة المنزل. كنت خائفًا من سقوط قذيفة فوق رأسي، أو استقبال عيار طائش من العيارات العمياء التي حرقت سماء بغداد، غير أني شعرت بقذائف العار حين رأيت، من خلف الشاشة، تلك الموجة البشرية التي اندفعت بحماس لنهب بلدها.

كان العم خليل يقول، كلما لمّ الصور من حبل الغسيل وأرخها على القفا باليوم والشهر والسنة، بأننا لا نلتقط الصور، بل ندوّن التاريخ.

لكن؛ ماذا أدوّن لو خرجت الآن يا عم؟ وبأيّ عدسة وقحة أصوّر ما يجري على أبواب المتاحف والمدارس والدوائر الحكومية؟ هل أكتب خلف صورة مراهق فرِح بتهشيم مقعد دراسي: ثائر؟ أم على ذلك الرجل الناهب لمكيّف هواء من إحدى المشافي: مواطن يسترد حقه؟ ماذا أفعل بصور الحارقين للسجل المدني؟ وأولئك المتحلقين حول جندي المارينز من أجل مجلة خلاعية؟ والمنتشين بتهشيم حجارة صماء؟ هب أني تجرأت على تصوير كل هذا القرف، أنى لي بكاميرا تطيق عار صمت الأرض أمام مجندة غازية تبول عليها وقوفًا، وتأمر أهلها بلغة غريبة: «گو.. گو.. گو»..؟

عذرًا يا عم، لن أبرح مكاني ولو نزل ملاك مرسل.

كان قرارًا حاسمًا بعدم الخروج. لكن الأقدار احتفظت برأيها حتى المساء، وأجبرتني على مشاهدة ما لم أطق مشاهدته في النهار. فقد رأيت من خلال النافذة عرضًا مسرحيًا مجنونًا، من بطولة بائع النفط، طزّون.

كنت جالسًا في برج المراقبة، أراقب من خلف الكاميرا ما يجري في الأرجاء. وفي الأثناء توقفت شاحنة نقل متوسطة الحجم، تحمل فرسًا أصيلًا، وكرسيًا رئاسيًا كسرت إحدى

سيقانه، وتمثالًا مقمّطًا بكيس خيش غير محكم. ترجل منها الجار البلطجي، ثم راح ينزل المحمولات من على كتفها واحدة تلو الأخرى ويدخلها المنزل بمساعدة السائق. قبض الأخير أجره، وحمل طزّون لفافة الخيش قاذفًا نحو السماء شريطًا من القبل الهوائية. شكر الله بتلك القبل المتوالية وغاص بالحمل إلى الداخل. ثم عاد ليربط الفرس الأصيل قرب حصان النفط، وينصب الكرسي الرئاسي وسط الفناء مسندًا ساقه العرجاء بالطابوق. وفي المساء جاء رفاقه العربنجية ليجدوه جالسًا على الكرسي يدخن سيجارًا سميكًا وبيده كأس ويسكي. سكب لهم من الزجاجة، وقدم لهم أصابع السيجار، ثم جلسوا تحت قدميه وشرعوا بثرد الكلام والضحك وشتم ما فات من أعمارهم. لقد رأيتهم يطالبون صاحبهم بين الفينة والأخرى بالنهوض عن الكرسي والسماح لهم بالجلوس ولو لبضع دقائق، لكنه ومثل أي طاغية؛ يرفض أن يمتطي عرشه الآخرون. سمعته يصرخ: ـ أولاد القحبة، هذا كرسي الزعيم، لا يجلس عليه إلا الزعيم.

فيردون عليه:

ـ أختك على أخت الزعيم.

ثم يهددهم بالطرد إن لم يكفوا عن إزعاجه، فيمتثلون ويواصلون الشراب.

ثملوا في النهاية وحلّت عليهم لعنة الغثيان كما يبدو، إذ رأيت أحدهم يقوم ليتقيأ جانبًا. سنّده صاحبه وغادرا، أما الزعيم فاحتضن صدره وغفا متكورًا فوق العرش ذي الخامة البيضاء المنقوشة بماء الذهب. لكن السهرة لم تنته بعد، والفصل الثاني يوشك أن يبدأ. وما هي إلا لحظات حتى رفعت الستارة عن حوار ساخن سيطول لساعات الفجر الأولى. أدرت العدسة جهة اليمين وشرعت بالإصغاء. كانت الفرس الأصيل تشتكي من رائحة النفط والروث، ومن فيلق الذباب المتحلق حول أنفها وعينيها، وكان الحصان المسكين ماضيًا في تهدئتها.

ـ تحمّلي يا صديقتي، عليك بالصبر.

ـ اخرس ولا تقل صديقتي. أنا ابنة قصور يا أجرب.

ـ نعم نعم، أعلم ذلك، لكن لن يدوم حال أيتها الجميلة.. صدقي قول حصان معذب، له خبرة في الحياة.

ـ بل يدوم، ستنجلي الظلمة وأعود إلى قصري معززة مكرمة.

ـ يبدو أنك لم تسمعي أغنية: دوّارة دوّارة، يا دنيا دوّارة؟!

ـ دوّارة عليك وعلى التافهين أمثالك.

ـ حسنًا، حسنًا، اهدأي الآن، اهدأي.

واقترب الحصان الهزيل ليشم بطن الفرس الرشيقة ويلعق خاصرتها. لكنها جفلت وراحت تصهل عاليًا لتنغص راحة الزعيم، فما كان من هذا الأخير إلا أن وضع لها شيئًا في جردل الماء وسقاها منه، قبل أن يعود لمواصلة النوم فوق عرشه. شربت الفرس من الماء وتراخت لتبدو أكثر تواضعًا وجمالًا، فاقترب الحصان بأضلاعه البارزة، وراح يحكّ ناصيته بأردافها دون مقاومة تذكر. قرّبت عدسة الكاميرا أكثر من أجل توثيق لحظة بالغة الخطورة في تاريخ الأمة. هاج الحصان وانتصب ودار في مكانه دورتين ثم عاد إلى الخلف وركب فرس القصر التي بدت مستسلمة وراضية. ظل يركبها حتى طلوع الفجر، وقد بدت سماء عرسهما صافية ولحظات سعادتهما خالية من الذباب. لكنها، وا حسرتاه، سعادة قصيرة ككل السعادات لدينا، إذ استيقظ طزّون في الصباح وفرّقهما. اقتاد الفرس نحو جهة مجهولة ليعود بعد ذلك مبتهجًا وبيده كيس خضار ودجاجة للغداء. وفي الليل توقفت على بابه شاحنة بيضاء منزوعة الأرقام، ترجل منها شخصان سلّماه حقيبة سوداء، ثم حملا التمثال المقمّط بالخيش ورحلا.

في البدء كانت دهشتي كبيرة، لكنها تصاغرت واضمحلت عندما عرفت لاحقًا بأن آلاف القطع الأثرية قد تم نهبها من قبل رؤوس كبيرة، وما طزّون العربنجي إلا سارق فتافيت!

حتى أن بطة سومرية كانت قد نُحتت قبل الميلاد بألفين وسبعين عامًا، طارت بقدرة القدير وحلّقت لتستقر على كتف واحد من زعماء المافيا المسددين بالمال والسلاح.

رغم ذلك، قضى بائع النفط الليلة الأخيرة مستيقظًا يقطع فناء الخرابة جيئة وذهابًا، وحالما ارتسمت خيوط الفجر في السماء، رحل تاركًا حصانه الهزيل وحيدًا يحك رأسه بكرسي الزعيم الأعرج. جاء من بعده رفاقه العربنجية ليتفاجؤوا برحيله المفاجئ، فهشموا الكرسي من أجل تحويله إلى حطب تنور، وغادروا بصحبة الحصان. كنت أراهم كل يوم تقريبًا يجلجلون بعرباتهم في الأزقة، أو يشربون الخمر على الناصية لدى مدخل المحلة. أما صاحبهم فقد تضاربت الأنباء حول مصيره؛ قال بعض الأهالي بأنه هاجر إلى السويد طالبًا حق اللجوء بدعوى الاضطهاد وكتم الحريات. وقال آخرون بأنه حط في إسطنبول بعدما اشترى ڤيللا في محلة هادئة لا تُسمع فيها نداءات الباعة. بينما ادعى أحد الشباب العائدين من لبنان رؤيته ثملًا على مصاطب الروشة في بيروت.

لكنْ؛ مهما تعددت الأقوال في مصير سارق الآثار الهارب، طزّون، يبقى ظهوره في شارع الرشيد باسم «الزعيم طاهر الحنش» حدثًا مثيرًا للدهشة.

الفصل الرابع والعشرون

الدخيلة

لم يمض عام على الزيارة التاريخية للزعيم الحنش إلا والرايات الحمراء ترفرف فوق متحف السلام. كان الأمر سهلًا عليه، فقد أجبر نادية على الإخلاء إثر اغتياله لثلاثة من العاملين في المتحف. قبل ذلك، كانت قد وصلتها رسائل التهديد عبر الهاتف ولم تكترث، واهمة بأنه قد يغض الطرف أو ينسى، فما قيمة بناية هرمة، والمدينة كلها تحت قبضته؟! لم تفكر بشراهة الزعماء حتى رأت جثث رفقائها ملقاة على باب المتحف، فحملت ما تستطيع حمله من مقتنيات وغادرت. غير أنها لم ترفع الراية البيضاء ولم تصمت، بل ظلت تطل ضيفة على القنوات الفضائية بين الفينة والثانية وتروي ما جرى، لتعود التهديدات فتطال حياتها هذه المرة.

في النهاية، اضطرت نادية للهرب، لكنها مخلوق من نار، إذ لم تغادر البلاد رغم قدرتها على ذلك، بل أصرّت على البقاء والعمل على إثارة الرأي العام لاسترداد حقها. ارتدت طاقية الإخفاء ومضت تكتب المقالات وتنشرها على الإنترنت، تحت اسم مستعار، أنا الوحيد من يعرفه. هذا ليس لأني ذكي بما فيه الكفاية، بل لأنها تختبئ في منزلي.

أجل، لقد غفرت، فالزعل يغدو حمقًا حين لا يهون بالفجائع.

كنت ذات يوم من أيام العام 2010 جالسًا أعيد قراءة الرسالة الأخيرة لجانيت، وفي عيني تموج دمعة. كانت رسالة ملغومة بالأسى، تقول فيها بأنها راحلة قريبًا، وتطلب الغفران لأنها لم تكن أختًا عطوفًا بما يكفي. علمت فيما بعد بخبر وفاتها عن طريق كاتدرائية مار يوسف، ودعيت إلى حضور قدّاس يقام لروحها. ذهبت هناك، أوقدت لها شمعة وتبادلت كلمات العزاء مع أشخاص لا أعرفهم. لقد أخبرني القس، الذي بدا متأثرًا لرحيلها، بأنها كانت ترسل

المساعدات إلى الفقراء وتساهم في إعالة اليتامى. آلمني أنها ماتت بلا نادبات ودفنت في أرض غريبة. جففت دمعي بكمّ القميص ثم طويت الرسالة وحشرتها في الدرج. لكنْ؛ وحالما رفعت رأسي تفاجأت بامرأة تتلفع بعباءة وبرقع كانت واقفة وسط الأستوديو. اقتربت خطوتين وكشفت عن وجهها.

ـ لم يبق لي غيرك، قالت وصوتها يرتجف.

ـ أشششش، أمرتها بالصمت وإسدال البرقع فورًا.

لن أراهن على البقاء يومًا آخر، فيما لو اكتشف فرسان بغداد بأني التقيت نادية. سيكون ثمني لا شك زهيدًا؛ إطلاقتين في الرأس تْرِكْ تْرِكْ وحفرة في العراء. دخيلتي تعلم ذلك، فامتثلت دون اعتراض. التففتُ حولها وخرجتُ أراقب الطريق. سيكون سهلًا لو أني وجّهتها نحو موقف السيارات ثم تبعتها، إلا أن الطريق مزدحمة، والفرسان يجولون فوق النواصي.. ستثار الشكوك حتمًا. فركت جبهتي تنقيبًا عن حل ينجيها وينجيني، ولم أجد سوى الإبقاء عليها في الأستوديو ريثما يمسي الطريق سالكًا. صحبتها إلى الأعلى وأخفيتها في الشقة التي تحولت مع الأيام إلى مخزن للكراكيب. مجلات وكتب وألبومات طوابع وعملة قديمة وأرشيف صور يرزم حياة الناس والمدينة، كانت كلها تنام في صناديق تجثو عليها طبقات من الغبار الناعم. كما أن هنالك سريرًا حديديًا عتيقًا لم يزل قائمًا بمفاصل لا تشيخ، وكرسيًا من الخشب اكتسب مع الوقت لونًا رماديًا مائلًا للصفرة، وبعض الطاولات والأواني. ظلت نادية مختبئة هناك، وظللت أنا واقفًا على باب الأستوديو أقرض أظافر القلق بانتظار أن تسدل الدكاكين ويجف الشارع من أقدام المارة. حان الوقت أخيرًا، فأقفلت الأستوديو وصحبتها إلى المنزل.

كنا طوال الطريق صامتين، نستمع لصدى خوفنا، حتى وصلنا وسرى الأمان في العروق، لتزيل الدخيلة النقاب عن رأسها وتروي بالتفصيل ما جرى. ثلاثة أعوام مرت وهي تعيش حربًا غير عادلة مع فرسان بغداد، كانت قد أفقدتها متحف أبيها. لم تستطع الحفاظ على الإرث الثمين، وباتت طريدة لا تدري في أية ساعة يدهس الأوغاد رأسها. سنواتها الماضية

ملئ بالندوب، لم تنجب من طليقها سوى صبي أسمته كمال، وقد أجهزت عليه اللوكيميا قبل بلوغه السادسة.

ـ في عيد ميلاده الخامس اشتريت له كاميرا لكنه لم يلحق على استخدامها، قالت باكية بين السطور.

آلمتها نذالة الزوج وقسوته، وفقدان الابن الأوحد، ثم العيش غريبة في شقة موحشة يحرك ستائرها برد المنفى، ولولا أن تمسكت بخيط الأمل لارتحلت قبل الأوان. أما أنا، فرغم الإنصات كنت في لجّة عراك داخلي؛ أراوغ الشوق ويراوغني مقلبًا بصري بين البلاطات الصفراء والحمراء، التي تبدو كأنها رقعة شطرنج ملونة. كسبت الجولة الأولى وغضضت الطرف تحاشيًا للضعف أمام محدثتي، غير أني سرعان ما خسرت الرهان، إذ رفعت رأسي ورأيت وشل الدمع يبلل خطوط العمر تحت جفنيها، فأوجعني قلبي وتنهدت.. آه نادية!

كانت عيناها تحكيان قصة جمال عصيّ على الخفوت، وشعرها المخضّب بالكستنائي الفاتح ثائرًا يأبى رفع الرايات. الصوت نضج فصار أحلى، والأسنان بينها وبين الثلج عقد دائم.. آه نادية!

بادرتها بكلمات الأسف لما عاشته، ثم ذهبت إلى المطبخ، سكبت كأسين ومضينا نبلل الفجيعة بماء الذكريات. رجف عودها، رغم أننا في الصيف، فظننتها جائعة.

ـ سأعد لك وجبة خفيفة.

ـ كلا، لا أتناول الطعام في الليل.

ـ طبق فاكهة على الأقل؟

ـ حتى الفاكهة.

ـ لماذا؟

ـ لأن ما نأكله في الليل يقتلنا في النهار.

اكتشفت حينئذ سر احتفاظها بقوام رشيق، أما سر ارتجافها فذاك لأنها كانت تتخف بالكلام من عبء يثقل كاهلها، لكن النور انطفأ في الأثناء ليقطع سلسال الحكاية. أشعلت مصباح الهاتف وصحبتها إلى السطح، ثم أفردت الفراش المطويّ فوق السرير الحديدي وجلسنا على الحافة لاستئناف الحديث. كانت تروي الأحداث بالمقلوب وترتد بالزمن حتى بلوغ لحظة الخذلان. قالت بنبرة أسف إن الأم قد مارست عليها لعبة الإغراء والتخويف بجدارة، فبالوقت الذي تحدثها فيه عن لندن وطيب العيش برفقة زوج مقتدر، كانت ترهبها بغضب الأب والعشيرة فيما لو عرفوا قصة حبها لشخص غير معروف الأصل، ومن غير ملّة. ثم أردفت بما يشبه الاعتذار أنها لم تكن تمتلك الشجاعة الكافية للصمود.. لقد فرطت بكَ في لحظة ضعف يا كمال.

بيني وبينكم، لم أكن بحاجة لسماع كلمات الأسف قدر حاجتي إلى ضمّها. مسحت بالإبهام دموعها، ومررت يدي على جبهتها وخديها، ثم جذبتها واستلقينا على السرير. كان القمر بدرًا، وثوب السماء مرصعًا بنثار النجوم، وقد تشكل فوقنا ملاك حارس. أزحت خصلة من شعرها خلف أذنها، ولثمت فمها، ورحت أقبل عنقها تحت أنظار الملاك. أبعدت رأسي إلى الوراء قليلًا وأمعنت النظر فيها بغية الاطمئنان لصدق اللحظة، فابتسمتْ ومضينا نحدّق فينا وكأننا نريد اكتشافنا من جديد.

قالت وهي تمسد بأطراف أصابعها شاربي: ـ ما زال يقتلني.

قبّلت أناملها مردّدًا:

ـ ليس كما تفعل بي عيناكِ.

ومضيفًا:

ـ وشفتاكِ، وعطركِ، وصوتكِ..

لثمتها وتشابكنا، ولم نفك أسر بعضنا حتى عندما انجلى إعصار اللهفة وخمد إيقاع اللهاث. غير أني حين أفقت، تفاجأت بي وحيدًا في السرير! أفزعني أنها رحلت من جديد دون أن تكلف نفسها شرح الأسباب. خذلان جديد يا نادية؟! أم فاجعة حلّت؟!

هبطت مسرعًا وفي رأسي خاطر يدور حول صورة جثة ملقاة على الأرض. لكن قرقعة أحدثها اصطدام كأس بملعقة كان قد تنامى في الأثناء من جهة المطبخ، فتلاشى فزعي. كانت نادية تعد الإفطار وتمزج الماء بخلّ التفاح والليمون.

ـ ما بك تلهث؟

ـ ظننتكِ قد رحلتِ.

ـ اطمئن، من يجد الحب لا يرحل.

أنهينا الإفطار واستأذنتها للذهاب إلى العمل، أما هي، فجلست تخطط لاسترداد متحف السلام من قبضة طاهر الحنش.. من أين تأتين بكل هذا العناد يا امرأة؟!

تحتفظ نادية على حاسبها المحمول بأرشيف المتحف كاملًا، وكانت خطوتها الأولى صناعة نسخة افتراضية منه. معرفتها ببرامج التصميم سهّلت المهمة كثيرًا، مما حدا بالموقع الإلكتروني أن يجهز في وقت قصير. كان بإمكان الزائر المرور في الأروقة وتقليب الصور من خلف الشاشة، إلا أن هذا لم يكن كافيًا لمنحه الشعور بأصحابها، فالمرء لا يشعر بروح الصورة ما لم يمر بأصابع كفه على سطحها. فرغتْ من خطوتها الأولى وانتقلت برشاقة نحو الثانية؛ استغلال مساحة التعبير التي توفرها مواقع التواصل الاجتماعي، للنيل من خصمها الساقط. صنعت حسابًا وهميًا وأخذت تكتب مقالات ساخرة تحمل توقيع «باسم أمين» تلاقفتها المواقع والصحف الإلكترونية المعارضة لتحقق انتشارًا واسعًا بين القراء. مرغت المقالات أنف الحنش وجعلت منه مادة أولية للضحك والتندر. وشيئًا فشيئًا صار الاسم متداولًا؛ باسم أمين، الكاتب الساخر الذي لا يخشى بطش الزعيم وقطيعه. حتى أني

كنت أستمع إلى رواد المقاهي وهم يتناقلون سخريته اللاذعة، وأشاهد ترقبهم لما يكتب. سألني صالح ذات مرة إن كنت قد قرأت المقال الأخير لباسم، فأومأت له بالنفي، فما كان منه إلا أن أظهره على شاشة هاتفه المحمول وراح يقرأ وهو يضحك.

كان باسم أمين «نادية» قد تنبه مبكرًا إلى أن السخرية طريق معبّدة نحو قلب القارئ، وأنها تستطيع إيصال ما يبتغي الكاتب إيصاله دون عراقيل. ثم وحالما اكتمل تشييد الأساس، غدا البناء يرتفع رويدًا رويدًا، إذ تعالت أصوات هنا وهناك، تطالب بحماية شارع الرشيد من زحف الخراب. آنذاك كان طاهر الحنش قد أقسم على إقفار الشارع وجعله مهجورًا. كان يرسل كلابه للشمشمة والتحرّي، ثم يعرض على صاحب المتجر المقصود، البيع من خلال رسائل ودية: «سيدي العزيز، نرغب بشراء دكانك».. ومن يرفض الود عليه أن يحجز مكانه في المقابر، أو في قوائم المخطوفين كحد أدنى.. الأمر سيّان.

وهكذا غدت المتاجر والمحال تتساقط في يد الحنش واحدًا تلو الآخر. لكن المثير للاستغراب أنه لم يكن بحاجة لتلك المتاجر، لم يشغلها بالبضائع ولم يعرضها للإيجار ولا حتى الهدم والتشييد على أنقاضها. كان حين ينتقل المتجر إلى ملكه، يسدله بقفل كبير ليؤول مع الأيام مخزنًا أجوف تعيث فيها الفئران والأفاعي! كان كمن يصطاد السمك لعداوة مع النهر، لا لحاجة في السمك!

شكرًا لله أنه لم يفكر بي، فغلق الأستوديو يعني الإمضاء على شهادة وفاة رسمية.

لكن الآذان، رغم الترهيب والتخويف، ظلت مصغية لصوت الكاتب المستتر، تتناقل كل ما ينشر. نشر ذات يوم من أيام صيف 2011 مقالًا تسبب في هياج الناس وخروجهم في تظاهرة ضد الحنش. كان مقالاً شجاعاً كالعادة، تضمن بالأرقام أعداد الضحايا الذين تمت تصفيتهم بالسلاح الكاتم للصوت. وكنت كلما ظهر مقال جديد، بادرت نادية: ـ شكرًا لأنك تكتبين بهذه الروعة.

فتجيب مازحة:

ـ بل شكرًا لباسم أمين، لولاه لما استمع لي أحد.

ـ لو كتبتِ باسمك الصريح، لاستمع الناس كذلك.

ـ من يصغي للنساء، وما زال هنالك من يصف صوتهن بالعورة؟!

توالت بعدها المقالات وتعالى الصوت شيئًا فشيئًا حتى بات الرفض أغنية ترددها شوارع بغداد الأسيرة.

الفصل الخامس والعشرون

قاتل مأجور

شتاء 2018

كان يومًا عاديًا استيقظت فيه عند السابعة، وجلست قرب المدفأة أخمّر الشاي ريثما تفيق نادية، إذ ظلت ليلة البارحة تداعب لوحة المفاتيح حتى وقت متأخر. هذه المرأة لا تتعب وتوصل الليل بالنهار في التحريض ضد الزعيم طاهر الحنش وصبيانه. لقد دافت سمعتهم بالخراء وأنزلت بكبريائهم إلى المرتبة العاشرة بعد الحضيض، حتى أنك لن تجد في المدينة من يبادرهم بالتحية ما لم يكن منافقًا أو طامعًا بفلس حرام.

في بعض الأوقات تسدل نادية البرقع على وجهها وتتسلل في الطرقات والأزقة، لترى وتسمع صدى صوتها. صحيح أنها تعود مثقلة بالأسى لحال المدينة، إلا أن ذلك لم يمنعها من مواصلة الكتابة؛ السلاح الذي تجيد استخدامه. بينما غدوت أنا قارئها الأول، الذي يشير بحب لرأيه، ويعد الإفطار لكاتبته المفضلة كل الصباح.

ارتفع صفير الإبريق معلنًا عن تمام المهمة، فأزحته جانبًا وذهبت لإيقاظها. نظرت من شق الباب الذي ظل مواربًا بعدي. كانت نائمة كالملائكة وشعرها مفرودًا على الوسادة، فآثرت ألا أزعج منامها؛ أغلقت الباب بهدوء وخرجت. سخّنت رغيف خبز وطليته بلعقة قيمر مع رشة سكر. حمدًا لله أن نادية ما تزال نائمة، ستتشاجر معي لو رأتني أرش اللقمة بالسكر. ستقول لي كما في كل مرة: ـ هذا سم أبيض، لماذا تضع السم في طعامك؟

سأجيبها:

ـ منذ الطفولة وأنا أتناول السكر يا حبيبتي، وها أنا لم أمت.

فتحرجني:

ـ صحيح أنك لم تمت بعد يا عزيزي، لكن كرشك يتهدّل.

في الواقع، أنا أكره الكرش، ولا مانع لدي من تنفيذ وصايا حبيبتي فيما يخص الطعام، سيما وأنها متابعة جيدة لخبراء التغذية، وتعرف كم عدد السعرات الحرارية في قشر البصل. لكني أخشى ألا ينتهي الأمر عند ذرات السكر، فتقول بأن عليّ التوقف عن تناول الكعك، وعن الحلوى، ثم تحرمني من الخبز، ثم الرز، ثم اللحم، ثم البيض.. وهكذا أجد نفسي في النهاية محاصرًا بلائحة طويلة من الممنوعات، وليس ثمة ما آكله سوى الحشائش.. ماعز أنا أم إنسان بدم ولحم؟!

في بعض الأحيان يراودني الشك بأن خبراء التغذية هؤلاء لن يتوقفوا ما لم يحولونا إلى مجترات أليفة.

طويت رغيف الخبز المدهون بالقيمر المسكّر، وحملت اللفافة مع الشاي، ثم وقفت أتناول إفطاري خلف النافذة وعيناي تراقبان السماء. رأيت نتفًا من الغمام الرمادي الكئيب تسري بهمة لتصنع سحابة سوداء تنذر بيوم ممطر. كان منظر السحابة في الأعلى واختباء العصافير بين أغصان السدرة تأهبًا للمطر، يحفزان على المكوث في المنزل. ولولا أني على موعد مع صالح لامتثلت لنذير السماء وما غادرت. أخبرني صالح البارحة عبر الهاتف بأن صانع أفلام وثائقية يريد مقابلتي من أجل خدمة صغيرة، لم يبينها. سوى ذلك، لست مضطرًا للذهاب إلى الأستوديو، سيما وأن اليوم جمعة، ولا زبائن تطرق أبوابنا في مثل هذا اليوم. ثم أن التصوير، وبغض النظر عن جدول الأيام، لم يعد عملًا مجديًا كما كان عليه في السابق. بفضل الهواتف الذكية صار الحصول على صورة جيدة أسهل من فرقعة الأصابع. لقد أحالتنا الحداثة على التقاعد، وحوّلتنا كاميرات المحمول إلى حفنة عاطلين؛ لا نجد ما

نفعله سوى سفّ السجائر وثرد الكلام. فإن زارنا زبون من أجل أربع صور سريعة بخلفية بيضاء وأذنين بارزتين، حسب تعليمات ضابط الجوازات، تبادلنا التهاني.

غسلت القدح تحت صنبور الماء وفركت جوفه، ثم وضعته فوق ذراع الحوض المصنوع من الغرانيت المغشوش، وذهبت إلى الحمّام. استحممت ودلفت إلى الغرفة، أبدلت ثيابي وغادرت بعدما طبعت قبلة على خد نادية.

ـ كيمو، نادت خلفي بصوت ناعس.

ـ نعم.

ـ اعتن بنفسك.

ـ حاضر.

ما زال الوقت مبكرًا على الموعد، لكنها بغداد؛ مدينة الحواجز الأمنية والاختناقات المرورية. ستشعر، وأنت تقود وسط الزحام بأنك قادم من الصين على ظهر ناقة عرجاء، وأن لا حل لديك، ما دمت قد اخترت المكوث ههنا، سوى احتمال عرَج الناقة. سرت بسيارتي العجوز على مهل حتى وصلت حاجزًا أمنيًا، وأثناء عبوره بيسر ودون أوامر لإشهار الهوية، عطست مؤخرة السيارة عطستين متبوعتين بدخان العمر. حينئذ هتف خلفي أحد الجنود ساخرًا: «ما هذا الضراط يا حاج!» فعضضت شفتي السفلى وأكملت الطريق صامتًا دون اعتراض.

آه كم هو لعين هذا الصمت؛ كلما طال أمده ازداد وزنه وأمسى ثقيلًا كالجبال!

نظرت من خلال الزجاج، ما زالت السحابة السوداء معلقة في الأعلى، وما زالت أكوام النفايات تجتمع لدى الأرصفة وتفيض على أكتاف الإسفلت. هذه النفايات العجيبة، التي لا أحد يعلم أنى بدأت بالتراكم، تبدو وكأنها كائنات هبطت من كوكب آخر وأقسمت بربها على

احتلال المدينة! رفعت الزجاج منعًا لتسلل الرائحة، وكبست على دواسة البنزين، إلا أني حُشرت في زحام، الله وحده يعلم كم كان خانقًا! لم يكن أمامي حينها سوى تشغيل المذياع لاستهلاك الوقت ونسيان الطريق. واصلت السير بذات الوتيرة حتى وصلت ساحة التحرير، وانعطفت في زحام مروري آخر لا يقل سوءًا عما قبله. تلمست مخابئي بحثًا عن علبة السجائر، فلم أجدها. نسيتها على الطاولة كالعادة، فانحرفت يمينًا نحو كشك على الناصية لشراء علبة جديدة. أوشكت على التوقف، لكن هزة عنيفة حدثت في الأثناء جعلتني أرتطم بالمقود. كانت سيارة دفع رباعي حديثة من نوع تويوتا ـ جكسارة، قد اصطدمت بي من الخلف. ترجلت لرؤية ما حصل، وتفاجأت بالمصباح الأيسر قد تهشم تمامًا وتناثرت شظاياه على الإسفلت، بينما تضرر الجزء العلوي من صندوق الأمتعة. زادها أن السائق لم يتوقف، بل استمر بالضغط على دواسة البنزين محدثًا ضجيجًا بواسطة الزمور. داهمني شعور بالإهانة، ليس لضياع حقي، فضياع الحق في هذه البلاد أمر شائع وفاتورة الحقوق المهدورة باتت أطول من نهر دجلة، بل لسخرية البائع وضحكته المكتومة. كان التافه ينظر لي وكأنه يردد الحكمة المخطوطة بأصباغ البوية على الكشك خاصته: «إن لم تكن ذئبًا أكلتك الذئاب». لقد آلمتني سياط الهزء في عينيه ودفعتني لارتكاب حماقة فائضة عن الحاجة؛ حماقة رد الاعتبار في مدينة تُهرس فيها الكرامة أكثر مما يُهرس الثوم في برامج الطبخ. برزت وسط الطريق، أخذت شهيقًا طويلًا وأجبرت قامتي على الانتصاب، ثم أشهرت خلف الجكسارة ذات الزجاج المظلل، إصبعي الأوسط. ولأني سيئ الحظ تمامًا، توقفت السيارة، وترجّل منها شاب طويل القامة، مفتول العضلات، يرتدي بدلة سوداء. صفق الباب بقدمه مصوبًا ناظريه نحوي، ثم تقدم كاشفًا عن مسدس ينام في حزامه. أفزعني التماع آلة الموت الصغيرة تلك، ورحت أفكر وصدري يرتفع وينخفض: هل سيطلق النار عليّ، أم ماذا؟!

لعلها محض حركة للتباهي يجيدها هذا الصنف من البشر!

كلا، ما دام قد كشف عن سلاحه، فاحتمال قتلي وارد.

ليس دائمًا، ربما يقصد إخافتي من أجل ألا أطيل الأمر وأسارع للاعتذار.

لكن، من عليه الاعتذار؟!

شغلتني لعبة الاحتمالات وفاتني إنزال إصبعي، فاندفع الشاب، وهو يشاهد الإصبع اللعين مرفوعًا بوجهه كالسارية، بينما أخرج بعض السائقين والمارة وباعة الرصيف ومحبو نشر الفضائح هواتفهم وشرعوا بالتصوير. أمسك به وأثناه بقوة حتى كاد يُكسر، ثم زعق مالئًا وجهي بشظايا اللعاب: ـ هذا ضعه في أمك يا ابن القحبة.

شعرت، وكأنه يسدد لي بتلك الكلمات طعنة حادة في خاصرتي. من أنت لتشتم أمي يا ساقط؟ لم أقدر على سؤاله، في الواقع، فصدري ما زال يرتفع وينخفض وساقاي تواصلان الرجيف. استشعر الخصم خوفي، وأخذ يرشق أضلاعي بظهر كفه، والناس يضحكون. ولأنه ابن حرام مصفّى، باغتني بنطحة على أنفي جعلتني أترنّح مثل فأر ثمل.

فكرت، وأنا أهوي إلى الأرض، بكاميرات الهواتف من حولي، وفضيحتي التي ستحلّق في السماوات. لقد انتزعت هذه الأجهزة اللعينة سلامنا الداخلي وجعلت من حياتنا الشخصية خرقة قماش ينشرها المراهقون على حبل الفضيحة متى ما شاءوا. لا شك بأن هؤلاء الفرحين بكاميرات هواتفهم الثمينة وما بلغته من دقة ووضوح، سيعمدون لمنح المقاطع المصورة عنوانًا مثيرًا يحض على المشاهدة. سيكتبون في الأعلى: شاهد قبل الحذف.. مواطن يؤدب عجوزًا ثملًا.

أو

معاقبة شخص ضال تجاوز الخطوط الحمراء.

أو

فضيحة المصور كمال توما.

هذا إن كان واحد، من بين كل هؤلاء السفلة يعرفني.

في الواقع، لا يحتاج الأمر إلى عنوان مثير، وكيفما ينشر المقطع على الإنترنت سيطير ويحلق في السماوات، فنحن شعب فضولي بطبعه؛ يحب تناقل الفضائح ويهرشه جلده حين لا يضغط على زر التشغيل.

سقطت وسال الدم فوق شاربي وفمي.

ـ انهض يا كلب، زعق سائق الجكسارة وكأنه يريد تأكيد انتصاره.

استجمعت قواي وحاولت النهوض. تماسكت أخيرًا وثبّتت قدمي في الأرض بشكل جيد، ثم عضضت شفتي السفلى ودفعته بكلتا يدَي، فتعثر بحافة الرصيف وسقط. لقد نلت منه، وهذه سابقة تستحق التدوين. لكنه ارتد مثل نابض حلزوني ثم أخرج المسدس من خاصرته واندفع نحوي هائجًا هذه المرة كالحصان. كان سيل غضبه جارفًا، وعيناه تنذران بموت محتوم، ولولا أن ضمير بعض المتجمهرين قد استيقظ فجأة، للقيت حتفي. لقد حالوا بيني وبينه متوسلين إياه العفو عني.

سمعت أحدهم يرجوه بصوت مرتفع:

ـ العن الشيطان يا رجل، اتركه لأجل شيبته.

وآخر يناديه من الخلف:

ـ عجيب أمرك، أستاذ، هل تريد قتل هذا العجوز المسكين؟!

بينما شخص ثالث يقدم له النصيحة: ـ لا تلطخ يدك بدمه يا أخي، سيظهر له ألف صاحب.

كان في كلامهم من الإهانة ما لا يحتمل، حتى أني تمنيت لو أنهم سمحوا له بإطلاق النار على رأسي بدلًا من جرح كرامتي بهذا الشكل! على أية، استجاب الوغد لتوسّلاتهم أخيرًا

وركب سيارته ورحل متوعدًا إياي: ـ لم أنته منك بعد.. سنلتقي.

جلست على حافة الرصيف أجذب أنفاسي، ولساني يلعن مدينة لا تحفظ كرامة أهلها. اقترب مني شخص يرتدي نظارة طبية سميكة، وتفوح من ثيابه رائحة نتنة. أخرج من جيب سترته كيس ملح صغير: ـ هاك.

ـ ما هذا؟

ـ كريستال (14) ينسيك حليب أمك.

ثم أردف:

ـ هذه المرة على حسابي، المرة الثانية بنصف الثمن.. خذ، جرّبه، سينفعك.

نظرت في عينَيه الغائرتين قائلًا: ـ شكرًا لك، لا يلزمني.

أعاد المحاولة، فأعدت الجواب ذاته، لينفخ في النهاية نفسًا نتنًا ويمضي وهو يردد: ـ إلى جهنم!

نعم، إلى جهنم، أعرف هذا جيدًا، فلست وحدك من يقولها لي أيها المتاجر النتن. كانت زوجة أبي تبصقها في وجهي كلما رفضت تناول طعام بائت لثلاثة أيام. كذلك بعض الزبائن البخلاء ممن تستهويهم لعبة التفاوض على الأجر مهما زهد، كانوا يطالبونني بتلميع أحذيتهم مقابل نصف الأجر، وحين أرفض العرض وأغادر، يدحرجوها خلفي وكأنها كلمات وداع: «إلى جهنم». لقد سمعتها من خلق كثير، بيد أني لم أكن أعلم وقتئذ بأنها دعوة خالصة لحضور حفلة شواء، وأن الله سيستجيب لأولئك السفلة في الدنيا قبل الآخرة!

لكن ما شكل جهنم برأيك؟

ما لونها؟

هل هي قاتمة كأيامي؟

ما الغاية منها إن كانت كذلك؟

لا أخفيك سرًا أيها التائه في ملكوت الكريستال، بأني لا أعتقد بوجود حساب في الآخرة لمن هم على شاكلتي، فالمعذبون في الأرض لا وقت لديهم لحفظ جدول الضرب كحد أدنى، إلا أني لا أريد التهام سم يفقدني إنسانيتي ويحيلني كائنًا مشوهًا تنبذه الخليقة.

سرت نحو السيارة وكان صاحب كشك السجائر واقفًا بالقرب منها وبيده كاميرتي: «خذ، حمدًا لله أني لحقتها». لقد حاول أحد اللصوص سرقتها مستغلًا انشغال الناس بالفرجة على حفلة التأديب، وعندما كُشف أمره، لاذ بالفرار. وهذه واحدة من رزايا الحرب؛ جيش من اللصوص الذين لا يحتاج التعرف عليهم إلى شهادة في الفيزياء. شباب طازجون فقس بيضهم في بيوت الصفيح، وتلقوا تعليمهم على أرصفة التشرد، ثم راحوا يدربون أصابعهم على انتشال محافظ الجيب وأجهزة الهواتف وكل ما صغر حجمه وسهل حمله. صغار ملطخون بوحل الرذيلة، وعلى جباههم لافتة عار مبكر: «أنا لص». ذات مرة، أمسك صالح بواحد منهم حاول سرقة محفظة نقوده، وراح يركله مردداً: ـ أي مصيبة رمتكم علينا يا سفلة؟

أجبته بدلًا عنهم:

ـ الحرب!

فقال:

ـ لا وحقك، هؤلاء فاسدون من البيضة.

هكذا نحن، لم نتفق يومًا على رأي.

لكن، هل صحيح أن اللص يولد لصًا؟ أما أنها أغنية من تأليف الكسالى وألحانهم؟

استعدت كاميرتي وركبت السيارة ماضيًا وسط الزحام، أربّت بقوة على المقود: «آه منك يا كمال! آه منك يا كمال! ما كان لكل هذا أن يحدث لولا أنك تهورت وقررت الثأر لكرامتك. أنت المذنب، أنت اللعين وابن الكلب. كان يمكن للأمر أن ينتهي بلا فضائح ولا تهديد لو أنك تواضعت ومنحت هذا التافه شعورًا زائفًا بالنصر، بل لتبدل حاله ودفع لك تعويضًا سخيًا عما فعله بسيارتك. التافهون بحاجة إلى نصر زائف يغطي شعورهم بالنقص.. كيف فاتك هذا أيها الأحمق؟!»

أكملت طريقي وأودعت البيجو، بمؤخرتها المهشمة، داخل كراج يرتكن الصوب الشمالي لساحة زبيدة. ثم اشتريت علبة سجائر من على الرصيف ومضيت نحو شارع الرشيد. عبرت الحاجز الأمني الذي صنعه فرسان بغداد لدى المدخل، وسرت لائذًا خلف الأسطوانات خشية أن يراني من شاهد فضيحتي. وصلت الأستوديو أخيرًا وأولجت المفتاح في القفل، لكنه لم يفتح. عالجته يمينًا وشمالًا ضاغطًا عليه بقوة، فاستجاب. طويت درفات الحديد، إثنين إلى اليمين، وثلاثًا إلى الشمال، ثم أدخلت المفتاح الصغير في الباب الزجاجي ليدور وينفتح بلا عناء. أنرت المصابيح وصعدت إلى الحمّام لغسل ذقني من الدماء. تحسست، وأنا أقف أمام المرآة الصغيرة، أنفي الذي بات يؤلمني، وشتمت صالح ومواعيده قبل أن أنزل إلى المكتب. كان الأستوديو باردًا ورطبًا. أشعلت المدفأة الكهربائية وأدنيتها قرب ساقي، ثم أشعلت سيجارة ورحت أرنو إلى وجه الصبي المحشور تحت الزجاج. ما زال واقفًا قرب عربة الشاي يعلق على رقبته النحيلة صندوق الأحذية، وما زالت حروف اسمه ترمى مقطعة وراءه. هتفت بلا شعور: «لمّع.. لمّع».. وسالت على خدي دمعة مالحة. أزحتها بظاهر يدي، ثم أخرجت الحجر من زيق القميص ومضغته.

(14) نوع من المخدرات.

الفصل السادس والعشرون

فتاة الجسر

«إذا جاء صالح، دعه ينتظر، سأعود». ـ قلت لبائع الشاي، وأنا أغلق باب الزجاج وأغادر صوب جسر الشهداء.

لم يكن لي مزاج للتصوير، غير أني اشتقت إلى دجلة. ما زالت هنالك ساعة على الموعد، وما زال صالح يمارس هوايته في غلق الهاتف. صعدت على الجسر أرنو إلى النهر. كان وجهه شاحبًا وكئيبًا، تنعكس فوقه ظلال السحابة السوداء المحملة بالمطر. ما عدا ذلك، بدا كل شيء طبيعيًا وكأن ساقطًا لم يأسر المدينة ويحرّم على أهلها حتى الضحك. كان هنالك أشخاص يصطفون على متن الجسر لإطعام النوارس، باعة جوالون يدفعون عربات الجوز والزبيب وجمّار النخيل، فرق جوالة من الشباب يرتدون سترًا خضراء ويحملون المكانس للحد من زحف القمامة، وفتيات بلون الحنطة يلتقطن صور السيلفي. تباطأت خطاي بحثًا عن مكان شاغر، واخترت في النهاية فسحة قرب فتاتين، تحمل إحداهما مظلة مسدَلة، ثم رحت أبث النهر آهة يعرفها. لفحتني في الأثناء ريح باردة وكأن دجلة تبادلني الشكوى، فأحكمت أزرار المعطف وهممت بالمغادرة. لكن صوتًا ناعمًا كان قد طرق أذني، فتوقفت: ـ لو سمحت.

إحدى الفتاتين تمد يدها الناعمة بالهاتف المحمول.

أجبتها:

ـ تفضلي.

ـ ممكن تأخذ لنا صورة، عمّو؟

ـ بالموبايل؟!

ـ نعم عمّو، بالموبايل، فقط اضغط على هذا الزر.

يا لله! هذه الفتاة تخالني لا أجيد استخدام الهاتف المحمول!

ـ أعرف كيف يعمل، لكني ظننتك تقصدين بالكاميرا؟

ـ آه، أنت مصور؟!

وهذه إهانة ثانية!

ـ يقولون ذلك.. دعينا نجرّب، أجبتها.

ـ أوكاي، قالت برقّة وهي تغرس أصابعها في شعرها وتتهيأ لالتقاط الصورة.

رفيقتها، المشغولة بالكتابة على شاشة الهاتف، انزاحت جانبًا رافضة الظهور أمام الكاميرا. عرفت من خلال المفاوضات السريعة التي جرت بينهما بأنها ليست راغبة في احتفاظ شخص غريب بصورتها. انشغلت عنهما بضبط إعدادات الكاميرا، وتراجعت بضع خطوات إلى الوراء ثم جانبت السياج وانحنيت قليلًا. طالبت الفتاة بالميل نحو اليمين، فامتثلت وهي تبتسم. ركزت العدسة على عينيها اللامعتين وبدأت أعدّ: واحد اثنان ثلاثة، ثم كبست على الزر: ثْرِكْ إشششثْ، وقلت لها انتهى.

ابتسمت الفتاة للطقوس البالية وظلت تحدق بي كمن ينظر في قطعة نادرة داخل متحف. طرفت لها ولم أعلق، كنت مهتمًا بإظهار صورتها في الشاشة الصغيرة للاطمئنان على النتائج.

ـ لا بأس، قلت.

كانت حركة اليدين المطوقتين للخصر، والرأس المائل قليلًا إلى الوراء، تتماهيان مع خفق جناح نورس في الخلف، وتمنحان الصورة صدقًا نادرًا. أما الابتسامة الندية والنادرة، فتبدد غبش الصبح الغائم وتغتال الشكوك حول ما يدور بأن بغداد مدينة كئيبة.

ـ حلوة؟ سألتْ.

ـ لا أدري، تعالي وانظري بنفسك، أجبت.

أملت الكاميرا وأومأت، فدنت وأخذت تنظر في الصورة تاركة خصلة من شعرها تتدلى وتلامس يدي. شعرت بأني قد مررت بهذا الموقف من قبل. أما هي فلم تخف صوت دهشتها، بل مدت إصبعها الممشوق نحو الصورة وكأنها تروم لمس خدها.

نادتها صاحبتها:

ـ هيا بنا، لقد تأخرنا.

ردّت عليها باختصار:

ـ لحظة..

ثم نظرت لي قائلة وهي تفتح المظلة تحسبًا لهطول المطر: ـ كيف ترسلها لي؟

ـ بالإيميل يا بنتي بالإيميل، لماذا تعتقدين بأني متخلف؟

ـ آسفة، عمّو، لكن متى؟

ـ اليوم، عندما أعود إلى الأستوديو أنزلها على الكومبيوتر أولًا وأرسلها لكِ.. لحظة سأعطيكِ الكارت.

خلتها ستقول: «آه، عندك كارت شخصي؟» لو فعلت ذلك لرميتها من الجسر. ألا يكفي أني فوّت لها المناداة بـ «عمّو»؟ مددت يدي في جيب المعطف لإخراج الكارت، لكن الدوار باغتني من جديد، ومال جسدي كالقصبة.

ـ عمّو عمّو، هتفت الفتاة وهي تتشبث بزندي، سلامتك!

استندتُ إلى السياج خشية السقوط وعصرت جفنَي لصرف الكريات السوداء التي أعشت بصري.

ـ أنت بخير؟ قالت.

ـ نعم بخير، أجبت.

ناولتني زجاجة مياه معدنية وهي تتحدث مع رفيقتها بمصطلحات طبية لا أفقهها. سكبت قليلًا على وجهي وأعدت لها الزجاجة، فأمسكت يدي وضغطت بإبهامها الرقيق على الرسغ كمن يشرع بقياس النبض.

ـ ها، ما الأخبار؟ سألت.

ـ كل شيء تمام، أجابت وأردفت، ربما السكر عندك منخفض.

ثم فتحت حقيبتها وأخرجت قطعة سكاكر: ـ تفضل، عمّو.

ـ ما هذه؟

ـ سكاكر. تناولها، ستنفعك.

يبدو أن هذه الفتاة قد حسمت أمرها على أن إعدادات السكر لدي بحاجة إلى ضبط وميزان! على أية حال، لم أكن أملك ترف الأخذ والرد. تناولت حبة السكاكر شاكرًا، نزعت

رداءها المجدول من الطرفين، ثم ألقمتها فمي ورحت ألوك على مهل. كانت بطعم الليمون. أرعدت السماء ثانية، وأخبرتها بأني بت الآن أفضل.

ـ شكرًا دكتورة.

ابتسمت بخجل:

ـ العفو.

دفعت نحوها البطاقة قائلًا: ـ اكتبي لي على الإيميل وستصلك الصورة.

ـ شكرًا عمّو، قالت وهي تودّعني بابتسامة مميزة.

رحلت وتركتني واقفًا على الجسر أعاين دجلة حتى هطل المطر وتفرق الناس. لم أكن خائفًا من البلل، ولولا خشية اتهامي بالجنون لما غادرت. سرت بهدوء كما يفعل العشاق فوق رمل الشواطئ، إلا أن اشتداد المطر وسقوط البرَد في الأثناء جعلني أهمّ الخطى عائدًا صوب الأستوديو. دلفت إلى سوق السراي ومضيت محتميًا بسقفها الشاهق. انتظرت هناك حتى هدأ المطر قليلًا، وكفت السماء عن قذف حصيات الثلج الناعمة. خرجت من السوق وانعطفت يمينًا أحتمي بألسنة السقائف القماشية المندلقة فوق واجهات المحال والمكتبات. كان أصحاب الأكشاك وباعة الرصيف يفرشون السُمط فوق الكتب والبضائع لحمايتها من البلل. وفي منتصف الطريق انزلقت ببلاطة ملساء مبللة كادت تسقطني لولا أن تمسكت بمنضدة جانبية. منضدة من الخشب تتقدم مكتبة الأضواء الساطعة، التي هرع صاحبها هاتفًا من خلف الزجاج: ـ اسم الله.. اسم الله..

أومأت له برأسي، فأردف:

ـ تفضل عندنا أستاذ كمال، شرّفنا بحضوركم الزاكي.

كان شخصًا سمجًا وثقيل دم وغير بريء إلا من تهمة الغباء، ستتعثر به أينما ذهبت وأينما أتيت، فهو واحد من مخلوقات هذا الزمان ممن يلقبهم صالح بقرود الواجهة. لم أكن أطيقه، وكلما مررت ورأيته جالسًا بين الكتب، شعرت برغبة شديدة في شتمه.

المكتبات عتبات مقدسة، لا ينبغي أن يدنسها المدّعون.

ثم ما هذه «حضوركم الزاكي»؟! قاتل الله السماجة.

لم ألبّ دعوته، بل اكتفيت بكلمات شكر كاذبة وانتظرت واقفًا ريثما أجذب أنفاسي وأذهب، لكنه بدا مصرًا على إزعاجي: ـ عذرًا أستاذ كمال، ممكن سؤال؟

ـ تفضل.

ـ ما هذا الذي شاهدناه اليوم؟

ـ ماذا شاهدتم؟

حدق بي مشككًا:

ـ المقطع الذي انتشر.

واصلت التغابي:

ـ عن أي مقطع تتحدث؟ أنا لا أفهمك.

نفد صبره وقال:

ـ لحظات.

دخل وعاد مسرعًا بالهاتف، فتحه وراح يمرر إصبعه على الشاشة حتى وصل مبتغاه، وأدارها نحوي.

ـ هذا المقطع.

نظرت في الشاشة دون لمسها. ليس ثمة مفاجأة؛ طارت فضيحتي وحلّقت بجناحين عملاقين.

ـ عادي.

ـ عادي؟!

ـ نعم، عادي، لمَ تشعرني بأننا نعيش في سنغافورة؟!

ألحّ في السؤال وكأنه يجهل الفعل حقًا: ـ لا ليس هكذا، عذرًا منك أستاذ، لكن من يكون هذا الشخص؟

نفخت ضحكة هازئة وتركت الصفيق يثرثر ومضيت.

نادى خلفي:

ـ إلى أين؟ دعنا نفهم يا أخي..

لم ألتفت.

ماذا تريد أن تفهم أيها الثرثار التافه؟ إن لم تكن ذئبًا أكلتك الذئاب.. هذه كل الحكاية.

الفصل السابع والعشرون

عد تنازلي

أوصلت الكاميرا بجهاز الحاسب بغية وضع الصورة على الشاشة وإجراء ما يلزم قبل الطباعة، فطلّت فتاة الجسر لتزيح بابتسامتها كدر ما بعد الغثاثة. نظرت في عينيها. حسنًا، دعيني الآن أضعك على برنامج تعديل الصور.. ليس ثمة حاجة لإضافة التوابل، فأنت أجمل من فراشات الربيع، ربما ظل خفيف يكفي لجعلي مطمئنًا للنتائج.

الكثير من الزبائن يرغبون في وضع الرتوش وإزالة ما لا يفضلون رؤيته في وجوههم. ذات مرة اعترض زبون لأن بوزه بدا طويلًا في الصورة. قلت له بصراحة: «هذا بوزك يا أخي، لست أنا من خلقك». فردّ غاضبًا: «حمدًا لله أنك لم تخلقني يا زنديق». ثم حمل صورته ورحل دون أن يدفع لي الثمن.

وفي مرة طلبت مني سيدة تشارف على الخمسين محو التجاعيد الخفيفة في طرفَي عينيها، وعندما أخبرتها بأنها جميلة مع خطوط العمر هذه، امتعضت وكادت تتهمني بالتحرّش! يتصرفون وكأنهم في مركز للتجميل وليس ستوديو تصوير.

ـ مرحبا، قال صالح من على الباب.

كان لوحده!

هززت رأسي يمينًا وشمالًا.

ـ ما بك؟ قلنا مرحبا.

ـ أهلًا بالشريف، لمَ هاتفك مغلق؟

رد وهو مبتسم:

ـ لأنه مغلق، ألا تعلم بأن الهواتف تموت عندما تنفد البطارية؟

أخرج الشاحن من حقيبة الكتف وأوصله بالكهرباء، مردداً: ـ الآن، سنعيده إلى الحياة.

لكنه سرعان ما انتبه لأنفي، فارتسمت عليه علامات القلق.

ـ ما به أنفك؟

ـ دعك من أنفي وقل لي أين صاحبك؟

لم يجب، وظل يرشقني بالأسئلة:

ـ من كسر أنفك؟

ـ هل تعرضت لحادث؟

ـ ماذا حدث بالضبط؟

وبين سؤال وآخر:

ـ احكِ يا رجل، ما بك ساكت؟!

صالح بطل العالم في سباق التفاصيل. مذ عرفته وهو لا ينفك عن ملاحقة التفاصيل، كما أنه يقلق كثيرًا حتى لتخاله قد جاء إلى الدنيا في قماط من قلق.

ـ قلت لك لا شيء، مجرد وقعة بسيطة، جواب نهائي.

ـ حسنًا، ستقرّ لاحقًا.

ـ بالنسبة للموعد؟ أين صاحبك؟

ـ كنا سوية لكنه ذهب في مشوار ضروري، سيعود بعد الظهر.

ـ ماذا يريد بالضبط؟

ـ كل الخير، سيخبرك بنفسه عندما يأتي، المهم أنا...

لم يواصل صالح الكلام، أسكته صوت الزجاج وهو يتناثر وسط الأستوديو.

كان أحد مجانين شارع الرشيد قد رجمنا بحجر وهرب. لحسن الحظ أنه ضرب زجاجة الباب لا معرض الصور على جهة الشمال. الزجاجة ليست كبيرة ويمكن احتمال تكاليفها. خرج صالح يردد خلف المجنون أقذع الشتائم، ثم عاد ليسأل بقلق: ـ والآن، ماذا نفعل؟ ابن القحبة كسرها.

ـ اهدأ، عزيزي، الأمر بسيط، نبدلها والسلام.

ـ ما أبرد قلبك!

ـ ليته كذلك، قلت وأنا أهمّ بالذهاب صوب عگد الجام (15).

اعترضني:

ـ ابق أنت، أنا أذهب إلى العگد.

ـ حسنًا، قل لهم 3 في 1،5.

ـ متأكد من القياس، كيمو؟

ـ أجل.

ـ حسنًا، لن أتأخر.

كنست شظايا الزجاج وجمعتها فوق قطعة من الكارتون المقوى وسرت بها إلى آخر الشارع حيث حاويات القمامة. حاويات كبيرة مصنوعة من الحديد المطلي بالأخضر. وجدتها، كالعادة، ملأى، تفيض منها أكياس الطعام لتصنع في الجوار تلًا من الفضلات يثير شهية الذباب. احترت أين أرمي الكناسة؛ أفوق التل أم لدى صورة الزعيم طاهر الحنش، الشامخة قرب المزبلة! وفي النهاية قررت العودة بها إلى الأستوديو. رآني آنئذ جاري، الذي أغلق الرصيف بحقائب الجلد الرخيصة، فساطني بابتسامة هازئة: ـ عاش المواطن الحريص على وطنه.

ـ متى كان الحرص على الأوطان مدعاة للسخرية يا تافه؟!

وددت الاعتراض، لكني آثرت السكوت خشية الاتهام بالرومانسية.

هذه الأيام ما إن تقول «وطن» حتى يبادر التافهون للضحك، وكأنها لفظة وردت في قاموس الفكاهة والتندر! قاتل الله أولاد الحرام، لقد بالغوا في تهشيم الوطن حتى أحالوه نكتة تدغدغ آباط الضحك.

دخلت الأستوديو، أفرغت الكناسة الحائرة في كيس من البلاستك وأخفيته في الداخل ريثما يبعث الله جنودًا من السماء تفرغ حاويات القمامة. عاد صالح بعد ذلك يتبعه بائع الزجاج برفقة عتّال يدفع عربة تحمل لوحًا. كان البائع يرتدي كفوفًا سميكة واضعًا يده فوق لوح الزجاج ويسير بجانب العربة. أنزله منها وشرع بتركيبه بعدما أزال بالمفك الصغير شظايا ظلت عالقة بين ثنايا الخشب. أنجز عمله أخيرًا وغادر، ليبادرني صالح بالقول: ـ كيمو، أنا جائع ولم أتناول شيئًا منذ الصباح، تأكل معي؟

ـ كلا، شكرًا، أفطرت في البيت.

ـ لكن الساعة تقترب من الحادية عشرة!

ـ لا أشتهي الطعام الآن، ربما لاحقًا.

ـ حسنًا، سأجلب لي شيئًا سريعًا وأعود.

خرج وانعطف يمينًا باتجاه الكافتيريا، ليعود بسندويتش فلافل بالعنبة (16)، غير أنه بدا متحفزًا وفي فمه كلام كثير.

باغتني بالسؤال:

ـ ما الأمر يا كمال؟ لمَ كذبتَ عليّ؟!

ـ بماذا؟

ـ لا تماطل، لقد رأيت المقطع الآن، من هذا الذي تشاجرت معه في الطريق؟

أعلم جيدًا بأن صالح قد استعار لفظ الشجار للتخفيف عني، وإلا فالسؤال المناسب هو: من هذا الشخص الذي أهانك في الطريق، ومسح بكرامتك الأرض، وأذلّك بين الناس؟ ثم أني لا أتشاجر، تشاجرت مرة وخسرت أخي.

أجبته مسدلًا جفنَي كمن يريد إنهاء الحديث: ـ ليس مهمًا يا عزيزي، لقد انتهى.

لكنه يأبى إلا أن يشفي فضوله، فلوى بوزه، ثم انفجر بوجهي معلنًا عن نفاد صبره: ـ كيف بدأ لينتهي؟ لماذا لا تجيب على سؤالي بشكل واضح؟ من هذا الشخص؟ ماذا يريد منك؟

ثم أعاد السؤال بصياغة ثانية يشوبها الاستفزاز: ـ من كسر أنفك؟

ـ واحد منهم.

ـ ممن؟

ـ من أولاد الحرام.

ـ أولاد الحرام كثيرون، من تقصد؟

ـ شخص يحمل مسدسًا في خاصرته، ويقود سيارة منزوعة الأرقام.

ـ آه، هذا ابن حرام أصيل إذن.

حكّ ذقنه وأردف:

ـ لكن، ما دام كذلك، فلماذا تورطت معه؟

ـ لم أنو التورط معه، كل ما في الأمر أنه ضرب سيارتي، فشتمته.

هز رأسه يمينًا وشمالًا كعلامة لأسف لن ينفعني بشيء، ثم ثنى طرف السندويش وباشر بقضمه. أما أنا فأشعلت سيجارة جديدة من عقب أختها التي شارفت على الموت ورحت أفرغ التوتر باستنشاق الدخان ونفخه.

تموت السجائر من أجل إسعادنا، ثم نصفها بالقاتل الشرس.. يا لجحودنا!

قال صالح وهو يلوك الطعام:

ـ هل سمعت آخر الأخبار؟

ـ الأخبار كثيرة، أيها تقصد؟

ـ دودي الحلو، تعرفه!

ـ تقصد وليد؟ أجل أعرفه، ما به؟

ـ ينوي طباعة كتاب لنقد التجربة الفوتوغرافية في العراق.

أحجمت ولم أعلّق، فأردف:

ـ بالله عليك، هل رأيت مهزلة كهذه؟! زعطوط (17) لا يميز بين الفتحة والسرعة يعلّمنا كيف يكون الفوتوغراف؟!

كان ينظر لي كمن يترقب كلمات التأييد.

ـ إي! لم نسمع رأيك، سيد كمال!

خذلته واكتفيت بإيماءات لا تكشف عن شيء سوى أن صاحبها لا يريد الاشتراك في حديث فائض.

لمَ عليّ إبداء رأي في كل قضية؟!

وما جدوى قول لا يُسمع؟!

التففت حول كرسيه وخرجت.

هتف خلفي:

ـ إلى أين؟ هربت؟

هززت له يدي مردداً:

ـ لحظة..

خرجت وطلبت قدحي شاي من بائع الرصيف، وحينها مرّ أصحاب الستر الخضراء. كانوا يزيحون الأكياس والحجارة عن حواشي الطريق وممرات الصرف الصحي، فتناولت

الكاميرا وعمدت إلى توثيق ما يصنعون. كان لون الطين الذي يغطي أسفل سراويلهم يحاكي سحنة التعب الممزوج بالأمل فوق جباههم. التقطت لهم بضع صور زيّنوها بحركات راقصة وعلامات نصر. للنصر لدى هؤلاء الشباب معان أخر، غير تلك التي عرفناها في زماننا ومضغناها مضغ العلكة. نصر هؤلاء ليس بحاجة إلى دبابة يربضون على ظهرها الساخن، أو بسطال تتعفّن به أقدامهم، أو بدلة كاكية مثقبة الجيوب.. نصرهم أن يزيحوا بالمكانس جبروت السلطة، أو يلوّنوا ثقل الحواجز الإسمنتية باللوحات والصور، أو يعيدوا إلى الأزقة أسراب الضحك المهاجرة. ما زلت أحتفظ بصورة ذلك الشاب الجميل، الحامل على صدره صندوق تفاح ولافتة: «اضحكْ وخذ تفاحة». كان يعترض بها المارّة كي يداوي كآبة الهواء بالضحكات.

عدت لصاحبي الذي انتهى للتو من السندويتش، وتناول منديلًا لمسح فمه. أسندت مرفقَي على سطح المكتب وقلت له بهدوء: ـ يا صديقي العزيز، أنا لا أهرب، لكنك تعرف طبعي؛ لا أفضل التدخل في شؤون الآخرين.

فابتسم بخبث قائلًا:

ـ نعم، هذا صحيح؛ أنت دائمًا ما تعفّ عن شؤون الآخرين، لكنهم دائمًا ما يحشرون أنوفهم في مؤخرتك.

ـ إذا كانوا يحبون حشر أنوفهم هناك، فهذا شأنهم.

ترطّب الحديث أخيرًا، فشربنا الشاي وغادر صالح. قال بأنه ذاهب لجلب ألبوم الصور، ولم ينس أن يضيف: ـ سأعود.

بقيت من بعده جالسًا أدخن السجائر بلا حساب، حتى شعرت بالاختناق. أطفأت عقبًا معلقًا بين أصابعي وخرجت عند الباب لاستنشاق الهواء. كان الشارع ما يزال مبللًا، ووشل الماء النازل من الميزاب ينزلق فوق الإسفلت ويمر بسلام نحو مشبكات الصرف الصحي التي

باتت بفضل الشباب سالكة. شعرت أني بحاجة إلى دخول المقهى. الجلوس في المقاهي العتيقة يوفر لي أمانًا من نوع خاص. أشعر، كلما دلفت واحدة منها، بأن الزمن قابل للدوران، وأن من حولي موتى أضنتهم الغربة، فعادوا لرشف الشاي بصمت وروية.

ذهبت إلى مقهى الزهاوي، واخترت الجلوس على أريكة متآكلة، قرب زبون يكبرني بألف عام. كان يمسك بجريدة، وجفناه مطبقان، بينما يواظب الجالس قبالتي على تدوير الملعقة في القدح دون نية للتوقف. لا أدري لمَ يضع النُدل الملاعق في أقداح المتقاعدين والكهول! أما كان لهم أن يفعلوها بأنفسهم ويوفروا علينا كل هذا الضجيج؟! هكذا تفاصيل رغم تفاهتها، تسيء لسمعتنا، نحن كبار السن، وتجعلنا مملّين في عيون الشباب.

لست كهلًا، غير أني ومذ تخطيت عتبة الستين، أحاول الاقتراب من معشر الكهول تمهيدًا لعمر لاحق. هذه السلوكيات المثيرة للضجر هي ما تمنعي من الاندماج معهم. انتميت بادئ الأمر إلى منتدى الشيخوخة في شارع النضال، وواظبت على الحضور هناك لثلاثة أسابيع وبضعة أيام، لكني فشلت في مجاراتهم وألغيت اشتراكي. ففي يومي الأول جالسني ثلاثة منهم، سألني أحدهم، بلا مناسبة، عن مقدار دخلي الشهري، مذيّلًا سؤاله بفاتورة شكاوى طويلة يلعن فيها الحياة وضنك العيش. بينما غمزني الآخر سائلًا، بلا مناسبة أيضًا، عن مستوى خصوبتي! أما الثالث فهداه الله ولم يسأل، إلا أنه ظل يتأفف حتى العصر: «أُففففف.. أُففففف.. أُففففف».. تكررت الحالة ذاتها في الأيام التالية، مما دفعني إلى إلغاء الاشتراك وعدم الاقتراب من المنتدى مرة ثانية.

أطلق قارئ الصحيفة ضحكة عالية، ومال على كتفي متسائلًا: ـ هل قرأت هذا الخبر؟

أجبت:

ـ كلا، أي خبر؟

غطس وجهه في الجريدة وقرأ العنوان من خلفها: ـ مجلس النواب يصادق على قانون منع بيع الخمور.

ثم عقب قبل أن يعاود الضحك:

ـ بدون الخمرة كيف نتحمل وجودكم.. سيبندية؟! (18)

وفي الأثناء جاء نادل المقهى بقدح الحامض الذي طلبته بدل الشاي، فلو حللوا دمي لوجدوه مزيجًا من الشاي والنيكوتين. وضع القدح على الطاولة الهرمة، وعيناه في عينَي!

منذ لحظة دخولي وهو على هذه الحال؛ يرمقني بنظرات قلقة ولا ينفك عن مراقبتي. كان بوسعي أن أموت مرتاح البال لو حالفني الحظ في معرفة ما يريد.

قبضت على يده وسألته بصوت خفيض: ـ ماذا هناك؟

أجاب:

ـ سألوا عنك، أستاذ.

مضغت ريقي قائلًا:

ـ من؟

رد قبل أن يمضي في عمله:

ـ شخص يحمل مسدسًا.

وما أن أنهى النادل الجواب، حتى داهمني ألم غريب أسفل البطن، تلاه طيف قاتل يحوم حول المكان ويعد أنفاسي: عشرة..

تسعة..

ثمانية..

سبعة..

(15) سوق لبيع الزجاج والمرايا.

(16) نوع من المخللات

(17) تطلق على الرجل البالغ من أجل تحقيره، وتعني طفل. أصلها آرامي.

(18) مفردها سيبندي، وتعني الماكر والمخادع. أصلها تركي

الفصل الثامن والعشرون

واحد منهم

أعرف بأن عليّ أن أموت يومًا ما

لكن، لمَ عليّ أن أموت قتيلًا؟

ألا يحق لي أن أموت كما أشتهي؟

أن أمضي بهدوء من السرير نحو الضفة الأخرى

دون أن يثقب الرصاص لحمي

وتنغصّ سكينتي أضواء الكاميرات

لماذا يسلبونني حق الاختيار حتى في طريقة موتي؟!

توقف عدّاد الموت وتلاشى ألم أسفل البطن، لكن طيف القاتل ظل يراودني بين الفينة والأخرى ليثبت أن اقتراب النهاية شعور مضنٍ.

سيضغط السافل على الزناد، فينطلق العيار هائجًا صوب جبهتي. سيخدش الجلد أولًا ثم يثقب العظم ليخترق لفافة الدماغ ويمزق الأعصاب. سيحدث عطب في مركز التحكم وتضطرب الحواس شرقًا وغربًا ثم يشرع خفق الحياة بالتباطؤ رويدًا رويدًا حتى لحظة الهمود. في حالتي، سيكون صوت ارتطام العيار بالعظمة كافيًا للإصابة بالسكتة القلبية، فأنا لم أمارس الموت من قبل، ولم أقف بوجه قاتل. لكن ابن الحرام هذا لا يراهن على ضعفي، ولو كان كذلك لاكتفى بعطسة يفجرها خلفي تحت ستار الليل. سيطلق لا شك عيارًا آخر

يتكفل بتهشيم رأسي وإحداث فتحة كبيرة في الخلف يندلق منها سائل لزج من دماغ ودم. موتة عنيفة وصاخبة يحبذها السفلة من أمثاله على الرغم من أنها بدائية نوعًا ما!

حتى الساعة لا أعلم لماذا يصر هؤلاء القتلة على الطرق البدائية في سلب الأرواح؟! لمَ لا يحدّثون أدمغتهم ويزيلون عنها صدأ الغباء؟ لقد قرأت في موقع إلكتروني يعنى بطرائق الموت المريح بأن شركة أدوية قد صنعت إبرة لهذا الغرض. إبرة صغيرة بحجم إصبع تحقن في الوريد لتنهي حياتك خلال عشر ثوانٍ لا أكثر. حتى أنهم كتبوا في الإعلان الترويجي: «عزيزي المواطن يمكنك أن تغمض عينيك وتعدّ الشياه من الواحد إلى العشرة، لتجد نفسك ملقىً على الضفة الثانية حيث العالم الجدير بالاكتشاف.. أهلًا بك في عالم الموتى».

لكنْ، الحق معكم، فالموت في كل الأحوال نهاية قاسية، وليس أمامي الآن سوى التعرف على هذا الساقط الذي يريد قتلي، إذ ليس من الإنصاف ألا يتعرف المرء على وجه قاتله قبل الرحيل كحد أدنى.

عاد صالح من شارع السعدون متأبطًا ألبومه الجديد، وكان عن مخيمات النازحين، ثم جلس يربّت عليه قائلًا بأنه سيبيعه لمنظمة إنسانية. قبل هذا كان قد صنع واحدًا عن القباب الذهبية في كربلاء وباعه لرجل أعمال يدعي القرب من الله، وواحدًا عن آثار بابل، باعه لا أدري أين.. من هذه الألبومات يتحصل صاحبي على فتات رزقه، بعد موت مهنة المصور الجوّال وتشييعها نحو مثواها الأخير.

فتح المجلّد الأنيق وراح يقلب صور المخيّمات، المدونة تحتها شروح بالعربية والإنكليزية. خيم بلاستيكية رديئة، حوافها غارقة في الوحل، تطل منها نسوة يتشحن بالسواد، وأطفال يخجل الفقر من فقر ما يرتدون. رأيت صورة عجوز كهل متعب يلتحف عباءة فرو بدوية ويلفّ رأسه بكوفية حمراء بلا عقال، كان جالسًا تحت الشمس يدخن السجائر وينظر في الفراغ. تلتها صورة لأطفال حفاة يصنعون من الطين ما يشبه المنازل، وصور أخرى كثيرة، من تلك التي تمنح الرائي الشعور بالعار والحزن على حد سواء.

أتذكر بأن صالح كان قد زار المخيمات من قبل مع وفد لإحدى المنظمات المعنية بشؤون اللاجئين، وتحصل على صورة فريدة تناقلتها المواقع العالمية. صورة فتاة صغيرة، ضفائرها صفراء وفي عينيها الجميلتين ابتسامة غارقة بالدمع. كانت لقطة يصعب تفسيرها إلى حد أن بعضهم وصفها بموناليزا العراق. ما يثير الاستغراب أن الصورة حين انتشرت على الإنترنت، وتلقفتها الصحف المحلية والعالمية، اتصل به مسؤول كبير في الدولة واشتراها منه بثلاثمائة دولار! للوهلة الأولى، شككت في الأمر ورحت أتساءل ماذا يفعل مسؤول حكومي بصورة كهذه؟! غير أن صالح أقسم لي على ذلك وأردف معللًا تصرف المسؤول: ـ من يدري؟ ربما اقتناها لتذكره بفشله؟!

كان ألبومه سميكًا هذه المرة ومغريًا، لكني لم أتفاعل معه كما في كل المرات. كنت قلقًا ألوك شفتي وأتصفح شريط الوجوه علّني أتعثر بوجه قاتلي. تنبه لحالتي ثم ضيق عينيه وأخذ يحدق بي كمن يحاول قراءة كلمات ناعمة: ـ لست على ما يرام، ما بك؟!

وأضاف:

ـ هل عدنا إلى المزاج الملول؟! ماذا حصل؟!

ماذا عساي أن أخبره الآن؟ هل أقول له بأني أشم رائحة الموت، وأن قاتلًا ما يعد أنفاسي؟ سيفتح مزلاج التفاصيل وتندلق علامات الاستفهام مطالبًا بالدليل، بماذا أجيب؟ ثم إني لم أر القاتل بعيني بعد، وكل ما بنيته إنما هو قائم على كلام النادل فحسب. كان العم خليل يقول في حالة كهذه: «من الأنانية غرز القلق في صدور أحبائك بأخبار غير مؤكدة». ماذا أفعل؟!

ـ أنا بخير، قلت.

ـ كذاب من عينك؟ أجاب.

كان سهلًا كشفي، أعرف هذا جيدًا، فخضعت: ـ أحدهم يريد قتلي.

ـ من؟

ـ لا أدري، لكنهم جاءوا ليسألوا عني.

أخرج علبة السجائر وقدم لي واحدة، فتشاركنا الدخان، وما زال يلح في السؤال: ـ من هؤلاء الذين جاءوا يسألون عنك؟

ـ فرسان بغداد.. يبدو أنهم وضعوني في رأسهم!

ـ كيف عرفت بأنهم فرسان بغداد دون غيرهم؟

ـ أخبرني النادل بأن شخصًا يحمل مسدسًا سأله بالاسم عني.

ـ لكن هذا لا يعني بالضرورة أنه منهم، في بغداد عدد الذين يحملون السلاح أكثر من حبّات الرمل على الخليج.

ـ بالله عليك، هل ترى الوقت مناسبًا للمزاح؟

ـ أنا لا أمزح، كيمو، حقًا عددهم يفوق حبّات الرمل.. لذا دعك من الأوهام يا صديقي، أنت شخص مسالم، لا تهش ولا تنش، لماذا يسأل المسلحون عنك؟

ـ أقول لك إنهم سألوا، لقد أبلغني النادل بذلك.

ـ دعك منه، هذا يهذي. لو كان هنالك شيء، لجاءوك بشكل مباشر.. هؤلاء القتلة لا يحبذون الوسائط كما لا يخشون المواجهة.

توقفت عن مجاراته إذ شممت رائحة المنطق، وهذا أمر نادر، تفوح من كلامه، فمن أنا ليضعني الزعيم طاهر الحنش في رأسه؟ وما قيمتي أمام عصابة تملك من السلاح ما يتعذر عدّه؟

لكن؛ هل يتعلق الأمر بالأستوديو؟

هل وصلها الدور أيها السفلة؟

خيّم الصمت قليلًا قبل أن ترتفع خرخشة مكبرات الصوت من مئذنة الجامع القريب. كانوا يتهيؤون لرفع أذان الظهر. عند ذاك نط صالح ليقول ممازحًا: «حيّ على التصوير». ثم راح يجرجرني للخروج في جولة من تلك الجولات التي تتخذ من الأزقة النحيلة حلبة للحصول على صور نادرة. رجوته أن يتركني بسلام ويذهب. لكنه ألحّ كعادته، مرددًا بأن الحارات القديمة مزدحمة اليوم بالناس، وغبي من تفوته فرصة الحصول على صورة. وافقت في النهاية وسايرته بعدما رفعت ياقة المعطف خشية أن يراني أحد. دلفنا إلى سوق هرج المكتظة بالزبائن والمارة. كان الباعة يفترشون أكتافها بالأنتيكة وأشرطة الكاسيت القديمة والطاولات الخشبية التي تحمل على متونها خواتم الفضة والأحجار الكريمة، وتتدلى منها المسابح ذات الأطوال والألوان المختلفة. كمن صالح لبائع ينشغل عن العالم بإيلاج خيط رفيع في خرز سوداء ناعمة ستؤول فيما بعد مسبحة للأذكار بيد المؤمنين. صورّه ونقل عينيه نحو بائع آخر يذرع السوق ببطء وروية. كان الأخير طويل القائمة، يرتدي سترة مهلهلة، ويلف رأسه بعمامة خضراء يستطيع المرء رؤيتها على بعد أميال. وكان ينشر على ساعديه وصدره وأذنيه المسابح الطويلة، ويُلبس أصابعه خواتم الفيروز، مناديًا بصوت رخيم: «فيروز أصلي.. فيروز نيشابوري». يرددها بطريقة فريدة ومميزة، إذ يمد أول حرفين من الكلمة الأولى بهدوء تام، ثم يدلق باقي الجملة دفعة واحدة. انشغل به صالح والتقط له دزينة صور، بينما وقفت أنا على جانب الطريق أشعل سيجارة.

سرنا بعد ذلك حتى منتصف السوق، وتوقفنا عند مقهى صغير بكرسيين، من أجل شرب ما يصنّفه صالح بألذ شاي في الشرق الأوسط. كان الشاي عاديًا ولا ميزة فيه سوى أنه ثقيل ومدعم بالهال، لكنك لا تستطيع الاعتراض على صالح فيما يخص الطعام والشراب ما دمت قد رضيت صحبته. هي حكمته القديمة مذ كان صبيًا في المطبعة: «كلما كان المطعم بائسًا، كان المذاق طيبًا». بهذا يؤمن ويعتقد، ولا سبيل لثنيه. منح صاحب المقهى خمسمائة دينار،

وانحدرنا في بطون الحواري بحثًا عن لحظات تستحق التدوين بحسبه. سيدخلنا في أزقة طويلة وملتوية كالثعابين تخترقها السواقي النحيفة المختنقة بالنفايات وأعقاب السجائر، لينصب الكمائن. كمائن تجبره على الوقوف وسط الزقاق بانتظار أن يمر عتّال يدفع عربة، أو شاعر كتفه مثقل بحقيبة، أو عاشق يحمل وردة، أو حتى غريب مستطرق ينفث دخان سيجارته، ليصطادهم بعدسته ويضيف صورهم إلى الأرشيف.

تململت وأنا أنتظر.

في الواقع، لا يضجرني ذرع الأزقة كما تفعل كمائن التصوير هذه. أرى فيها شيئًا من استباحة خصوصية الآخرين وانتهاكًا لسلامهم الداخلي. وفي كل مرة أطالب صالح بالكف عن فعلها، يصفعني بالجواب ذاته: ـ لا تصوير بلا كمائن.

حتى أني حاججته ذات يوم:

ـ ألم تقل بأنك معجب بمملكة السويد يا أخي؟ القانون في السويد يمنع تصوير الآخرين دون إذنهم، ويفرض غرامة مالية على من يقوم بذلك.. ما رأيك؟

كانت نيتي استفزازه، علّه يتوقف عن ممارسة عادته السيئة. إلا أن جوابه المراوغ كان حاضرًا: ـ حسنًا، عندما أهاجر إلى السويد، أعدك بأني سألتزم بالقانون هناك.

اكتشف أحدهم الكمين أخيرًا وكادت تحدث مشكلة. كان شيخًا يناهز الثمانين عامًا، يرتدي دشداشة وسترة كبيرة، ويسير متكئًا على عكاز. هتف غاضبًا حين رأى فوهة الكاميرا موجهة صوبه: ـ هَي، أنت، لماذا تصورني؟ هل هذه حديقة حيوانات؟ سأكسر الكاميرا فوق رأسك.

أجابه صالح بهدوء:

ـ عذرًا يا حاج، لا داعي لتكسير الكاميرا.

ثم سار ليقدم له عرضًا:

ـ يا حاج، لديك خياران؛ إما أن تأخذ ألف دينار وتسمح لي بتصويرك، أو ترفض الصفقة ونمضي في سبيلنا.. ماذا قلت؟

لقد تصرف مع الرجل وكأنه متسول! لكن المفاجئ حقًا هو جواب الأخير: ـ اجعلهما ألفين وخذ صورتين.

ـ كلا، صورة واحدة تكفي.

ـ الألف لا يكفي لوجبة غداء.

لم أطق صبرًا، تدخلت وزدت المبلغ ثلاثة آلاف، وغادرنا الزقاق بصورتين لشيخ يتعكز أيامه بعصا الفاقة.

انعطفنا شمالًا وما زال صاحبي يبحث عن مزيد من الصور. صوّر قبة مسجد تطل من بين المحال، كانت قد فقدت بعض بلاطاتها الزرقاء، ثم اعتلى سلمًا صغيرًا من الإسمنت لتصوير بقايا تلة صغيرة، هي كل ما تبقى من حمّام الوالي العثماني، حسن باشا. أما أنا، فلم أخرج الكاميرا ولم ألتقط صورة واحدة، ولو فعلت لكانت النتائج سيئة. الصورة بنت المزاج.. لن تحصل على صورة جيدة ما دام مزاجك سيئًا. ثم إن الأزقة لم تعد هي الأزقة، وما نظنه تدوينًا لحكاياتها ما هو إلا اجترار لخبر موتها، فالمنازل فارغة من أهلها، والجدران مهدمة باستثناء ما سنّد بأعمدة الخشب وجذوع النخل اليابسة، أما المشربيات الخشبية المرصعة بالزجاج الملوّن، فمقفرة وآيلة للسقوط. لم تعد عيون الكاميرات ترى أصص الورد أمام الأبواب، ولا الفوانيس المعلقة برفق على الشرفات.. كل ما تراه الآن فقر وقمامة!

لكن ما يشغلني ليس حال الأزقة، ولا مناقشة ما كان ينصبه رفيقي من كمائن، فالمارّون من هناك يعلمون، على أية حال، بأنهم عرضة للتصوير، كما أن بإمكانهم الاعتراض مثلما فعل

الشيخ الكهل. إن ما كان يشغلني حقًا هو ذلك القاتل المنتظر، الذي قد يظهر في أي وقت ليحيلني إلى جثة هامدة تحفظ في برّادات الموتى.

ـ ما بك كيمو؟ لا زلت تفكر بشأن النادل؟

ـ كلا.

ـ ما بك، إذن؟

ـ أشعر بألم في بطني.

ـ هذا لأنك لم تأكل. معدتك تصرخ. ستصاب بالقرحة إن بقيت على طبعك هذا.

ـ أنت أيضًا طبيب؟

ضيّق عينًا وأبقى واحدة ليقول:

ـ آه! ومن كان قبلي؟

ـ واحدة تقول بأن السكر لدي منخفض.

ـ ما هذا؟! تعرف نساء من ورائي؟

ـ أي نساء يا رجل؟ فتاة تناديني يا عمّو!

ـ لا تقلق، فكم من «عمّو» تحولّت إلى «حبيبي»! عليك فقط أن تحكِ ما حدث، واترك التحليل لأخيك.

ـ دعك مني، واحتفظ بتحليلاتك لنفسك.

ـ حسنًا، أين التقيتها؟

ـ هنا، على الجسر.

ـ إي..!

ـ ليس شيئًا مهمًا، دعنا نعود إلى الأستوديو.

شبك زندي ومال بي باتجاه سوق السراي:

ـ كلا، لن نعود ما لم نتناول الطعام.

ـ لكني لست جائعًا، وحق الله لست جائعًا.

ـ اللعنة على شيطانك، متى تجوع إذن؟

ـ لقد جعت بما فيه الكفاية. دعنا نعود إلى الأستوديو، لدي عمل.

ـ من أين جاءك العمل في هذه الساعة؟ امشِ، لن نتأخر، وجبة خفيفة ونعود سوية.

ـ حسنًا.

مضينا نحو السوق ودخلنا مطعمًا أصغر من علبة الكبريت، يقدم الكبّة. ما زالت هذه الأكلة تقاوم الاندثار، وتتمنع على الهجران الذي أصاب زميلاتها من الأطعمة المحلية، فالمطبخ العراقي مترنح ولن يصمد طويلًا أمام مد الأطعمة الجديدة. لقد امتلأت الأسواق بمطاعم المندي والصاج والكنتاكي، وأسقِطت من لائحة الطعام أكلات عراقية فريدة، بينما فقدت أخرى أسماءها لصالح أسماء مستوردة، فالگصّ صار شاورما، والكباب مشاوي، والدولمة محاشي.. وهلمّ جرّا! حتى طبق الفقراء وعمّال المسطر؛ البيض والطماطة، لم يسلم هو الآخر من التغريب وصار البعض يدلّعه شكشوكة! لكن لمَ العجب وأنت في بغداد؛ مدينة التبدلات والتقلبات الكبرى؟!

ـ ستخرج اليوم تظاهرة، قال صالح وهو يفتح بطن الكبّة بالشوكة لينكشف ما حشيت به من لحم مفروم وبصل وأسرار لا يعرفها سوى صاحب المطعم الضيق هذا.

أعرف بشأن التظاهرة، كانت نادية قد أخبرتني ليلة البارحة بأن شبابًا قد دعوا إلى التظاهر ضد الحنش، وأنها متفائلة.

ـ سمعت ذلك، أجبته.

قطّع الصمون إلى مربعات صغيرة ونثرها في المرق، ثم راح يغطسها بواسطة الشوكة كي تنقع.

ـ هل تشارك؟

اغترفت ملعقة مرق وأدنيتها من فمي. كانت ساخنة، نفخت عليها، وعقّبت قبل شربها: ـ لا أدري، لكن بيني وبينك؛ أخاف إن شاركنا هؤلاء الشباب احتجاجاتهم، سنطفئ حماستهم بأراجيفنا. هم يسيرون بصدور مكشوفة، ونحن نلوذ بالحيطان ونقول يا ساترا!

ـ الحق معك، فنحن جيل تربى على الخنوع.

ـ شكرًا لله أنك اتفقت معي هذه المرة.

ـ ليس تمامًا، فالأراجيف لم تأت بالمجان على أية حال.

رنّ في الأثناء هاتفه الجوّال، فقال دون أن يراه: ـ لقد وصل.

الفصل التاسع والعشرون

ثلاث دقائق

شاب نحيف القوام بعوينات طبية، يربط ذيل شعره من الخلف وعلى كتفه تستريح حقيبة جلدية فاخرة.

ـ هذا هو صاحبنا، همس لي صالح قبل أن نصل عنده.

ـ شرّف أخيرًا!

بدا أنيقًا ومهذبًا، مد كفه للمصافحة معرفًا عن نفسه باللهجة الموصلية بصانع أفلام وثائقية.

ـ آه! أنت من الموصل إذن؟ قلت وأنا أفتح باب الأستوديو وأدعوه إلى الدخول.

ـ أجل، أستاذ، أنا مولود في الموصل.

ثم راح يدفع، بشيء من الإسهاب، خجل اللقاءات الأولى: ـ لقد عشت في الموصل عشرين عامًا، وصنعت عنها عدة أفلام، آخرها القنطرة، عُرض على الـ بي بي سي عربي.

ـ لم أشاهده للأسف. لكن، بُني، لو سمحت، لا تنادني بالأستاذ.

رد بخجل:

ـ لكنك أستاذنا!

ـ لست أستاذ أحد، بُني، نادني بالعم إن لم تستطع تجريدي من الألقاب.

ـ حسنًا، على أمرك.

نظرت لصالح، الذي بدا غير مستقر في جلوسه وكأنه يرغب باختصار الوقت وتفجير بالون التفاصيل. نهض عند الباب ونادى على بائع الشاي ملوّحًا له بثلاثة أصابع، ثم عاد وجلس. لم أنشغل به كثيرًا، فقد كنت تواقًا لسماع المزيد عن الموصل بعد خرابها، سيما وأن ضيفي يحترف التوثيق.

ما زلت كما الآخرين أجهل ما جرى ولا أعرف عن المدينة التي تحتضن رفات أمي أكثر مما رأيته كالغرباء من خلف الشاشات. في رأسي صور كثيرة وحكايات وموتى ودوي قنابل وشهادات عيان، غير أنها متناثرة كحبات المسبحة، وتحتاج إلى خيط يلمّها. لم أصدق يومًا بأن الموصل ستسقط وتغدو حجارتها الصلبة ترابًا منزوع القيمة. كانت صدمتي كبيرة بمنظر المدينة المهدمة، وبالأسيجة العتيقة التي تحمل من شظايا الدمار ما يكاد ينسيني دروب التكوين وأزقة الخطى الحافية. لقد شعرت بالوخز في صدري وأنا أشاهد حال كنيسة مسكنته، وحال ما كان آمنًا خلف جدرانها. وبكيت عندما دار الشريط ليُظهر منازل المياسة خالية من أهلها، وأبوابها ملطخة بالبوية الحمراء ومعلّمة بحرف النون (19).

آه، كم تبدو الحروف كريهة حين ترمز للفرقة والتصنيف!

لكن كل ذلك لم يكن كافيًا للشفاء من حمى المعرفة، وها أنا ذا أشعل سيجارة مع الشاي وأصغي للضيف الذي شرع يحدثني بسخاء عما جرى.

فاجأني أنه يحفظ أسماء الأديرة والكنائس والمقابر التي نسفت، وأعداد المحال والمنازل والمدارس التي هدمت. قوائم طويلة لمن مات ومن خان ومن هجّر ومن ظل قابعًا تحت السياط، قال إنها تنام في حاسبه المحمول. كان يحتفظ بتفاصيل الحكاية وكأنه مراسل حربي جاب الخنادق تحت أزيز الرصاص. حدثني عن كل ما يعرف، ثم وحالما شارف على النهاية رمى جملته الأخيرة التي ستكون مفتاحه للدخول فيما جاء لأجله. قال بأن المدينة ما تزال حية رغم ساطور الموت الذي هشّم أضلاعها.

حينذاك قاطعته بسؤال ينط في رأسي كلما سمعت كلامًا يشوبه خيط التفاؤل: ـ ماذا بقي؟!

ـ بقي الكثير.

ـ مثل ماذا؟

ـ مثل الناس والذاكرة، والرغبة في الشفاء.

ثم أنزل حقيبة الكتف وأخذ يفرش على الطاولة أمامنا بعض الأقراص المضغوطة، والصور القديمة التي يجمعها كجزء من عمله في التوثيق. لقد بدا كمن يجمع الصور ليخيط بها الذاكرة، حتى أني لوهلة ظننت بأنه يريد تشييد نسخة أخرى من متحف السلام.

ـ بماذا أنفعك؟ اختصرت عليه الطريق.

ـ بكل خير، أجاب ودلف للتفاصيل.

قدّم لي عرضًا مقابل الظهور ثلاث دقائق أمام الكاميرا للحديث عن ذكرياتي في الموصل، قال إنه سيدرجها في فيلمه الجديد. ثم أخذ يغلق عليّ زوايا الرفض واحدة تلو الأخرى.

ـ الكلام متروك لك.

ـ خذ وقتك، لسنا مستعجلين.

ـ اختر المكان الذي يعجبك.

ـ لن أنشر شيئًا ما لم تطّلع عليه بنفسك وتوافق.

في الواقع، كان العرض سخيًا، كما أنها المرة الأولى التي أشعر فيها بأني مهم إلى حد الإدلاء بشهادة في فيلم وثائقي. إلا أني رغم ذلك آثرت الرفض، فطيف القاتل بلبل عقلي،

ومن تبلبل عقله تلعثم لسانه.

ـ آسف، لا أستطيع.

الشاب، تبادر لذهنه بأني في غنى عن المال، فزاد في السعر، وهذا يجرحني. إذ لست عاهرة تمارس التمنع من أجل رفع الأجور، أنا فقط لا أستطيع الظهور على الشاشة وعدّاد الموت يصفّر في أذني.. هذا كل شيء.

لكنْ؛ حالما طلّت صورة موريس أفندي من بين الصور، توقفت عن العناد وسألت الشاب: ـ لحظة، هذا موريس أفندي، أليس كذلك؟

ـ أجل، ظننتك لا تعرفه؟

ـ كيف لا أعرفه، بُني؟ أعرفه حق المعرفة.

قلبت الصور فوجدتها كلها مدموغة باسمه. حينها قال الشاب: ـ هذا الذي تراه جزء يسير من أرشيف موريس أفندي.

ـ من أين جئت به؟

ـ اشتريته من ورثته قبل أن يبيعوا الأستوديو وتتحول إلى صالون حلاقة.

أشعلت سيجارة من جمر أختها، ثم نفخت الدخان وقلت: ـ هل سيتحدث الفيلم عنه؟

أجاب وهو يبتسم:

ـ ما دام الفيلم عن الموصل، فلا بد أن يكون لحافظ ذاكرتها السهم الأكبر.. كيف فاتك هذا يا عم؟

ثم استدرك بعدما استشعر الرضا في عيني:

ـ هل أستطيع الآن اعتبارك موافقًا على العرض؟

ـ تستطيع ذلك.

عندها اتسعت ابتسامة الشاب، وأطبق كفيه أمام جبينه تعبيرًا عن امتنانه. أما صالح فانفرجت أساريره أخيرًا وخمد بركان القلق في صدره ليخاطب الضيف: ـ ها! ألم أقل لك سيوافق؟

ـ إي والله، قلت.

ـ حسنًا، لا تنسني في كلمة الشكر إذن.

ـ بالطبع، أستاذ صالح، فلولاك لما وصلت إلى العم كمال.

ـ أنت تستحق التقدير.

تركتهما ينثران على بعضهما كلمات المجاملة، ومضيت أقلب في ألبوم الموصل.

لم أتمالك نفسي وأنا أنظر إلى تلك الصور المذيّلة بإمضاء موريس أفندي، وتنازعني شعوران؛ واحد بالحنين وآخر بالأسى. لكني سرعان ما تعثرت بصورة تكفلت بفك النزاع والعودة بي إلى مربع الحزن الأول. كانت صورة لأطفال عراة ينطون في نهر دجلة. حملتها ورحت أحدق بها منصتًا لتلك الكركرات المقرونة باللعب، ثم استأذنت صاحبَي وصعدت إلى الشقة. أغلقت الباب واندفعت وسط الغرفة، ثم نفخت الغبار عن الكرسي وجلست أطيل الاستماع.

آنئذ، جال الدمع في عينَي، فأطبقت عليه الأجفان وشرعت أحدّث ريمون بصوت أخفض من الهمس قليلًا: هل كان عليك أن تنزلق في النهر يا أخي؟

أما كان لك أن ترفع صوت بكائك قليلًا لعل السماء تبدل رأيها، فتنجيك وتنجيني؟

وهكذا فتق الجرح وسال دم الذكريات. صفعتني ولولة النادبات على الجرف، وطاردتني كلاب أبي تحت ليل الفاجعة. نباح وهمهمة وساق ثقيلة تسحق العشب. لكن خرطوش رصاص كان قد لعلع في الأثناء ليوقف النزف ويشلّ جرح الماضي بفداحة الواقع.

لملمت نفسي وهرعت نحو الأسفل، فتعثرت بطاولة صغيرة منكفئة على الأرض وسقطت. لا تشغلوا بالكم، سقطة خفيفة لا تذكر. اتكأت على ذراعي ونهضت مسرعًا. نزلت إلى الأستوديو، وكان صاحباي عند الباب يراقبان ما يجري.

ـ ماذا هنالك؟ قلت بصعوبة بالغة.

ـ لا شيء، إنهم فرسان بغداد، أجاب صالح.

ثلاثة أوغاد يطلون بالبنادق من شرفات المتحف، وقد رشقوا الهواء بالرصاص. باغتني، حين رأيت الأسلحة في أيديهم، طيف القاتل، وشعرت بأنفاسه تصفع أذني، فما كان مني إلا أن تقهقرت إلى الداخل وجلست أحرق التبغ ويحرقني. لم أكن في وضع يمكنني من الأخذ والرد مع صانع الأفلام الوثائقية، الذي عاد ليؤكد العرض ويشرح متى وأين وكيف ينجز هذه الدقائق الثلاث. اكتفيت بالإيماء، وتواعدنا على الثلاثاء المقبل بعدما أصرّ على دفع الأجر مقدمًا. لقد بدا وكأنه يخشى من تراجعي عن تنفيذ العمل! على أية حال، شكرته وودّعني بلباقة ورحل. وما هي إلا لحظات، حتى ارتفع صوت الرصاص من جديد، لترتفع في الشارع جلبة وصيحات: ـ شهيد.. شهيد..

(19) للدلالة على أن سكان المنزل من المسيحيين أو "النصارى" كما يلقبونهم.

الفصل الثلاثون

اختطاف

الساعة تقترب من الثالثة عصرًا، قلق يصيب المدينة، وأنباء تتضارب عن قطع الجسور وتعطيل الحركة بين الصوبين. كان سيل الشباب نحو شارع الرشيد جارفًا ومتبوعًا باضطراب وزعيق سيارات الشرطة. لم يخطر ببال أحد أن الاحتجاج السلمي سيفتتح بسفك الدماء. كما لم يدرك ابن السابعة عشرة، الذي قتل للتو وفار دمه على الرصيف، بأن ثمن المطالبة برحيل زعيم تافه، باهظ إلى هذا الحد! حملت الكاميرا وأغلقت باب الأستوديو وانسقت خلف موجة الراكضين، برفقة صالح. كان المتظاهرون يحملون جثة رفيقهم ويهتفون بحماسة ضد طاهر الحنش، بينما المسلحون ينتشرون على شرفة المتحف وأسطح المباني. لذنا بأسطوانة خرسانية ومضينا نصوّر المشهد. كان واحد من الباعة يحتمي خلف بضاعته، وقد بدا عليه السخط، ليس من القاتل، بل من الضحية: ـ لو لم يشتم الزعيم، لما قُتل.

ـ أنعل أبوك لأبو الزعيم.

هكذا أسكته صالح، ثم تواصل الهتاف ليتواصل رشق الهواء بالرصاص، وشيئًا فشيئًا أخذت أعداد المتظاهرين تكبر لتملأ شارع الرشيد وتفرعاته. حينها أنزل أحد السفلة فوهة سلاحه وأصاب محتجًا بعيار في كتفه، وآخر في ساقه، ففلى بذلك قدر الغضب وارتفعت الأصوات وأبدِل الهتاف برشق الحجارة. دفعتني موجة بشرية، جعلتني مكشوف الهامة في مرمى المسلحين، فانزحت إلى الوراء واعتليت عربة للفلافل كانت تجانب الرصيف. رفعت الكاميرا وواصلت التصوير محتميًا بترس سميك وفّرته الأسطوانة الجرداء شمال العربة.

كنت محظوظًا لأني أقرأ ما سيمسي تاريخًا، وأشارك في تدوينه، دون حاجة إلى سلسلة رواة، غير أني فقدت صاحبي؛ صالح الذي اخترق صفوف المحتجين وغاب. رأيت مجموعة من الشباب تنشغل بالتصوير والكتابة على سطوح الهواتف. انتشر حينها مقطع الشاب المحمول على أكتاف رفاقه، وأطلق المدونون شريطًا من المنشورات الإلكترونية المذيّلة بوسم: «ارحل». تضاعفت من بعده الأعداد، وأمسى المسلحون على باب المتحف يطلقون الغاز المسيل للدموع. بعض المتظاهرين كان يختنق بالدخان وبعضهم يسارع لركل العبوات أو حملها ورميها في الاتجاه المعاكس. أبدلت العدسة بغية التقاط صور أقرب، فرأيت فتاة الجسر وسط الزحام. كانت مشغولة بإسعاف شاب يختنق. التقطت لها صورة، ليست كصورة الصباح التي بدت فيها وكأنها سائحة، بل صورة فتاة يؤلمها حال وطنها. وبذات الإعدادات صوّبت الكاميرا نحو زملائها، لكن تزايد سقوط العبوات الدخانية بعثر المشهد، ورفع من وقع الاحتجاج. وفي النهاية شعر الفرسان بعدم الجدوى، فصالوا على المحتجين بالهراوات وكعوب البنادق، فتعالت الأصوات وماج الناس في مشهد قل ما نراه في الأزمان الأخيرة.

ـ قنّاص.. قنّاص.. أحدهم يهتف.

هكذا انحرف المشهد في النهاية؛ قنّاصون ماهرون يعتلون بعض العمائر، وظيفتهم نثر الموت بهدوء ورويّة، مما جعل الدماء تسيل ليتفرق المحتجون يمينًا وشمالًا.

نزلت من على ظهر العربة وركضت بثقل صوب أحد الأزقة، فقد هاج ألم كليتي اليتيمة وظل ينغز خاصرتي. كان عليّ التسلل صوب ساحة زبيدة بغية الوصول إلى سيارتي، ومن ثم الخروج والابتعاد عن دائرة الخطر. لكن الحكاية لم تنته بعد، فما زال هنالك فصل ساخن يود فرسان بغداد كتابته. لقد كمن العديد منهم في الأزقة الخلفية والطرقات الفرعية، من أجل اصطياد المحتجين، واقتيادهم نحو مخابئ الضياع. الغريب في الأمر أنهم لم يكلفوا أنفسهم حتى التخفي أو إبدال زيّهم أو خلع أوشحتهم الحمراء كحد أدنى. كانوا يتصرفون بصلف يضاهي صلف الغانيات وبائعات الجنس على الطريق. سمعت، وأنا ألج الزقاق، صراخ

فتاة يتعالى. توقفت قليلًا وسرت بحذر لائذًا بجدران المحال المغلقة. نظرت من بعيد، فتفاجأت بفتاة الجسر وهي تقاتل للفكاك من أسر خاطفيها. كان اثنان من السفلة يمسكان بها ويجرّانها صوب جهة مجهولة. ارتجفت ساقاي وكدت أسقط لما رأيت. «الويل لي، ماذا أفعل؟! لست قادرًا على إنقاذها!» ـ تمتمت في سري ورحت أقترب، والكاميرا بيدي. ومن خلف جدار الخوف وثقت مشهد الاختطاف ببضع صور. لكن أحد الخاطفَين انتبه وانطلق راكضًا نحوي. هربت ولحسن الحظ أن خارطة الأزقة ما زالت محفورة في رأسي. انسللت في زقاق نحيل على اليمين يفتح على آخر أشد نحولًا، وبحركة سريعة رميت نفسي في منزل، بابه موارب. كانت تقف خلف الباب امرأة كبيرة ترتدي نظارة طبية وتلف رأسها بفوطة بيضاء. «من هنا.. من هنا».. ـ همست وهي تغلق وتشير لي بالاختباء في المرحاض الضيق عند المدخل. اختبأت هناك ومضيت أنصت من وراء الحائط ريثما اطمأنت المرأة أخيرًا وقالت: ـ الحمد لله.. ذهب.

خرجت من المخبأ وجبيني يتفصد العرق خوفًا.

ـ شكرًا يا حاجّة، رددت بصعوبة وأنا أتهيأ للرحيل.

اعترضت:

ـ ليس الآن، انتظر قليلًا.

ثم وضعت العباءة على رأسها وخرجت لاستكشاف الطريق. وبعد لحظات عادت: ـ الحمد لله، الدنيا أمان.

شكرتها مرة أخرى ومضيت بحذر حتى وصلت وجهتي. ركبت سيارتي وقدتها في الطرقات المختصرة محاولًا الالتفاف للوصول بأمان إلى نادي المصورين في شارع أبي نؤاس. هناك، ومثل كل ليلة سأجتمع بصالح لتناول كأس من العرق قبل العودة إلى المنزل، وسأعرف ما جرى معه.

وصلت مبكرًا وأخرجت الهاتف للاتصال به، إلا أني تفاجأت بالشاشة مظلمة لا تستجيب. كان هاتفي مغلقًا بسبب نفاد البطارية. طلبت المساعدة من النادل، فأوصله بشاحن متدل قرب زجاجات الخمور، وعاد ليقف على رأسي، وبيده قصاصة لتدوين الطلبات: ـ أستاذ كمال، بماذا تأمر؟

ـ ربع عرَق.

ـ بدون مزّة؟

ـ بدون خرا.

ـ على راسي.

وبعد ساعة تقريبًا وصل صالح، أخبرني بأنه أفلت من جهة شارع الجمهورية واختبأ في صيدلية يديرها أحد معارفه ريثما ساد الهدوء النسبي واستطاع المجيء. قال بين الكلام بأن المحتجين تعاهدوا على العودة بأعداد أكبر في الأسبوع المقبل، وتساءل كيف لم أقرأ الأخبار على الإنترنت.

ـ لأن الهاتف انغلق.. نفدت البطارية.

دفع لي بهاتفه وهو يشعل سيجارة:

ـ حسنًا، خذ اقرأ.

عشرات من المنشورات الداعية للاستعداد إلى تظاهرة أكبر في الجمعة المقبلة، كانت كلها تحمل الوسم ذاته؛ «ارحل»، ومقال طويل لباسم أمين يتم تداوله، وتعليقات كثيرة تصف كاتبه بالقلم الثائر. مرّرت الشاشة إلى الأسفل وقرأت الكثير حتى اصطدمت بصورة لفتاة الجسر كانت منشورة تحت وسم «الحرية لحنين»!

ـ آه يا ابنتي! اسمك حنين، إذن! رددت حين رأيتها.

تنبّه صالح، الذي كان منشغلًا بالحديث مع النادل، فوضع وجهه في الشاشة.

ـ هل تعرفها؟

ـ أجل، إنها فتاة الجسر التي حدثتك عنها في الصباح.

ـ آه! مسكينة!

نفخ الدخان وأردف:

ـ طلبت لك معي تِكّة لحم.

ـ لا أشتهي الطعام.

ـ ستأكل رغم أنفك.

شغلتني قراءة المنشورات عن الرد عليه، لكن صوتًا تدلى من فوق الطاولة جعلني أنتبه.

ـ السلام عليكم.

أووه! يا للقرف! صاحب مكتبة الأضواء الساطعة واقفًا فوق رؤوسنا، وعلى فمه تسري ابتسامة تشبهه. جذب كرسيًا من الطاولة المجاورة وجلس بلا دعوة. نظرنا، أنا وصالح، واحدنا في وجه الآخر، ورحّبنا بالضيف الثقيل على مضض.

بادرنا بالسؤال وكأنه صاحب المكان ونحن الضيوف: ـ ماذا تأكلون؟

رد صالح:

ـ لقد طلبنا، شكرًا لك، أنت ماذا تأكل؟

ـ على حسابي، يا صديقي، هذه الليلة على حسابي.

ـ لا داعي، شكرًا لك، نحن قبلك في المكان.

ـ لا والله، وروح أمي، لن يدفع أحد غيري.

فرقع أصابعه صوب النادل بحركة يعوزها الذوق، وأوصاه حين جاء، بطبق مشويات وزجاجة عرق كاملة.

ـ سنشرب الليلة نخب الحرية، لقد ملأت هاتفي بصور الشباب.. شيء يرفع الراس والله.

ـ هل كنت هناك؟

ـ أجل.

تأملته وبركان سخطي يفور. ما لك والحرية أيها المنافق؟! ألم تروّج لفرسان بغداد وزعيمهم الساقط من قبل؟! ألم تصفهم ذات يوم بصمّام الأمان وحصن المدينة؟! ما بالك تحتفل الآن بالانتفاض عليهم؟! أم هي خطوة تمهيدية لقفزة قادمة يا ابن القرد؟!

جاء الطعام ورفع النادل صوت التلفاز. كانت الثامنة مساء، والمذيعة الجميلة تقرأ خبرها الأول عن الاحتجاجات. صور كثيرة، ومقاطع صوّر بعضها بطريقة سيئة بكاميرات الهواتف الشخصية، بينما صوّر بعضها الآخر بعيون محترفة، لكن من مكان بعيد. كانت غابة من الرؤوس تغطي شارع الرشيد وتفيض لتملأ الشوارع والساحات المقاربة. أردفت المذيعة الخبر بتقرير عن اختفاء طالبة في كلية الطب تدعى حنين جودي، قالت إنها شاركت في الاحتجاجات، ومن المرجح، حسب مراقبين، أن تكون قد خطفت من قبل ميليشيا مسلحة.

شعرت حينها بأن الخبر استفز جليسنا الثقيل، الذي لم ينتظر طويلًا ليؤكد هذا الشعور، إذ سرعان ما بادر لنفخ ضحكة من أنفه وعلّق: ـ ما شاء الله، مباشرة اكتشفوا بأن الخاطفين ميليشيا!

قال له صالح مستنكرًا:

ـ ماذا يكونون برأيك؟ فريق سلّة؟

أجابه واللقمة تدور في فمه:

ـ يا صديقي يا صالح، أرجوك لا تسئ فهمي، أنا لست مع أحد، لكن القليل من المهنية ضروري، من أجل احترام عقولنا لا أكثر. ربما يكونون أشخاصًا مندسين، غايتهم خلط الأوراق.

هذه المرة، أنا من تم استفزازه، وبلا رويّة وتفكير رحت أجادله: ـ قلت لي مدسوسين إذن؟!

ـ أجل.

ـ وعلى الإعلام أن يكون مهنيًا برأيك؟

ـ أجل، لم الاستغراب؟

ـ مممم، وكيف تتحقق المهنية في مثل هذه الحالة؟

ـ لا أدري!

ـ أن يمسكوا الخاطفين مسك اليد مثلًا ويظهروا لنا وجوههم مع التقرير؟

ـ لمَ لا؟

ـ حسنًا، هل يكفيك أن ترى وجوههم لتعترف بأنهم فرسان بغداد؟

فأجاب بذات المثالية الزائفة:

ـ بالتأكيد، فكما قلت لك أنا لست مع أحد، لكن أين الدليل؟

سحقت السيجارة في قعر المنفضة، ثم أخرجت الكاميرا وأظهرت الصور على الشاشة.

ـ تفضل، اقترب وانظر بنفسك.

حدّق هو وصالح في صور الفتاة بين يدي الخاطفين.

ـ هل تأكدت الآن بأنهم ليسوا أشخاصًا مدسوسين من أجل خلط الأوراق؟

كف عن تناول الطعام وعاد إلى الوراء، ثم أخذ يهز برأسه: ـ أجل تأكدت.

وبعد لحظات استأذن للذهاب إلى الحمام.

بادرني صالح:

ـ ألا ترى بأنك قسوت عليه؟

ـ هذا أقل ما يستحق.. منافق!

ـ لكن، صحيح، كيمو، ماذا ستفعل بهذه الصور؟ لا أظنك ستنشرها، صحيح؟

ـ وهل تراني مجنونًا لارتكاب هكذا حماقة؟

ـ ماذا ستفعل بها إذن؟

ـ لا أدري! لكن بيني وبينك، أفكر في تسريبها.

ـ تسريبها؟! كيف؟

ـ لا أدري، عندما أعود إلى المنزل، أجد الطريقة.. لا تقلق، سنفضحهم.

ـ بالطبع، لكن احذر.

جاء النادل لرفع الأطباق فأمسكنا عن الكلام، ثم ذهب صالح لإجراء مكالمة في الخارج، قال بأن عليه أن يطمئن زوجته فهي لا تعلم عنه شيئًا منذ أن غادر المنزل صباحًا. تذكرت نادية، وجلبت الهاتف الذي امتلأت بطاريته وعاد للعمل من جديد، فتفاجأت بعشرات الرسائل وسؤال واحد يتكرر: «كيمو أين أنت؟.. كيمو أين أنت؟.. كيمو أين أنت؟».. كتبت لها باختصار: «أنا بخير» وأغلقت.

نادية تعلم بأن الرسائل المختصرة تعني أني لست بمفردي، ولا أستطيع الاتصال، إذ حتى صالح يجهل وجودها في منزلي.

نظرت إلى التلفاز، كانت صورة الفتاة ما تزال ثابتة كخلفية للنشرة، وخبر اختطافها يتكرر، فأشعلت سيجارة ورددت في سري: «لم أجرّب إنقاذ أحد من قبل، لكني سأفعلها لأجلك أيتها الفتاة».

عاد صالح وجلس قبالتي، ثم عاد أبو الأضواء من الحمّام وفي عينيه قلق فاضح، لا شك أنه قلق الهزيمة. لم يجلس، بل استأذن قائلًا: ـ اسمحوا لي، عليّ الذهاب الآن، حسابكم واصل.

بالنسبة لي، لا يعني ذهابه إلا عودة الأوكسجين إلى المكان، أما صالح فتفوه بكلمات مجاملة لا بد منها في هكذا موقف: ـ إلى أين؟ ما زال الوقت مبكرًا.

ـ لدي موعد في الصباح، تذكرته الآن، إلى اللقاء.

وبعد دقائق رنّ صوت الرسائل من هاتف صالح، وانشغل في الكتابة.

سألته:

ـ هل هناك مشكلة؟

ارتبك قليلًا:

ـ هاا، لا، إنها زوجتي.

ـ من المؤكد أنها ما تزال قلقة.

ـ أجل، أجاب وعقله متصل بالهاتف.

انتهى منه أخيرًا، واستأنفنا الكلام تحت غيمة الدخان حتى شارفت الساعة على العاشرة. ارتشفت وشالة الكأس وهممت بالرحيل مخاطبًا صاحبي: ـ ألا تذهب؟ دعني أوصلك في طريقي.

ـ شكرًا كمال، اذهب أنت، الله معك، أنا سأبقى قليلًا.

ـ حسنًا، كما تحب، تصبح على خير.

ـ أجمعين.

غادرت صوب المنزل، وفي رأسي خطة لفضح الأوغاد.. لكني لم أصل.

الفصل الحادي والثلاثون

أربع رصاصات

ستة..

خمسة..

أربعة..

ثلاثة..

ها هو ذا عدّاد الموت يعاود العمل منحدرًا بأنفاسي من حيث وصل. لقد حسم القاتل المأجور أمره ورشقني لدى باب الزقاق بأربع رصاصات خرساء، ثم سلبني الكاميرا ليركب دراجته ويلوذ بالفرار.

كان صوت تهشم الزجاج واختراق الرصاصات جسدي قد أشعل وميض القدر وأخفى طيف حارس البستان. هتف أحدهم: «قتلوه.. قتلوه».. وتنادى له سكان الحيّ. أُخرجت من بين الهشيم وأُلقيت لحمًا طريًا على رمل الرصيف. كنت غارقًا بالدماء، عاجزًا عن تدوين سطر في سجل الشهيق والزفير. سمعت نادية تصرخ وتولول كالثكلى، ورأيت، فيما بقي لي من قدرة على الرؤية، الفزع يجلل عينيها. أبعدها شخص يحاول إيقاف النزيف. لم يكن لديه ما يغلق به ثقوب الغدر، فخلع سترته وكوّرها وراح يضغط بها على صدري. ثم خالف كفيه فوق الأضلاع من أجل إنعاش قلب لا يُراد له أن يستريح. قال واحد من خلفه: «لا ينفع.. لا ينفع».. وردّه آخر: «إن شاء الله ينفع».

اثنان ممن لم يشغلهم التصوير بالهواتف، استجابا لكلام المسعف وحملاني إلى جوف سيارة ستنطلق بي صوب المشفى. كان صريخ نادية في ذيلنا عاليًا بادئ الأمر: «كمال.. كمال.. وِلَك كمال».. لكنه بهت عندما تراخت الحواس وتثاقلت الأجفان، ثم شيئًا فشيئًا تلاشت الأصوات والوجوه والصور. شعرت إذ ذاك بأني موثوق داخل منطاد تسيّره الريح، أحاول الانزياح نحو الحافة ورؤية ما يحدث حولي دون جدوى. سيّرتني الريح مسافات طويلة، وفي النهاية هجست صخرة ثقيلة تسقط فوق صدري.. مرة، ثم مرة، ثم مرة، وفي الرابعة انفجر المنطاد وتهاويت، ليرتفع صفير مزعج من جهاز معلق قرب رأسي: «بيب.. بيب.. بيب.. بيب»..

جلبة يثيرها أشخاص غرباء، يتداولون أرقامًا ونسبًا لا أفقه معناها! ثم يتطاول أحدهم ليصفعني على خدي مناديًا باسمي: ـ كمال.. كمال..

يبدو أنه كان بانتظار إفاقتي ونثري كلمات الشكر فوق رأسه لإنقاذه حياتي! لكني خذلته، إذ اعتلاني جاثوم ثقيل كان قد منعني من الاستجابة لصوت لهفته. سمعته في النهاية يقول لإحداهن قبل أن يغادر: ـ أبقيه على الأوكسجين وراقبي حالته.

وهي تجيب:

ـ أمرك، دكتور.

غير أنها ظلت تتذمر وهي تعالج كيس المغذّي قرب رأسي: ـ لو مات لارتاح وريّح.

ثم خرجت وأغلقت الباب خلفها، فأمسيت مذ ذاك اليوم معلقًا بين الحياة والموت وكأني خشبة في نهر؛ ثلثاها غارقان في الماء وثلث يطفو فوق السطح مستسلمًا لموج الزوارق يصفعه كيف ما يشاء.

نشيج نادية ظل يعذبني ورائحتها تذهب وتجيء. في اليوم الثالث أو الرابع، لا أتذكر، أمسكت بيدي وزرعتها بعشرات القبل، ثم لم تدعها قبل أن تسقيها بالدموع وتغادر بأمر من

الممرضة المشرفة. أبدلت الأخيرة كيس المغذّي وخرجت. وفي صبيحة الغد جاء الطبيب برفقة ممرضة ثانية، أرق صوتًا وقلبًا. جس نبضي وتحدث معها عن دواء ما، فقالت له باختصار: ـ حاضر، دكتور.

ثم أخبرته وهي تغرز إبرة الدواء في الكيس، بأن أحد أفراد عائلتي يروم زيارتي وأنه ينتظر خلف الباب.

ردّ عليها:

ـ ألم أوقف الزيارات؟

ـ بلى، دكتور، ولكن أرجوك خمس دقائق فقط، وأنا سأكون معهما.. أعدك بذلك.

ـ هذه المرأة كل يوم تأتي! كل يوم!

ـ لا، ليست هي، شخص آخر.

ـ من يكون؟

ـ رجل من أقربائه يريد خمس دقائق فقط.

ـ حسنًا، خمس دقائق، ولا تغادري الغرفة.

ـ حاضر، دكتور.

خرج الطبيب وأدخلت الممرضة الزائر الذي همس لها حالما صار في الداخل: ـ خذي هذه العشرة أيضًا، وانتظري في الخارج.

ـ حسنًا.

قبلت المرأة بالصفقة وخرجت وأغلقت الباب برفق، فخطا الرجل نحوي وجلس على حافة السرير.

قال بعدما تنهد:

ـ آه أيها الفاشل حتى في الموت؛ أربع رصاصات وما زلت حيًا!

ثم دنا وأردف بنبرة منقوعة بالخسة: ـ أعلم بأنك تسمعني، ولربما تصفني الآن بالنذل، لا بأس، فأنا أفضّل النذالة على الموت. لكن قل لي بربك؛ أما كان لك أن تفهم بسنيك الطويلة وشعرك الأشيب، أن هذا الزمان هو زمان الحنش؟ أما كان لك أن تفهم بأننا ضيوف عليه، وأن على الضيف ألا يرفع صوته ويزعج صاحب الدار؟ يا أحمق، هؤلاء السفلة لا يكترثون لضجيج الهتافات ما داموا يملكون المال والسلاح.. يا أحمق، ستنتهي هذه الزوبعة وينتصرون. نعم نعم، لا تتصنع الدهشة، فأنت في بغداد أيها المبدئي الساذج.

أمسك قليلًا وواصل:

ـ ظننتَ بأني متعاطف معهم وأدافع عنهم، أليس كذلك؟ كلا يا غبي، أنا ألاعبهم وأضحك على ذقونهم، وهذا ما أواصل فعله، ليس معهم فحسب، بل مع كل قوي. صحيح أني قبضت الثمن، فكل شيء بثمن، لكنها في النهاية ليست صفقة سيئة تمامًا، لقد فعلت ما ينبغي فعله؛ ضحيت بعجوز فاشل من أجل فتاة حالمة.. أخذوا الصور وأفرجوا عن فتاتك، ماذا تريد أفضل من هذا؟ بالمناسبة، هذا ما كان عليك أنت فعله؛ أن تضحي بنفسك من أجل إنقاذها، لا أن توثّق الحدث وتهرب كالأرنب المذعور!

الفصل الثاني والثلاثون

موعد للانتقام

لم يكن قربي سوى نادية!

فاجأني أنها بلا برقع، تسفر عن شعرها وترتدي ثيابًا بلا عباءة. جففت بالمنديل دموعها وقالت متصنعة ابتسامة: ـ هيا، انهض، يكفي دلال أيها الرجل المحظوظ.

كنت أظنها قد وصفتني بالمحظوظ لأني نجوت أخيرًا، لكنْ بين الخيبة وظنوني عشق مزمن، إذ حالما خرجت من باب المشفى مستندًا على كتفها، ورأيت الخراب بعيني، عرفت بأن الغيبوبة أغلى من الصحوة أحيانًا، وأنها هبة سماوية لا ينالها إلا من أوتي حظًا وافرًا.

في الأشهر الثلاثة التي قضيتها موصولًا بالأجهزة، تمكن المحتجون من إسقاط الحنش وإجباره على الفرار، غير أنه لم يرحل قبل أن يأمر أتباعه بصب الزيت على تلال القمامة وحرقها، لتشتعل فتشتعل المدينة بأسرها. لقد انفلت عقال النار وتغطرست الحرائق لتأكل المزيد من المحال والمكتبات والمنازل والمشافي والدوائر الحكومية. كان الدخان يظلل سماء بغداد، ورائحة الإطارات والقمامة المحروقة تنسلّ من بين النوافذ وشقوق الأبواب، لتجعل حياة المواطن في المرتبة العاشرة بعد الخراء. في تلك الأيام، لم تتوقف صافرات الإنذار عن الدويّ، ولا المساجد عن التكبير والتحذير، مما حدا بالناس إلى صعود السلالم والتمترس فوق الأسطح. من كان له سقف، نجا، ومن كان عاريًا، مات. كثير من المشردين لاذوا بجدران الأزقة وجحور الخرائب، لكن النار عمياء لا ترحم من تطاله ولو أقسم لها برب النار أنه بلا مأوى. لقد هاجمتهم وتلقفت ذيل أسمالهم لترتفع بذلك صرخات الفزع. احترق بعضهم وتفحّمت جثته، بينما سلم آخرون كانوا قد ارتمسوا في نهر دجلة، أما من لا يجيد السباحة منهم، فقد ظل مرابطًا فوق الجسر بانتظار معجزة.

نادية، التي تواصل سرد ما جرى مدةَ غيابي، هي الأخرى لم تسلم من فرسان بغداد قبل سقوطهم، ولولا أنها استشعرت الخطر ولاذت بالفرار، لكانت الآن رقمًا في لوائح الضحايا الطويلة. قالت وهي تعينني على الجلوس فوق السرير، بأن رائحة اختبائها عندي فاحت بعد ليل الحادثة، وداهم السفلة المنزل. ثم أردفت بنبرة أسف أنهم عندما وجدوه فارغًا، عزّ عليهم ألا يخطّوا على جدرانه ذكرى، فزرعوا فيه قنبلة أحالته إلى كوم حجارة.

ـ أنا آسفة!

في الواقع، لم يراودني ذلك النوع من الحزن الذي يفترس قلب من يخسر منزله، ربما لأن كل الخسائر لا تصمد أمام ربح فراق الحنش وعصابته، ففراق القتلة عيد ولقياهم مأتم. لهذه الأسباب وجدتُني، بلا تصنّع، أمازح نادية: ـ هذا يعني بأننا لاجئان في متحف السلام؟

ـ بل، مواطنان بهوية وختم، يبدو أنك لم تلحظ الراية في الأعلى.

كان الأثر بالغًا والرماد كثيرًا، إلا أن التوق للحياة محدلة تهرس عِصيّ الخراب، فقد تمكن الشباب من إخماد الحرائق وإنقاذ ما يمكن إنقاذه. لقد أزاحوا القمامة والأبواب المتفحمة وبقايا المشربيّات، وغسلوا الطرقات والأرصفة وأعادوا تشغيل الماكينة. أما المحال والحوانيت التي اغتصبت، فقد تم استرجاعها وتسليمها إلى أصحابها الشرعيين، وها هي رائحة الأركيلة تتصاعد من مقهى الأصدقاء في الأسفل. كان السرير مطروحًا في الطابق العلوي للمتحف، قرب النافذة المشرعة، وكانت المروحة تدور في السقف، بينما صوت الحبيبة يبلل أطراف الحديث.

لكني، رغم ذلك، كنت جالسًا على موقد من غضب ولساني يلوك جمر الانتقام.

سألتها ويدي تهرش ذقني:

ـ هل رأيتِ صالح؟

ـ كلا، لكنه زارك في المشفى.

ـ أعرف هذا، ناوليني هاتفي لو سمحتِ.

ـ حسنًا.

أظهرت الرقم وكبست على زر الاتصال، دون جدوى، فلا أحد يجيب.

ـ دعك من الهاتف ونم قليلًا، قالت.

ـ نمت بما فيه الكفاية، أجبت.

وبعد دقائق، اتصل صالح ليقول إنه لم يسمع الرنين، وإنه كان ينوي عيادتي من جديد، صباح الغد في المشفى.

ـ لا داعي لذلك، لقد خرجت، تعال فورًا، أريدك.

ـ أين؟

ـ في المتحف.

لبّى الدعوة وجاء مسرعًا، جلس على طرف السرير وشرع يغرقني بكلمات السلامة، التي لم أكن حريصًا على سماعها قدر حرصي على معرفة ما أريد معرفته.

قاطعته:

ـ أين أجده؟

ـ لا أعلم.

ـ لا تكن لئيمًا، صالح، وأخبرني بمكانه.

ـ صدّقني لا أعلم.

ـ حسنًا، أعطني رقمه.

ـ ماذا تفعل به.

ـ لا عليك، فقط أعطني الرقم، لا تماطل.

ـ حسنًا حسنًا، لقد صار عندك، لكن هل أنت متأكد بأنه هو من فعلها؟

ـ ما بك؟ قلت لك زارني في المشفى واعترف بالوشاية.

ـ السافل!

رنّ جرس الرسائل، وحفظت الرقم على اللائحة، بلا تفاصيل.

ـ ماذا يدور في خاطرك؟ قال صالح محدّقًا بي.

ـ كل الخير، أجبت متشاغلًا بالهاتف.

وفي صبيحة الغد استجمعت همّتي وخرجت إلى السوق. جلبت بائع الأنتيكة إلى الأستوديو الذي احترق نصفه، بعته كاميرا عتيقة بثلاث أرجل، وما لم تمسسه النار من ألبومات صور وعملة وطوابع، كما بعته الفانوس المعلق على الجدار والذي، رغم بلوغه التسعين، ما زال يعمل. ثم جمعت المبلغ واشتريت به مسدسًا وخمس عشرة إطلاقة، سأفرغها في رأس الساقط، صاحب مكتبة الأضواء الساطعة. سألقنه درسًا في الانتقام وأخبره، قبل الضغط على الزناد، بأن طعم الأرنب مر. لكن عليّ الخلاص أولًا من حجر السعادة، فهذا الحجر الصغير، وإن كنت قد اجتزت به كل الخيبات، جعل مني كائنًا هشًا لا يجيد استرداد حقه. كفاني صمتًا، لقد حان وقت الحساب.

أخفيت المسدس في حزامي وسرت قاصدًا نهر دجلة، اعتليت الجسر، ومن هناك قطعت الحجر من عنقي ورميته. ثم أخرجت الهاتف ورحت أتصل بغريمي، دون فائدة، فهاتفه مغلق أو خارج نطاق التغطية، بحسب المجيب الآلي.

أين ذهبت يا ابن الحرام؟! عليك أن تموت حالًا، فموتك يشفي صدري. بقاؤك على قيد الحياة يؤلمني، كما أنه يعني بطريقة ما أن اغتصابنا من قبل أوغاد آخرين أمر وارد.. الأوغاد ما كان لهم أن يكونوا أوغادًا لولا وجود أشخاص جاهزين للبيع، على شاكلتك. على أية حال، ما أريدك أن تعرفه في هذه اللحظة هو أن الانتقام بالنسبة لي أمسى ضرورة وعملًا واجبًا لن أتهاون عن أدائه. صحيح أن موعده قد تأخر كثيرًا، تأخر عمرًا بأكمله، لكن تأخير الانتقام يجعل الضربة أقسى. هكذا قرأت ذات مرة في كتاب لا أتذكر عنوانه. ولكي أكون صريحًا معك، فإن هذه العبارة لم تعجبني حينها ولسذاجتي همّشت قربها بأن الانتقام، تقدم أو تأخر، ما هو إلا حلقة في سلسلة الجريمة. الآن أبدلت رأيي، وأمسى في عنقي اعتذار لصاحبها. أما أنت، يا ابن الكلب، فما عليك سوى أن تجيب على اتصالي.. عذرًا، رقم الهاتف المطلوب مغلق أو خارج نطاق التغطية.. طوط طوط طوط.

ما زال النذل مختبئًا خلف المجيب الآلي، وليس أمامي سوى صالح، فهو يعرف أنى يمكن أن يكون. ناديته من جديد ولم يتأخر. جلسنا عند شاطئ النهر، ومضيت أقدم له الوعود بعدم ارتكاب حماقة تودي بي إلى حبل المشنقة، فقد كان يخشى عليّ من الموت، وكأني أعيش حياة يؤسف لأجلها! رضخ في النهاية وأخبرني بما يعرف: ـ لم يبتعد أبو الأضواء كثيرًا، ما زال في بغداد.

ـ أين؟

ـ مختبئ في منزل أنسبائه.

ـ هل أنت متأكد؟

ـ أجل، أخبرني بذلك خال بناته.

ـ لماذا لم يهرب برأيك؟

ـ كمال، هل أنت غبي لتسأل هكذا السؤال؟ متى كانت الثعابين تفضل الهرب؟ تراه يجهّز لارتداء ثوب جديد.. لا تخف عليه سيعود أقوى مما كان.

عضضت شفتي:

ـ لن يعود.

ـ أنت تخيفني، ماذا تنوي أن تفعل؟

ـ قلت لك كل الخير، اطمئن.. هل لديك رقمه؟

ـ ما بك؟ لقد أرسلته لك، هل نسيت؟

ـ ليس هو، أقصد رقم نسيبه.

ـ أجل، عندي.

ـ اتصل به، وتأكد.

ـ أنا متأكد، لقد أخبرني بذلك دون علمه، فقد شدّد عليهم ألا يخبروا أحدًا بمكانه.

ـ مع ذلك، اتصل به، لن تخسر شيئًا. وافتح مكبر الصوت، افتح مكبر الصوت.

ـ فهمنا فهمنا.

استجاب صالح واتصل، لنكتشف بأن الأخبار ليست كما قال تمامًا، فالثعبان يتجهز للرحيل خارج الحدود. لا نعرف الأسباب، لعله علم بخروجي من المشفى، أو تعرض إلى التهديد من

ضحية أخرى، فضحايا هؤلاء كثيرون. غير أننا عرفنا من نسيبه، الذي بدا شبيهًا له في حب الثرثرة وفضح الأسرار، بأنه سيسافر برفقة عائلته الصغيرة إلى إسطنبول كمحطة أولى. قال، قبل أن يُسأل عن ذلك حتى، إن موعد السفر صباح الغد، وأضاف متباهيًا بأنه سيوصلهم إلى المطار بنفسه.

ـ في أي ساعة؟ اسأله في أي ساعة؟ همست لصالح.

أغمض عينيه وأومأ برأسه كعلامة على الموافقة، وقال: ـ يصلون بالسلامة. لم تقل لي، في أي ساعة يتوكلون؟

ـ لا أتذكر موعد الطائرة بالضبط، لكني سآخذهم عند الخامسة فجرًا.. هل تأتي للوداع؟

ـ لا، للأسف، لا أستطيع. بلّغهم سلامي.. إلى اللقاء.

ـ إلى اللقاء.

داهمني، بعدما أنهى صالح المكالمة، وخز في صدري جعلني أسحب نفسًا طويلًا وأزفره.

ـ ما بك كيمو؟

ـ لا شيء.

ـ أنت بخير؟

ـ سأكون بخير.

نظر في عينَي.

ـ كيمو، لقد وعدتني، لا تنس ذلك.

ـ اطمئن، فقط أريد أن أبصق في وجهه أمام زوجته.

ـ دعني آتي معك إذن.

ـ لا داعي.. فقط أعطني العنوان.

ـ حسنًا.

توادعنا وقضيت بعض النهار قلقًا في المقهى، ثم دلفت إلى المتحف وصعدت إلى الطابق العلوي من أجل راحة ما قبل المهمة؛ مهمة الانتقام الثقيلة على واحد مثلي.

كانت نادية قد هجست ما نويت فعله، وأخذت تتوسلني الإعراض عنه: «أرجوك دعك من الانتقام، لا تفقد ذاتك، اصفح عنه.. الصفح انتقام النبلاء». وكلام طويل لا يمكن وصفه إلا بالرومانسي، فما كان مني إلا التظاهر واصطناع الدهشة مدعيًا بأنها حالة سوء فهم لا أكثر.

ـ والمسدس الذي في حوزتك؟

ـ هل تفتشين في أغراضي؟

ـ كلا، لكني رأيته بالصدفة. قل لي ماذا تفعله به؟

ـ اطمئني يا عزيزتي، لست راغبًا في حمل السلاح، لقد اشتريته لحماية نفسي فقط.. اطمئني أرجوكِ.

قلت ذاك ولا أدري إن كانت نادية قد اقتنعت أم لا، لكنها على أية حال ابتسمت وذهبت تواصل عملها، ففي الطابق السفلي يجري طلاء القاعة من قبل ثلاثة من المتطوعين.

أغلقت باب الغرفة خلفها وأخرجت الرصاصات وفركتهن براحة يدي، ثم ألقمتهن المسدس ولساني يتمتم: «لست نبيلًا بما فيه الكفاية يا نادية، عند الخامسة فجرًا سأهدي السافل ما

يستحق؛ خمسة عشر عيار ناري صارخ بلا كاتم.. وحدهم الجبناء من يفضلون استخدام الكاتم». خبأت المسدس تحت الوسادة ودلفت إلى الحمّام كي أغتسل. وقفت عاريًا أمام المرآة على المغسلة، ونظرت في ذقني متحسرًا: «آه، لو كان أشعث!» فالذقن الأشعث يمنح الوجوه صرامة المنتقيمن. لم تدعه نادية يطول كثيرًا، كانت تشذّبه في المشفى كلما اجتاز الحد الذي تحبني فيه. استحممت وخرجت نصف عار، فربيع بغداد صيف يافع، ثم جلست وحيدًا أنتظر.

فرغت نادية أخيرًا وانصرف المتطوعون، وحل المساء وافترشنا الأرض لتناول الجبن والزيتون. بعد هذا لم أكن مشغولًا بشيء سوى مراقبة الوقت. أمسيت مستلقيًا فوق السرير أقلّب بالهاتف وعيناي تواصلان النظر في الساعة أعلى الشاشة. استحمت نادية هي الأخرى وجاءت نصف عارية تداعب رأسي وتمر بأصابعها على أثر الإطلاقات في صدري. لم يفتها إطفاء الضوء وإسدال الستائر، وكأنها تقول: «استرخِ، فما تنوي فعله لا يشبهك». ثم أزاحت عني ما يشغلني، وأخذت تقبل ذقني وتهمس في أذني ما أحب سماعه تحت سقف العتمة. قبلتها في فمها وشممت عنقها الذي ما زال يذيبني، ثم هبطت على مهل أجول جسدها وقد أمسينا عاريين تمامًا. ارتفع صوت اللهفة، وانخفض بعد حين متبوعًا بثقل الأجفان الذي يراود العشاق إثر كل لذة، وغفونا.

لا أدري كم غفونا، لكن صرير أبواب الدكاكين وهي تفتح جعلني أقفز من على السرير كالمصروع. كان صوت النهار عاليًا، وضوء الشمس يخترق الستائر دون شعور منا. سرت نحو النافذة، أزحت الستارة قليلًا ونظرت إلى الخارج، فشرعت بالضحك. سألتني نادية من بين شعرها المفرود على الوسادة: ـ ما الذي يضحكك يا كمال؟

ـ طلع النهار ولم أنتقم!

انتهت

الرواية من نسج الخيال وأي تشابه ورد في الأسماء والأحداث والأمكنة إنما هو محض مصادفة ومجرد من أي قصد.

1. الغلاف
2. حجر السعادة
3. حجر السعادة
4. الفصل الأول
5. الفصل الثاني
6. الفصل الثالث
7. الفصل الرابع
8. الفصل الخامس
9. الفصل السادس
10. الفصل السابع
11. الفصل الثامن
12. الفصل التاسع
13. الفصل العاشر
14. الفصل الحادي عشر
15. الفصل الثاني عشر
16. الفصل الثالث عشر
17. الفصل الرابع عشر
18. الفصل الخامس عشر
19. الفصل السادس عشر
20. الفصل السابع عشر
21. الفصل الثامن عشر
22. الفصل التاسع عشر
23. الفصل العشرون
24. الفصل الحادي والعشرون

25. الفصل الثاني والعشرون
26. الفصل الثالث والعشرون
27. الفصل الرابع والعشرون
28. الفصل الخامس والعشرون
29. الفصل السادس والعشرون
30. الفصل السابع والعشرون
31. الفصل الثامن والعشرون
32. الفصل التاسع والعشرون
33. الفصل الثلاثون
34. الفصل الحادي والثلاثون
35. الفصل الثاني والثلاثون

أحدب نوتردام

هوغو, فيكتور
9789922643120
pages 464

Buy now and read (Advertising)

في الرواية تجربة إنسانيَة فريدة تجمع الجمال إلى القبح. وتحمل مضامين كبرى عن العاطفة; عن التسامي والتضحية والحُبَ، عن الأحقاد والكراهية والانتقام. وهي واحدة من أشهر الروايات الرومانسيَة، لما تصوَره من عاطفة قوية تحرَكها الغجرية في قلوب الجميع لا سيما قارع الأجراس في كاتدرائية نوتردام والكاهن إنَها تراجيديا رائعة من القرون الوسطى عن الأقدار المشؤومة وسلطة الكنيسة، تدور أحداثها في عهد لويس الحادي عشر، ومسرحها تحفة معماريَة. ترنَ في أركان الكاتدرائية الأجراس والمصائر. يتوغل فيكتور هيغو في روايته، عميقا في عالم المشردين والمهمشين، وحتى الأسياد المنكسرين على أنفسهم أمام عالم يسوس فيه الظلم، ويعربد فيه المنافقون باسم التدين. ينتصر الكاتب الشاعر في هذا العمل للعاطفة الإنسانية كدافع جوهري لكل حراك اجتماعي يتوق للتحرر والانعتاق، فكأنما أحداث نوتردام في أواخر العصر الوسيط هذه، هي التي مهدت لبواكير الثورة الفرنسية في أواخر القرن 18، والتي أرخ لها فيكتور هيغو، في رائعته "البؤساء". نجح هيغو، من خلال هذه الرواية ذات الأحداث الآسرة، في حياكة قصة حب متشظية بين شخصيات تائهة، ولامس معادلة صعبة المنال وملتبسة المفاهيم، وهي مبنية على العلاقة بين ظاهر الشخصية وباطنها، بين قبح خارجي وجمال داخلي، وتؤسس لمفهوم فلسفي شديد التعقيد، وهو سؤال الجمال وعلاقته بالصالح والنفعي، وما يجب أن يكون.

Buy now and read (Advertising)

أزهر جرجيس

حجر السعادة

الطبعة السادسة

رواية

مكتبة
Telegram Network

القائمة القصيرة
الجائزة العالمية للرواية العربية
INTERNATIONAL PRIZE FOR ARABIC FICTION